دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

ستيفان زفايج



« ليس هناك مايترك في النفس انطباعا أعمق ويوحد بين الناس في عاطفة واحدة بصورة أمتن ، مثل نتاج حياة إنسان كاملة ، وبالنتيجة مثل هذه الحياة نفسها »

تولستوي

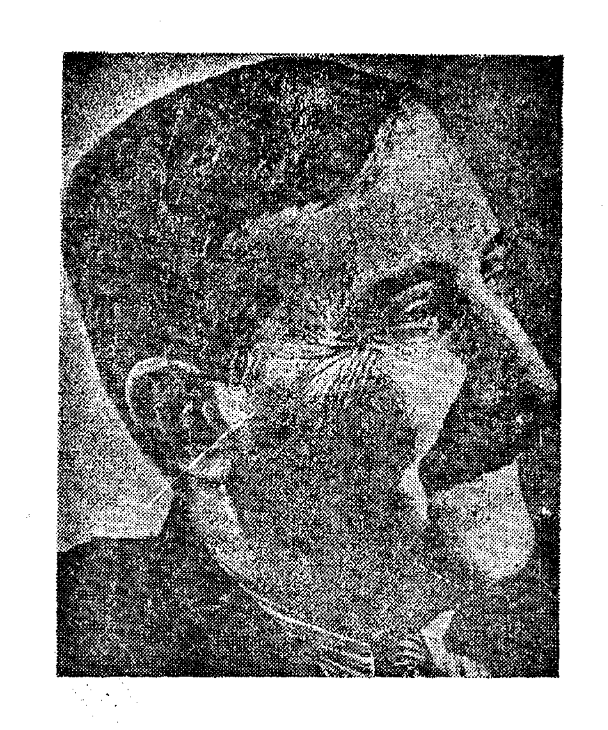
« المذكرات » ٢٣ آذار ١٨٩٤

ترجمة

فؤاد أيوب

سلسلة عيون الأدب العالمي

٣



ستيفان زفايج

١٨٨١ — ١٩٤٢

الإهداء

مكسيم جوركي

ستيفان زفايج

تصدير

ان الفكر العربي ليتطلع أكثر فأكثر ، في تفتحه المستمر وازدهاره الدائب، نحو آداب الشعوب الأخرى يريد أن ينهل من معينها الـــثر ،وأن يسكر من نشوة خمرتها اللذيذة ، يحدوه الادراك الوطيد بأنه لن يستطيع ارتفاعاً الى المـــكانة التي يطمح اليها في مراتب الأدب العالمي مالم يتفهم هذا الأدب العالمي جيداً ويتمثله بصورة حسنة ، بحيث يوطد الأسس التي يقوم عليها ، لا بتقليده آداب الشعوب الاخرى ، بل باستمداده العون منها كي يدخل أعمق فأعمق الى غور الاشياء ، ويزداد نفوذاً الى لب الامور ، ويتجرد عن كثير من السطحية مابرح يطغى على أدبنا،ويجعل أن يكون تراثنـــا الفكري هو الأدب وحده تقريبـاً ، دون سائر ميادين النشاط الفكري الأخرى .

وفي الحقيقة ، هل كانت النهضة الاوروبية تعقل دون ماحمله الى الغرب اولئك العلماء الهاربون من وجه العثمانيين لدى فتح القسطنطينية ،بالاضافة الى سائر العوامل الاخرى ، الاجتماعية منها والسياسية على حد سواء ، المتوفرة لاوروبا في ذلك الحين بالضبط ؟ ومن قبل ذلك هل كانت نهضة الفكر العربي ، في العصر العباسي خاصة ، تعقل دون ترجمة الآثار الفلسفية الاغريقية واللاتينية الى لغة الضاد، بالاضافة الى مختلف العوامل الاجتماعية والسياسية الاخرى ايضاً ؟ ومن بعد ذلك هل كان ازدهـــار الفكر والأدب الروسيين يعقل دون ذلك الانصباب ، المنقطع النظير ، على الآثار الفكرية الغربية بعد إصلاحات بطرس الكبير ؟ ولم تصاب آداب كل امة وفنونهـا بنكسة قوية من حين لآخر ، بينا هي تعتقد أنها قد بلغت الأوج من التطور ، فلم يعد النشاط الفكري لاية أمة أخرى يستطيع أن يطاولها أو يسابقهـا ، فهي في غنى عنه اذن ؟ مما لاريب فيه أن الحواجز بيننا وبين آداب الامم الاخرى يجب أن تنهار بالضرورة ، وأنه لابد لنا ــ ونحن نحتفظ بطابعنا وشخصيتنا القوميين ــ من

أن نستقي من تلك الينابيع ، لكن بشرط أن نعرف كيف نستقي .

وفي الواقع إننا لحاجة الى الاداب الاجنبية، ولكن علينا ان نختار خيرهـــا دون شرها، يجب ان ننتقي ، لأن الانتقـــاء هو الشرط الأساسي للفائـــدة في هذا المضمار .

ولقد أحست « دار اليقظة العربية » هذه الحاجة الضرورية الملحة ، فقررت ان تبذل الجهد الكافي لتشارك في ملء جزء من الفراغ في حدود طاقتها وامكانياتها ، فطلبت الى نخبة ممتازة من الأدباء والمفكرين والأساتذة ان ينقلوا الى اللغة العربية عيون التراث العالمي .

ولقد باشرت الدار في إنجاز هذا المشروع العظيم وانتقت عدداً من الادباء والمفكرين الروسيين ، والالمانيين، والفرنسيين ، والبريطانيين ، والايطاليين، والاسبانيين ... كان من عدادهم الكاتب النمسوي الشهير ستيفان زفايج الذي قال عنه الروائي الفرنسي الكبير جول رومانس« إنه أحد المفكرين السبعة الاكثر عمقاً في اوروبا بأسرها » ، والذي نقدمه اليوم الى القراء في إحدى دراساته المشهورة التي كتبها عن الروائي الروسي الأعظم ، ليون تولستوي .

* * *

وُلد ستيفان زفايج في فيينا ، عاصمة الامبراطورية الجبارة حيث تلقى علومه، في الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٨١ ، وكان في الثالثة والعشرين عندما نال شهادة الدكتوراة في الفلسفة بأطروحة عن الناقد الفرنسي الشهير تين، كما فـاز في الوقت نفسه بجائزة بوير نفيلد للشعر ، وهي احدى الألقاب الادبية الرفيعة في النمسا في ذلك الحين ، اثر إصداره مجموعة من الاشعار ، وترجمته لبعض قصائـــد الشاعر الفرنسي فرلين الشهيرة ، وتأليفـــه لبعض الاقاصيص ، ووضعه مسرحية شعرية أيضاً . ولكنه كان يرى « ان الأدب ليس هو الحياة » ، بل لا يعدو كونه

«وسيلة للسمو بها ، وسيلة لإدراك مأساتها بصورة أكثر وضوحاً وتفهماً». كان يطمح الى السفر بصورة خاصة ، الى «إعطاء وجوده السعة ، والكمال ، القوة ، والمعرفة ، والى ربطه في الوقت ذاته بجوهر الأشياء وأعماقها». وهكذا نجده عام ١٩٠٤ في باريس ، حيث أقام مدة طويلة من الزمن في فترات مختلفة ، وارتبط مع عدد كبير من الكتاب الفرنسيين ، وجول رومانس بصورة خاصة ، بأواصر الود ، والصداقة ، والمحبة .. ومن ثم غدا الى بلجيكا حيث زار الشاعر فرهايرن في داره المتواضعة الريفية - وقد ترجم حياته فيما بعد ، ونقل مؤلفاته جميعاً الى الالمانية - وتنقل بعد ذلك في ايطاليا ، واسبانيا ، وافريقيا ، وانكلترا ، والولايات المتحدة ، وكندا ، والمكسيك ، وكوبا ، بل الهند أيضاً حيث قضى عاماً كاملاً . ان هواه الجامح للمعرفة ، هذا الفضول الذي لا يهدأ ولا يرتوي ، هذا الشيطان المتأرث الذي يريد ان يرى ، وأن يعرف ، وأن يعيش سائر الحيوات على الاطلاق ، وان يحتك بمختلف المدنيات دون تفريق ، كان يدفعه دوماً الى عدم الاستقرار في مكان واحد ، فهو يلتهم الكتب والبلاد جميعاً ، يجمع التواقيع أثناء ذلك - كانت لديه مجموعة منها رائعة للغاية حقاً - متعطشاً الى اكتشاف سر الرجال العظماء ، نهماً الى سبر اغوار عواطفهم العظيمة ، تواقاً الى إنارة غوامض إبداعاتهم الكبيرة ، وفضح ما أخفوه عن الناس في حرص شديد ، ولم يعترفوا به البتة . وان رومان رولان - الذي كان صديقاً حميماً له - ليشبهه بذلك الصياد الحاذق ، الذي يدور حول حفاف الغابة العذراء ، يرهف اذنيه في انتباه زائد ، متلصصاً خافق القلب ، كي يسمع ضربات الاجنحة الخفية ، او حفيف الاغصان المتحركة في لطف ، منتظراً عودة الطريدة الى عشها - والطريدة هي كل نفس كبيرة - كي يصطادها ، حية ، ولا يقتلها بعد ذلك ابداً . ان حياته لتمتزج امتزاجاً وثيقاً بحياة هذه الغابة الكثيفة ، وكينونته تختلط كل الاختلاط بكينونة العالم العظيم .

وفي اثناء ذلك كان يكتب دون انقطاع ، ومن دون ادنى جهد ان صح التعبير . انه يقول : « اني لا اتذكر ، بالرغم من سائر الجهود الطيبة التي أبذلها ، اني اشتغلت أثناء تلك المدة . ولكن الوقائع تناقض ذلك ، مادمت قد ألفت كتباً عديدة ، ووضعت مسرحيات مثلت جميعاً في سائر مسارح المانيا تقريباً ، وفي الخارج أيضاً حتى درجة بعيدة ». وفي الوقت نفسه كان يترجم بودلير ، وفرلين ، ورامبو ، وفرهايرن ، وسوباريس ، ورومان رولان ، الذين احبهم جميعاً ، وأغنى لغته الأم بآثارهم الرائعة .

وكانت الحرب العالمية الاولى التي تركت في قلبه جرحاً عميقاً للغاية ، فقد كان دوماً رجلاً محباً للسلام ، اوروبياً بكل معنى الكلمة ، يؤمن ايماناً وطيداً بجماعية اوروبا الفكرية ، وبالصداقة العقلية التي لا تعرف حدوداً او فوارق على الاطلاق . وهكذا لجأ في عام ١٩١٩ الى مدينة سالزبورغ الصغيرة في النمسا حيث قضى عشرين عاماً تقطعها الاسفار ، يرسل من هناك الى انحاء العالم أجمع رسائله ومؤلفاته : « اربع وعشرون ساعة من حياة امرأة » (كان جوركي يقول عن هذه القصة إنه لايتذكر أنه قد قرأ شيئاً أشد عمقاً منها ...) و «آموك» (١) ، و « اختلاط العواطف »، و«الخوف »...

وفي اقل من عشر سنوات نشر زفايج - هو الذي لم يكن يرى في العمل إلا « شعاعاً بسيطاً من الحياة ، شيئاً ثانوياً ان صح التعبير » ، عشراً من الأقاصيص ، وعدداً كبيراً من الدراسات عن دستويفسكي ، وتولستوي ونيتشه ، وفرويد ، وستندال ، والشاعرة الفرنسية مارسولين ديبورد فالمور ، وفرهايرن ، وبلزاك ... تبرهن جميعاً عن اتساع المدى الثقافي لهذا الفنان الأصيل ، وتؤكد أن سائر اولئك العمالقة الذين كتب عنهم قد وجدوا فيه مترجماً لحياتهم جديراً بهم كل الجدارة . ومن ثم كانت سلسلة كتاباته التاريخية : « فوشيه » ، « ماري

(١) كلمة تعني المجنون بلغة أهل الملايو .

انطوانيت » « ماجلان » ... التي رفعته منذ الوهلة الاولى الى مصاف المعلمين الكبار .

وفي الحقيقة انه لم يترك مقولة واحدة من المقولات الأدبية إلا وطرقها ، وكان استاذاً فيها . ولقد كتب رومان رولان يقول عنه ، في عام ١٩٣٦ ، حين أخذ الناس في فرنسا يقبلون على مؤلفات زفايج بصورة تفوق التصور : «ليس استيفان زفايج واحداً من اولئك الكتاب الذين لم يرفعوا فوق المستوى العادي الا بأمواج الحرب ، وبالجهد اليائس المبذول لمقاومتها ، بل هو بالأحرى ذلك الفنان الذي ولد فناناً ، والذي تستقل عنده الطاقة الخلاقة عن الحرب ، وعن السلم ، وعن سائر الشروط الخارجية الأخرى ، الذي يوجد كي يبدع ، الذي هو شاعر حسب المفهوم الجوتي ، الذي الحياة مادة الفن بالنسبة اليه ، والفن تلك النظرة التي يرسلها في صميم الحياة . انه ليس بتابع لأي شيء كان ، وليس شيء بغريب عنه ، لا شكل من اشكال الفن ، ولا شكل من أشكال الحياة ».

ويضيف رومان رولان أيضا : يقولون ان الود هو مفتاح المعرفة ، وهذا صحيح بالنسبة الى زفايج ، ولكن العكس صحيح أيضاً : ان المعرفة هي مفتاح الود . انه يحب بالعقل ، ويفهم بالقلب ، فاذا العقل والقلب اللذان يختلطان معاً يضفيان على الفضول الانساني اللاهب مميزات « الهوى الجسدي » كما نعرفه عند بطل « آموك » مثلا » .

واستولى هتلر على الحكم في ألمانيا ، وراحت أعمال العنف ضد المتمردين تتكرر وتتضاعف دون انقطاع . وما لبثت النازية ان اجتاحت النمسا بدورها ، فاضطر زفايج الى مغادرة بلاده الى انكلترا . ولكن نفسه ، التي طغى القلق عليها وراح يعذبها ، لم تترك له فرصة للراحة منذ ذلك الحين ، فهو يتنقل بين اميركا الشمالية ، والبرازيل ، وانكلترا ، والنمسا (حيث عذب النازيون امه حتى الموت) ، وفرنسا ، ساعياً وراء الاستقرار ، والهدوء ، والطمأنينة ، دون أن يجد سبيلاً اليها جميعاً قط . وما أسرع ما اشتعلت شرارة الحرب ، فاذا

فرنسا تمنى بهزيمة نكراء ، واذا ما كان يخشاه دوماً يتحقق ، واذا الظلمات تجتاح اوروبا بأسرها . ولنسمع اليه بأية مرارة أليمة يصف تلك الفترة من الزمان التي عاشها نهباً لعذاب موجع حتى الدرجة القصوى :

« إن الزلازل قد قلبت بيتي ووجودي ثلاث مرات متواليات ، وانتزعتني بكل عنفها المفجع من ماضيّ ، وألقت بي في هاوية الفراغ ، في هذا البعد اللامتناهي التي سبقت معرفتي له ، حيث الاضطراب يدفع المرء الى الهتاف في أسى : « اني لا أعرف اين اذهب ».

« وان يكن في العالم انسان قد انتزع من سائر الجذور ، بـل من ذات الأرض التي غذت تلك الجذور ، فذلك الشخص هو انا بالضبط . لقد ولدت في عام ١٨٨١ في امبراطورية عظيمة جبارة ، امبراطورية آل هابسبورغ . ولكن يجب ألا نفتش عنها في الخارطة اليوم ، لأنها قد امحت منذ زمن بعيد دون ان تترك وراءها ادنى أثر على الاطلاق . وترعرعت في فيينا ، العاصمة التي يرجع تاريخها الى ألفين من السنوات ، والتي كانت تسود على امم عديدة ، والتي اضطررت الى مغادرتها مثل مجرم قبل ان تذل وتهان حتى لاتعود اكثر من مدينة في مقاطعة ألمانية ليس غير . اما آثاري الأدبية فقد احيلت كومة من الرماد في لغتها الأصلية ، وفي ذات البلاد التي اكتسبت كتبي فيها ملايين من القراء والاصدقاء . وهكذا لم تعد لي صلة في بقعة من هذا العالم ، بل اصبحت غريباً في كل مكان ، ضيفاً على الاكثر في البلد الذي يضمر لي العداوة الأقل . لابل ان الوطن الحقيقي الذي اختاره قلبي ، اوروبا ، قد ضاع بالنسبة الي منذ ان راح يمزق نفسه للمرة الثانية ، وقد تملكته حمى الانتحار ، في قتال يتذابح الاخوة فيه . ولقد كنت شاهداً ، بالرغم من إرادتي ، على أرهب هزيمة مني العقل بها ، وعلى أوحش انتصار ظفرت القسوة به ، انتصار لم يعرف الزمان اكثر وحشية منه على الاطلاق . ليس جيل قد سقط قط ـ وأنا لا أذكر ذلك في غرور ، بل في شعور من العار بالاحرى ـ مثلما

تردي جيانا من العظمة الفكرية في مثل هذا الانحلال الأخلاقي . لقد حدث خلال هذه السنوات القليلة التي انقضت بين نمو لحيتي واجتياح المشيب لها ، خلال نصف القرن الأخير ، حدث من التبدلات الجذرية أكثر مما يحدث في ازمـــان اخرى طوال عشرة من الأجيال البشرية ، الأمر الذي يحسه كل منا بوضوح : ان اموراً كثيرة ، قد وقعت ! ان يومي ليختلف كثيراً عن كل من ايامي الماضيـــة ، في صعودي وسقطاتي المتعاقبة ، حتى لأخال أحياناً اني لم اعش وجوداً واحداً ، بل عدة حيوات مختلفة جداً عن بعضها البعض . ذلك أنه يحدث لي احياناً ، حين اقول دون انتباه : « حياتي » ، ان اروح اتساءل بالرغم مني : « اية من حيواتي ؟ » . أهي حياتي قبل الحرب العالمية ؟ أهي حياتي قبل الحرب الاولى ام الثانية ؟ ام هي حياتي في الوقت الراهن ؟ ثم افاجىء نفسي وأنا اقول : « بيتي » ، فلا استطيع ان اجزم مباشرة اياً من بيوتي السابقة قد عنيت ، أهو بيت باث ام بيت سالزبورغ ، او انه البيت الأمومي في فيينا . او اني اتذكر مرتعشاً ، عندما اقول احياناً : « عندنا » ، اني لم اعد من صلب أناس وطني اكثر مني من صلب الانكليز او الاميركيين ، واني لم اعـــد متصلاً عضوياً بأولئك ، واني لن استطيع قط أن أجد ههنا مركزي ومـــكاني الوطيدين . ان العالم الذي ترعرعت في وسطه ، وعالم اليوم ، والعوالم التي تندس بين هذين الطرفين ، لتفترق عن بعضها البعض أكثر فأكثر في شعوري ، كي تصير عوالم متميزة عن بعضها كل التميز .

« اي شيء لم نره ، ونعشه ، ونتحمل وطأته ، نحن الذين قد بلغنـــا اليوم الستين من عمرنا ، والذين ما برح لنا الحق في بعض سنوات اخرى من الحياة ؟ لقد حرثنا حقل سائر الكوارث التي يمكن للخيال ان يتصورها من اقصاه الى اقصاه ، ولم نقلب الصفحة الاخيرة حتى الآن . وانا وحدي قد كنت شاهـداً على اكبر حربين حطمتا الانسانية ، وعشتهما في جبهتين مختلفتين ، الاولى في الجبهة الألمانية ، والثانية في الجبهة المقابلة . ولقد عرفت ماقبل الحرب ارفع شكل للحرية الفرديـــة

اسمى درجة لها ، ومن ذلك الحين عرفت أسوأ انحطاط شاهدته البشرية منذ قرون عديدة . لقد جُددت ، واصبحت طريد القانون ؛ لقد كنت حراً ومستعبداً ، غنياً وفقيراً . ان سائر جياد سفر الرؤيا الشاحبة قد انطلقت عدواً عبر وجودي ، الثورة والمجاعة ، تدهور العملة والارهاب ، جائحات الأمراض والهجرة . لقد شاهدت أساليب التفكير الكبرى تنمو تحت اعيننا ، وتنتشر بين الجماهير : الفاشية في ايطاليا ، والقومية الاشتراكية في ألمانيا ، والبلشفية في روسيا ، وقبل كل شيء القومية ، طاعون الطواعين هذا ، التي سممت زهرة ثقافتنا الاوروبية . لقد كنت مجبراً على ان اكون الشاهد العاجز ، المجرد عن كل دفاع ، على هذه العودة التي لا يتصورها العقل ، والتي رجعت بالانسانية الى حال من البربرية كنا نظن انها قد اصبحت في حكم النسيان منذ زمن طويل جداً ، وذلك بعقائد وبرامج مضادة للانسانية ، وموضوعة في وعي تام من اصحابها . لقد كان مقدراً لنا ان نرى من جديد بعد قرون من الحروب المشتعلة دون اعلان للحرب ، معسكرات للاعتقال ، واساليب جهنمية للتعذيب واغتصاب الجماهير ، وتدميراً وحشياً للمدن المجردة عن كل وسيلة للدفاع ، وكل هذه الأفعال من الحيوانية التي لم تعرفها الأجيال الخمسون الأخيرة ، والتي لن تتحمل وطأتها ـ فلنترج ذلك ـ الأجيال المقبلة أيضاً . والأمر المتناقض حقاً اني رأيت هــــذه الانسانية نفسها ، في الوقت الذي كان عالمنا فيه يعود القهقرى أخلاقياً قرناً كاملاً، ترتفع فيه بالذكاء والتكنيك الى اعاجيب لم يسبق لهـــا مثيل ، متجاوزة بضربة جناح واحدة كل ما انتجته ملايين السنوات : غزو الاثير بالطائرة ، نقل الكلمة الأرضية الآني على كل مساحة كرتنا الأرضية ، والانتصار بذلك على المكان الذي يحيط بنا ، وانقسام الجوهر ، والانتصار على اكثر الأمراض شراً وخفية ، والتحقيق الذي يكاد يكون يومياً لكل ما كان يبدو مستحيلاً البارحة فقط . ان الانسانية لم تبد ابداً حتى عصرنا هذا اكثر شيطانية منها اليوم ، كما انها لم تحقق قط هذا المقدار من المعجزات الذي يرفعها الى مرتبة الالوهية » .

هكذا إذن قد ذهب هباء منثوراً كل ماعاش هذا الانسان من اجله . وانه ليترجى في المستقبل ، ولكنه رجاء يائس على اية حال . إن جيوش النازيين قد دخلت شوارع ستالينغراد ، وهي تدق ابواب القاهرة ، تثقل على الدنيا بأسرها بجزمتها الرهيبة . ان المقاومة عبث ... وقلق زفايج الفكري أقسى من ان يصمد في وجهه . وهذا هو يكتب ، في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٤٢ ، رسالة الوداع :

« قبل ان اغادر الحياة بملء ارادتي ، متمتعاً بسائر قواي العقلية ، أحس الحاجة إلى انجاز واجب أخير : أن أوجه شكري الجزيل إلى البرازيل ، هذا البلد الرائع الذي وفر لي ، كما وفر لعملي ، راحة صديقة للغاية ، ومضيافة حتى الدرجة القصوى . لقد تعلمت يوماً بعد يوم أن احب هذا البلد أكثر فأكثر ، حتى اني لم اكن لأفضل ان أبني لي في اي مكان آخر وجوداً جديداً ، بعد أن زال عالم لغتي بالنسبة إلي حالياً ، وبعد ان دمر وطني الفكري ، أوروبا ، نفسه بنفسه .

« ولكن المرء يحتاج ، بعد ان يتجاوز الستين ، الى قوى استثنائية كي يبدأ حياته مجدداً من أولها . ولكن قواي قد نضبت بعد سنين طويلة من التشرد ، بحيث أجد من الأفضل لي أن اضع حداً ، مرفوع الرأس ، لوجود كان العمل الفكري فيه هو الفرحة الأصفى دوماً ، وكانت الحرية الفردية فيه هي الثروة المثلى لهذا العالم في كل حين .

« إني احيي سائر أصدقائي . ألا فليروا الفجر مرة اخرى بعد الليل الطويل . أما أنا فقد فرغ صبري ، ولذا فاني أسبقهم » .

ستيفان زفايج

بتروبوليس ، ٢٢-٢-٤٢

وفى الغداة ، لم يعد زفايج من هذا الوجود ...

فؤاد أيوب



« ليس الكمال الاخلاقي الذي يبلغه المرء ما
يهمنا ، بل الطريقة التي يبلغه بها ... »

تولستوي

مذكرات الشيخوخة

« كان إنسان يعيش في ارض عوص ، يخاف الله ويتجنب الشر . وكانت مواشيه سبعة آلاف من الخراف ، وثلاثة آلاف من الجمال ، وخمسمائة أتان ، اما خدمه فكثرة عظيمة . ولقد كان هذا الرجل اعظم بني المشرق على الأطلاق » .

هكذا تبدأ قصة أيوب الذي كثرت خيراته وتعاظمت حتى الساعة التي رفع الله فيها ذراعه ضده واصابه بالطاعون كيما يفيق من البحبوحة الفظة السمجة التي ينعم بها ويرفل ، ويتألم في صميم روحه بعذاب موجع ، ويتقدم امام وجهه في ديثونة رهيبة قاسية . وهكذا تبدأ القصة الروحية التي عاشها ليون نيقولايفيتش تولستوي ، هذا الانسان الذي كان هو الآخر اعظم بني وطنه وعصره ، والذي كان هو الآخر « يجلس عالياً » بين اقوياء الأرض والمتسلطين فيها ، يعيش في ثراء فاحش ورفاهية منقطعة النظير في داره العتيقة الموروثة عن الآباء والاجداد .

كان جسده يطفح صحة وقوة وعزماً ، كما استطاع ان يقترن بالفتاة التي يحبها ويهواها قلبه ، فأنجبت له ثلاثة عشر ولداً . وإن اعمال يديه وروحه الخالدة على مر الزمان تضيء ببريق شديد ساطع فوق العصر الذي عاش فيه ، وفلاحي ياسنايا بوليانا (١) ينحنون في اجلال عظيم عندما يمر الاقطاعي الجبار من امامهم يعدو جواده به خبباً ، والكون بأسره يطأطيء هامته في احترام كبير امام مجده المدوي . وإن ليون تولستوي ، مثله مثل أيوب قبل التجربة ، لايشتهي في الدنيا شيئاً على الاطلاق ، لانه لم يبق في الدنيا ما يشتهيه ، بل هذا هو يكتب ذات يوم في احدى رسائله اكثر الكلمات الانسانية جسارة وتهوراً : « اني سعيد حتى ابعد حدود السعادة » .

---

(١) ملكية تولستوي .

وفجأة ، في احدى الليالي الحالكات ، يفقد كل هذا معناه ، ويضيع قيمتـه وجدواه ايضاً . ان العمل ينفر بعـد اليوم هذا العامل الذي لايتعب ، وامرأته تصبح غريبة عنه ، وامور ابنائه لاتعنيه في كثير او قليل .. انه يغادر فراشه اذا ما جن الليل ، مضطرب النفس مبلبل الفكر ، ويروح يذرع ارض غرفتـه في جيئة وذهوب ، مثل مريض يضنيه الداء ويعذبه ، لايعرف للراحـة طعماً ، ولا الى السكون سبيلًا . واذا ما اشرق النهـار جلس امام طاولة العمل متلبد الخاطر ، جامد النظرات ، مشلول اليدين ، لايدري ما يفعل او ما يكتب . وهذا هو ذات مساء ينهب السلم اربعاً اربعاً كي يقفل باب دولابه على بندقية صيده ، خوفاً من ان يوجه ، في اية لحظـة ، السلاح الرهيب ضد نفسه .. وانه ليزمجر في بعض الاحايين فكأن الصدر منه ينفجر ، وفي احايين اخرى يبكي كالطفل الصغير في غرفته المظلمة . ولم يعد يقرأ الرسائل التي ترد اليه ، ولم يعد يستقبل أياً من الاصدقاء الذين يأتون لزيارته ، بينا ابناؤه يتطلعون في رهبة ، وزوجته في يأس ، الى هـذا الرجل الذي اظلم كل شيء فيه على حين غرة ، وبدون سابق انذار .

ما هو السبب في هـذا التبدل المفاجىء ؟ هل الداء يقضم حياته خفية ؟ هل اجتاح الطاعون جسده ؟ هل نزل السوء بساحته من الخارج ؟ ما الذي اصابه ، هو ليون نيقولايفيتش تولستوي ، الاقوى بـين الجميع ، حتى يحرم بغتة من الفرح والسرور ، وحتى ييأس على هـذه الصورة المفجعة الاليمة وهو اعظم ابناء الارض الروسية طراً ؟ وهذا هو الجواب الرهيب ... لاشيء ! ان شيئاً لم يحدث له ابداً ، او بالأحرى — وهذا اكثر هولاً ايضاً — إن ما صادفه هو العـدم . إن تولستوي قد رأى العدم وراء الاشياء . ان في نفسه لصدعاً ، وفي باطنه فتح لشقاً ، شقاً ضيقاً مظلماً ، فاذا عينه الغريقة تنظر ، بالرغم منه ، في ذلك الفراغ بثبات وجمود ، تنظر في هذا العدم الذي لا اسم له ، هذا اللاشيء ، هذه اللاكينونة المخوفة ... هـذا الحضور الآخر ، الغريب ، البارد ، القاتم ، العصي على الادراك ، والقائم فـيما وراء حياتنا الخاصة ، الدافئة والمشبعة بالدم ... انه يرى الى العدم الخالد خلف الكينونة الفانية .

ان المرء الذي امعن النظر مرة في هذه الهاوية الفائقة الوصف ، لن يستطيع بعد ذلك ان يحيد ببصره عنها ابداً ... ان الظلمة تجتاح حواسه وتخنقها ، وضياء الحياة ولونها ينطفئان بالنسبة اليه ويتلاشيان ، والضحك يتجمد في فيه ويخرس ، فيصبح عاجزاً عن بلوغ اي شيء كان دون ان يحس الصقيع يسري في اوصاله ، من اصابعه المرتجفة حتى قلبه المرتعش ، عاجزاً عن التأمل في اي شيء كان دون ان يفكر ، في الوقت نفسه ، في الآخر ، في العدم ، في اللاشيء ... إن الاشياء تسقط ذاوية معدومة القيمة خارج منطقة الاحساس الذي كان دافئاً بعد ، حتى قبل لحظة واحدة فقط ؛ والمجد يصبح عـــدواً خلف دخان هباء ؛ والفن ينقلب لعب مجانين لا يفقهون ؛ والمال يصير زبداً تافهاً اصفر اللون ؛ بله ان الجسد ذاته ، وقد كان حار الانفاس طافحاً بالصحة ، لم يعد الآن الا مرتعاً للديدان تنهش اوصاله وتلتهمها.. إن هذه الشفة ذات المرشف الاسود الخفي تنتزع ، من سائر خيرات هذا العالم ، مذاقها وحلاوتها . إن الكون يقشعر من البرد عندما يفغر ذلك العدم المضني ، الجشع ، الاسود ، فاه امام عيني الكائن الفاني بكل عذاب المخلوق البدئي . انه «مايلستورم» (١) إدجار آلان بو الذي يأتي في طريقه على كل شيء ولا يخلف وراءه شيئاً ، «هاوية» باسكال التي يفوق عمقها كل ارتفاع يمكن للفكر ان يبلغ اليه .

عبث السعي وراء الاختباء والتخفي .. وكذلك لن يفيدك شيئاً ان تضفي على هذا الظل الذي يلتهمك صفتي الالهي والمقدس ، ولن تفيدك شيئاً ايضاً محاولاتك ستر هـــذا الثقب الاسود بوريقات الانجيل ... ان تلك الظلمات لترشح من سائر الاوراق وتتسرب ، وتنفخ على سائر شموع الكنيسة وتطفئها ، فمثل هـــذا البرد القادم من قطبي الكون لا يمكن ان يدفأ بانفاس الكلمة الانسانية الحـــارة .. لن يفيدك شيئاً ، كي تبرقع هذا السكون المرهق حتى الموت ، ان تأخذ بالتبشير بصوت رنان ، مثل اولئك الاطفال الذين يرفعون عقيرتهم بالغناء ، في قلب الغابة الشاسعة الابعاد ، كي يضللوا قلقهم ويحتالوا على ذعرهم .. ان العدم الساكن ، الاسود ،

---

(١) اعصار مائي على شواطىء النروج ، وبالتالي قوة دمار منقطعة النظير .

الآسن ، لن يبرح يحلق غير مقهور فوق الوجدان ، فوق سائر جهوده على الاطلاق، ولن تستطيع اية حكمة ان تطمئن القلب الموجع المتألم الذي عرف مرة معنى القوة الرهيبة المرعبة التي تملكها تلك اللاكينونة وتمتاز بها . لقد شاهد تولستوي للمرة الاولى ، وهو في الرابعة والخمسين من سني حياته الدنيوية ، ذلك العدم الشاسع ، فأدرك انه المصير المقدر له ولسائر البشر اجمعين . وهو لن يفعل ، منذ ذلك الحين حتى الموت ، الا الشخوص بثبات الى هذا الثقب الاسود ، هذا الدخيل الممتنع على الادراك ، الرابض وراء كينونته الخاصة . ولكن نظرة ليون تولستوي ، حتى اذا استدارت نحو العدم ، تظل تملك وضوحاً نفاذاً حاداً .. انها نظرة لم يعرف زماننا اكثر منها بصيرة وتشرباً الروح . إن انساناً لم يأخذ قط على عاتقه ، بمثل هـــذا الاندفاع الشديد ، قضية النضال ضد ما لا يمكن وصفه ، ضد عذاب المخلوق البدني. إن انساناً لم يقابل ابداً بمثل هـــذا العزم القضية التي يطرحها القدر على الانسان بقضية الانسانية التي تسأل قدرها . إن انساناً لم يتعذب يوماً بمثل هذه القسوة بسبب تلك النظرة الفارغة التي تلتهم النفس شيئاً فشيئاً ، تلك النظرة القادمة من العالم الآخر. ابداً لم يتحمل انسان تلك النظرة بمثل هذه العظمة ، لان وجداناً طافحاً بالعنفوان يجابه ههنا التساؤل القاتم الذي تلقيه تلك الحدقة المظلمة ، يجابهـــه بنظرة براقة ، مقدامـــة ، نظرة الفنان التي تراقب الاشياء بعزم وثبات . ابداً ، حتى ولا لحظـــة واحـــدة ، لم يطرف ليون تولستوي بعينيه او يغمضها جبناً امام ما في القضاء من مفجع وأليم ... هاتان العينان هما اكثر ما عرفه فننا الحديث يقظة ، واخلاصاً ، وعصياناً على الفساد ... وبالتالي ليس اعظم من هذه المحاولة البطولية لاعطاء معنى خلاقاً حتى لمـــا يخرج عن حيز الادراك ، وإسباغ الحقيقة على ما يستحيل تنحيته والخلاص منه .

لقد عاش تولستوي ، طوال ثلاثين عاماً ، من العشرين حتى الخمسين ، في

خلق مؤلفاته ، حراً لا مبالياً .. وطوال ثلاثين عاماً اخرى ، من الخمسين حتى الوفاة ، لم يحيا إلا كي يعرف معنى الحياة ويفهمه ، مناضلا ضد ما لا يمكن إدراكه ، مقيداً الى ما يعسر البلوغ اليه .. ولقد ظلت مهمته يسيرة سهلة حتى اليوم الذي اخذ فيه على كاهله هذه الرسالة الهائلة : ان يخلص ، بنضاله في سبيل الحقيقة ، ليس شخصه فحسب ، بل الانسانية بأسرها ايضاً . وإن إقدامه على هـــذه الرسالة يجعل منه بطلا ، بله قديساً تقريباً ، اما سقوطه في غمرة النضال في سبيل تحقيقها فيجعل منه اكثر الناس انسانية على الاطلاق ..



صورة تولستوي

« كان لي محيا فلاح عادي »

وجه اشبه ما يكون بالغابة الكثيفة ، الآجام فيه اكثر عداً من الفسح العاريات ، تسد كل منفذ الى الرؤية الباطنة ، ولحية عريضة مسترسلة اشبه ما تكون بلحية بطريرك مهيب عظيم الوقار ، تتزاحم حتى أعلي الوجنتين وتتدافع ، وتغطي بأمواجها ـ طوال عشرات من السنين ـ الشفة الغليظة الشهوانية ، وتقنع القشرة المخططة التي تكسو الجلد ذا الغضون السمراء . والى الامام من الجبهة يتربع حاجبان جباران ، غليظان كالاصبع ، متشابكان كجذور الاشجار المتعانقة ، بينا تزبد فوق الرأس كتلة مضطربة من خصل شعر كثيف متلاحم اشبه ما تكون بموجة بحرية عاتية رمادية اللون ... انها كثرة الاشعار الشائكة ، الاستوائية ، المنتصبة في كل مكان ، تنشر على غرار الاله بان فيض العالم البدائي . وان الناظرتين لاتشاهدان للوهلة الاولى في محيا تولستوي ـ تماماً مثل موسى ميكيل أنجلو ، هذه الصورة التي تمثل اكثر البشر عنفواناً ورجولة ـ الا الموجة المتدفقة المبيضة الزبد لتلك اللحية العملاقة التي اشبه ما تكون بلحية الآب الابدي .

وعندئذ ، كي نرفع اللثام عن نفس هذا الانسان ، كي نكشف عري وجه هذا كساؤه ، كي نسبر أغوار جوهره المقنع ، لابد لنا من تفكيك سياء آجام تلك اللحية (وصور الشباب المرداء تساعد كثيراً على هذا الاظهار المرن) . اننا لنفعل ذلك اذن ، فاذا نحن نخاف ونذهل ونعجب ، لان محيا هذا النبيل ، هذا الابن البار للفكر المتوقد ـ ولا بد لنا من الاعتراف بهذا الواقع الذي لاسبيل الى نقضه ـ لذو بنية فظة غليظة ، لا يفترق في شيء عن سياء اي فلاح نصادفه على قارعة الطريق .. هنا قد اختارت العبقرية منزلاً لها وصنعاً كوخاً حقيراً ، ملطخاً بالهباب ، والدخان ، كيبيتكا (١) روسية حقيقية .. من وضع تصميم مسكن هذه الروح

(١) اسم بيوت الفلاحين الروسيين ، وهي متشابهة في كل انحاء البلاد تقريباً .

العظيمة ؟ انه ليس إلهاً اغريقياً خالقاً ، بل إن هو إلا نجار قروي كثير الاهمال ، عديم المبالاة والاكتراث ... ان كل شيء فيه منحوت في ثقل وخشونة ، فجسور الجبهة الواطئة – فوق النافذتين اللتين تملان العينين – ثخينة العمد كبيرة الحبيبات ، اشبه بالخشب المتشابك المتداخل في بعضه البعض ؛ والجلد ليس الا تراباً وطيناً ، قاتماً معدوم البريق ؛ وفي وسط هـــذا المربع الخالي من الجمال ينهض أنف مفتوح المنخرين كثيراً ، واسع حتى ليكاد ان يشبه كتلة من اللحم مسلوقة ، مسطح وكأنما تلقى لكمة جبارة شديدة قاسية ؛ والى الخلف من الشعر الاشعث اذنان مشوهتان متهدلتان ؛ وبين جوفي الوجنتين الغائرتين فوه أنبس غليـــظ الشفتين ... سيماء يعوزها جميعاً ضياء الروح ، إن هي في الحقيقة الا ملامح عادية ، مشتركة ، تكاد ان تكون عامية ايضاً .

في هذا الوجه المفجع الذي يخص بالاحرى عامـلاً يدوياً ، لن تجـد الا الظل والعتمة ، الا الابتذال والفظاظـة ... عبثاً تبحث عن الانطلاق او الحنين ، عن شعاع من النور أو عن تحليق روحي جريء ، هذه الامور جميعاً التي تجدها في القبة الرخامية التي يرسمها جبين دستويفسكي . ههنـــا لاينفذ النور في اي مكان ، ولا يتألق اي بريق على الاطلاق – وكل إنكار لذلـــك إن هو إلا ادعاء وتزييف وكـذب فاضح ... كلا ، ليس ههنا ، بكل تأكيد ، إلا وجـــه واطىء مغلق ، لايمكن أن يكون للفكر هيكلاً ، بل هو بالأحرى محبس مظلم كئيب ، خال من الفرح ، مجرد عن الجمال ... وإن تولستوي الشاب ليدرك ، في وقت مبكر جداً ، ان صفحـــة سيمائه ناقصة ، فلا يطيق اية اشارة الى محياه ، بله يرتاب في إمكان « وجود سعادة ارضية لامرىء له مثل هـــذا الانف المسطح ، مثل هاتين الشفتين الغليظتين ، ومثل هاتين العينين الصغيرتين الرماديتين » . ولذا فان الفتى يسرع ، مبكراً ، فيخفي هذه الملامح المقيتة خلف ذلك القناع السميك من اللحية المسودة التي لن تفضضها السنوات وتضفي عليها الجلال الا في وقت متأخر ، ومتأخر جداً في الحقيقة . إن السنوات العشر الاخيرة من حياته وحدها تبدد هذه السحب القاتمة وتبعثرها ، فلا

يقع شعاع رقيق من الجمال على هذا المشهد المفجع الا في ضياء مساء الخريف المتقدم.

ان العبقرية ، المتجولة ابداً ، قد اقامت عند تولستوي ، كما في فندق متواضع ، بين جدران مسكن منخفض قبيح ، في محيا اي انسان كان ، محيا روسي عادي يمكن ان نفترض وجود كل شيء وراءه ، ما عدا وجود المفكر ، والشاعر ، والمبدع. ان تولستوي ، طفلاً كان أم مراهقاً ، رجلاً أم شيخاً طاعناً في السن ايضاً ، يترك في النفس دوماً تأثير امرىء عادي من عداد ملايين الناس العاديين . ان كل لباس ، وكل قبعة ، يلائمانه تماماً ... والمرء يستطيع بهذا الوجه المغفل ، وجه انسان روسي عديم الفردية ، ان يرأس اجتماعاً وزارياً ، مثلما يستطيع ان يسكر ويعربد ماشاء له هواه في حانة مشبوهة يرتادها المتشردون ؛ يستطيع ان يبيع الخبز الابيض في السوق ، مثلما يستطيع – رافلا في الحرير والدمقس كالمطران في القداس الاحتفالي – ان يرفع الصليب يبارك به الجماهير الجاثية في خشوع .. ابداً لن يكون هذا الوجه في غير مكانه ، في اي بقعة كانت من الارض الروسية الواسعة الارجاء ، وفي اية مهنة واي كساء .. لقد كان تولستوي ، طالباً ، يشبه جميع رفاقه مثلما تتشابه قطرتان من الماء ، وعندما أصبح ضابطاً كان يشبه سائر الذين حملوا السيف اوتخصروه ، ثم رجع الى الريف يشرف على املاكه فاذا هو لا يختلف في شيء عن اي اقطاعي عادي ... واذاما كان في العربة ، والى جانبه خادمه الاشيب اللحية ، فلا بد لك من الامعان طويلا في صوره قبل ان تستطيع تمييز الكونت من السائق بين ذينك الجالسين في مقعد العربة ... واذا وقعت على رسم يمثله وهو يتجاذب اطراف الحديث مع الفلاحين ، فلن تستطيع ابداً – ان كنت به جاهلا من قبل – ان تخمن ان « ليون » هذا – الذي يتوسط تلك الحلقة من الرعاع – هو كونت رفيع المرتبة عريق المحتد ، وانه يفوق بملايين المرات سائر هؤلاء الفلاحين ، من جريجوري الى ايفان ، ومن إلياس الى بيوتر ، الذين يحيطون بــه من كل جانب ويحفون ... وانت تقول عندئذ ، لشدة ما يبدو محياه مغفلا ، خالياً من أية سمة تميزه عن سواه ، إن هذا الرجل هو في الوقت نفسه سائر الباقين ، فكأن العبقرية عنده لم ترتد قناع فرد خاص ، بل تنكرت في الشعب بمجموعه ... ان تولستوي لا يملك وجهاً خاصاً ،

بالضبط لانه يحتوي الروسيا بأسرها ، بل يملـــك بكل بساطة وجه الانسانية الروسية بكاملها ...

وهكذا فان الناظر اليه للمرة الاولى يصاب ، للوهلة الاولى ، بخيبة شديدة قاسية ... لقد جاؤوا من بعيد جداً ، بالقطار اولاً حتى تولا ، ومن هناك بالعربة حتى ياسنايا بوليانا ، وهم ينتظرون الآن في قاعة الاستقبال قدوم المعلم ، ينتظرون في اجلال عظيم واحـترام لاحدود له ، وكل منهم يتخيل في نفسه انه سيقابل بعد برهة وجيزة كائناً مهيباً عظيم الجلال ، فيروح الفكر يتصوره سلفاً رجلا بهي الطلعة، ذا لحية مسترسلة كلحية الآب الأبدي ، عالي القامة ، فخور الملامح ، عملاقاً وجنياً في شخص واحد . وهذه قشعريرة الانتظار ، منذ الان ، تثقل على كتفي كل من الحاضرين ؛ وهذه العين ، منذ الان ، تطرق بالرغم منها امام جبروت البطريرك الذي ستشاهده بعد لحظة قصيرة .. واخيراً ، هذا الباب يفتح ... ماذا نرى ؟ ان رجلا صغيراً قصير القامة يدلف الى القاعة في عجلة حتى تترنح لحيته ، يدفدف بخطى قصيرة سريعة حتى ليكاد ان يخب خبباً .. ثم هذا هو يتوقف ، وعلى شفتيه تسبح ابتسامة لطيفة محببة ، امام الزائر المدهوش ، ويروح يتحـدث اليه في لطف وبصوت سريع النبرات ، وهو يصافح كلًا من الموجودين فيقدم اليهم يده بحركة سريعة ميسورة ، فيتناولون هم تلك اليد الممدودة اليهم وفي صميم افئدتهم خوف دفين ... كيف ؟ هذا الانسان الصغير الذي يتحرك في مرح عـذب لطيف ، « هذا الاب الصغير ، الرشيق الحركة ، الابيض اللحية كالثلج الناصع » ، أهو حقاً ليون نيقولا يفيتش تولستوي ؟ ان القشعريرة التي احسها المرء سلفاً امام جلال الرجل العظيم تتلاشى الآن وتزول ، بينما يرتفع النظر نحو وجهه وقد دبت الشجاعة فيه ، وسرت الجرأة في اوصاله .

ولكن الدم يكف بغتة عن الجريان في عروق اولئك الذين يتطلعون اليه هكذا . ان نظرة رمادية قـــد قفزت عليهم ، كالافعى ، من وراء دغل الحاجبين الاشعثين ، هذه النظرة الفريدة التي تنطلق من عيني تولستوي ، والتي لا يستطيع اي رسم ان يعطي عنها ادنى فكرة على الاطلاق ، والتي يتكلم عنها بالرغم من ذلـك

سائر الذين ألقوا يوماً ما بانظارهم على محيا الرجل الشهير ! هـذه النظرة تسمرك في مكانك ، فكأنها طعنة نجلاء من سكين قاسية النصل ، براقة مثل الفولاذ الصقيل . وهذه الحركة تصبح عليك مستحيلة ، وكذلك الافلات من تلك النظرة ، بل لابد لكل انسان ، وقد اطبقت عليه أغلال قوة مغناطيسية لاتقاوم ، من الخضوع لهـذه النظرة التي تخترقه حتى اعمق اعماق باطنه . ليس من سبيل الى الهرب امامها ، ولا من ملجإ للاختفاء منها ، بل هي تثقب — مثل القذيفة — سائر دروع التمويه والتخفي وتنفذ منها ، وتقطع مثل الماس كل ما تصادفه من جليد وتحطمه ... ان احـــداً لايستطيع (وهـذا مايؤكده تورجنيف وجوركي ومائة آخرون) ان يكذب امام نظرة تولستوي الحادة النفاذة .

ولكن هذه العين لاتحتفظ بقسوتهـا المتفحصة الا ثانية واحدة فقط ، بل ما اسرع ما تلين قزحيتها وتطلق بريقاً رمادياً ، ثم تروح ترتعش كالفراشـــة بابتسامة متحفظة ، او تضيء بلمعان عذب يطفح رقة وعطفاً .. ان سائر تبدلات العاطفـــة وتحولاتهـــا تلعب باستمرار وتمرح ، مثل ظل السحب على وجه المياه ، في هاتين الحدقتين السحريتين اللتين لاتعرفان الراحة ابداً . ان الغضب قد يفجرهما في شرارة جليدية وحيدة ، والاستياء قد يجمدهما في بلورة باردة نقية ، والحنان قـــد يدفئهما بشعاعه الحار ، والهوى قد يشعلها بلهيبه المتأرث . هـــذان الكوكبان العجيبان قـــد يبتسمان بفعل نور باطني دون ان يتحرك الفم القاسي ابداً ، فاذا ما ارسلت الموسيقى فيهما ليناً ورقـــة يستطيعان ان « يسحاسيلا من العبرات » ، كما تفعل عينا فلاحة شقية بائسة . انهما يقدران ان يستقيا النقاء والصفاء في رضى الفكر واكتفائه ، او يظلما حزناً على حـــين غرة ، اذا ما دبت الكآبة اليهما ، كي يتقلصا من جديد ويظللهما الغموض ، فيعودان ممتنعين على الادراك عصيين على الفهم . انهما يقدران ان يلاحظا الامور ، باردين قاسيين لايعرفان معنى للرحمة او الشفقة ، مثلما يقدران ان يقطعا كالمشرط ، وان يشما كنار رونتجن ، كي يجتاحهما في اللحظـــة التالية

انعكاس متراقص ، انعكاس فضولي يشوبه المرح ولا يبرأ من البشاشة ايضاً .. هاتان العينان ، انهما تتكلمان سائر لغات العاطفة ، وهما ابلغ الاعين التي التمعت ابداً تحت جبين بشري واقواها تعبيراً . وانه جوركي الذي يجد ، مثله دوماً ، اصدق كلمة كي يصفهما عندما يقول : « ان تولستوي ، في هاتين العينين ، يملك مائة عيناً » .

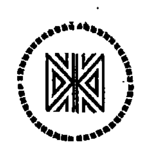
بهاتين العينين ، وبهما وحدهما ، تبدو العبقرية في وجه تولستوي وتتجلى . ان كل القوة الاشعاعية التي يملكها هذا الانسان الذي كان نظرة كله ، لتتمركز في الف صفيحات عينية فقط ، مثلما يتمركز جمال دستويفسكي – الرجل الفكر – في الصورة الرخامية الجانبية لجبينه الرائع . وكل شيء آخر في وجه تولستوي ، اللحية والشوك معاً ، لايزيد عن ان يكون غلافاً فقط ، فراغاً واقياً يخفي في عمق سحيق المادة الثمينة لهذين الحجرين المضيئين ، الساحرين والمغناطيسيين ، اللذين يبتلعان الكون فيهما ، ثم يشعانه خارجاً عنهما ، فلا يعرف زماننا طيفاً للكون اكثر منهما دقة وامانة ... ان العالم ليخلو ، في الحقيقة ، من كل صغير دقيق لا تستطيع هاتان العدستان ان تبيناه للعيان بوضوح وجلاء .. هاتان العينان تستطيعان ، مثل السهم الموتور ، او مثل العقاب الذي ينقض من الاعالي المغرقة في البعد على فأر يولي الادبار ، ان تنقضا على كل صغيرة ، مثلما تستطيعان في الوقت ذاته ان تعانقا – في نظرة واحدة – سائر آفاق الكرة الارضية . انهما تستطيعان ان تشعا في عليا العالم الفكري ، مثلما تستطيعان ان تضربا – دون عثار – في ظلمات النفس الحالكة فلا تخطئان ، وكأنهما تتجولان في مملكة الهواء الحرة الطليقة . هاتان البلورتان المتألقتان ، انهما تملكان من الحرارة والطهارة ما يكفي كي تشاهدا الله في تحليق اشراقي ، مثلما تملكان الشجاعة ايضاً على سبر أغوار العدم السحيقة – رأس ميدوز(١)

---

(١) احدى آلهات اليونان ... كانت مشهورة بجمالها ، وجمال شعرها بصورة خاصة . غضبت منيرفا عليها ، فحولت شعرها الى افاعي سامة ، وجعلت لعينيها قوة تستطيع ان تحيل حجراً كل من يقع بصرها عليه . ولقد قطع بيرسي رأسها وحمله في سفراته كي يخيف به اعداءه .

المخوف هذا ، الذي تراقبان بحياد المذهول بانتباه وامعــان عظيمين . ليس شيء مستحيلا بالنسبة الى هذه العين ، اللهم الا شيء واحد ربما ، ألا وهو البقاء في جمود وبلادة ، النوم والاغفاء في احضان الفرح الهـادىء النقي ، بين ذراعي سعادة الحلم وغبطته .. كلا ، ان الجفنين لايكادان يتباعدان حتى تنطلق هذه العين ، بصورة قاهرة ، تفتش عن فريستها ، وقد افاقت في عنفوان جبار ، وطردت الوهم دونما رحمة او اشفاق .. انها تخترق كل خرافة ، وتكشف اللثام عن كل كذب ، وتسحق كل عقيدة ... فالكل يتجرد امام عين الحقيقة هذه ويتعرى ... وانه ليكون امراً رهيباً حقاً اذا ما رفع تولستوي هذا الخنجر الفولاذي الرمادي اللون ضد نفسه .. أن شفرته لتغور اذن ، قاتلة ، حتى اعمق اعماق القلب ...

ان من يملك مثل هذه العين يرى الحقيقة ، والعالم وكل المعرفة ملك يديه . ولكن المرء لايكون سعيداً بمثل هاتين العينين ، الصادقتين ابداً ، اليقظتين في كل الاحايين .

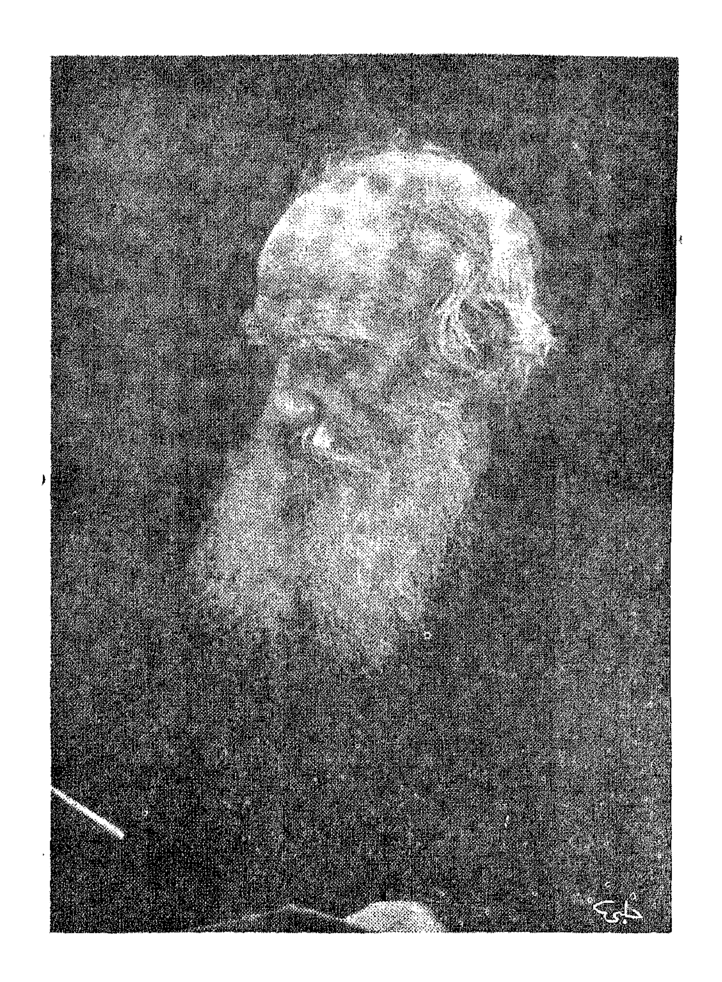


حيوية تولستوي ونقيضها

« اود ان اعيش طويلا، طويلا جداً ، وان فكرة الموت لتملأني رهبة طفولية وشعرية . »

تولستوي

من رسائل الصبا



ليون تولستوي ، عام ١٩١٠

صحة مكتملة ، وجسد قد حتى يعيش قرناً كاملا ، وعظام متينة مشبعة بالنخاع ، وعضلات عقدة ، وقوة قمينة بدب حقيقي : ان تولستوي الفتى يستطيع ، وهو متمدد على الارض ، ان يرفع في الهواء بيده الواحدة جندياً ثقيلا ... واوتار مرنة ، فهو في المدرسة يقفز — دون انطلاق وبسهولة تامة — فوق اعلى حبل يتمرن الطلاب عليه ، ويسبح مثل السمكة ، ويمتطي الجواد كأحد القوزاق ، ويحصد مثل فلاح قضى العمر كله في الحقل ... ان هذا الجسد الحديدي لايعرف تعباً الا ذالك الذي ينشأ من الفكر .. كل عصب موتور يهتز حتى الحد الاقصى مرناً ومقاوماً في وقت واحد ، فكأنه شفرة «طليطلية» ، وسائر الحواس حادة يقظة متنبهة لايسطو النوم عليها ابداً .. ليس ثمة ثلمة ، او فجوة ، اونقص ، او عيب ، في هذا الحاجز المستدير من القوة الحيوية ، وبالتالي فان الداء لم ينجح ابداً في اقتحام هـذا الجسد المبني من الحجارة المنحوتة .. ان صحة تولستوي العجيبة لاتبرح حصينة ضد كل ضعف ، مسورة ضد كل شيخوخة .

وحيوية لانظير لها : ان سائر فناني العصور الحديثة ليبدون ـ الى جانب هذا العنفوان التورروي المجلل بلحية هادرة ، فلاحية ، بربرية ـ نساءً ضعيفات ويفعاناً ناحلين ، بله ان اولئك الذين كانوا يساوونه في القوة الخلاقة حتى سن متقدمة جداً ، هؤلاء ايضاً قد شاهدوا جسدهم يشيخ ويتعب تحت ثقل الفكر المتحرك ابداً ، الساعي دوماً وراء صيد جديد . وان جوتـــه الذي يتفق واياه — إن بتماثل يوم الولادة ، الثامن والعشرين من آب ، اوبالنظرة المبدعة الى الكون ، والذي تماسك ايضاً حتى الثالثة والثمانين ـ ان جوته ، في الستين ، قد تصلب وامسى يخاف الشتاء ويرهبه ، فهو منذ زمن بعيد لايرى الى العالم الامن وراء نافذته المغلقة بعناية فائقة واحكام تام ... اما فولتير ، وقد تعظم واشبه طيراً ينذر فأله بالويل والثبور اكثر منه

مخلوقاً انسانياً ،فيحك الورق على مكتبه ويحكه دون جدوى أو فائدة ؛ بينما كانت، وقد تعب وقسا عوده ، يذهب ويجيء مثل مومياء ميكانيكية على طول ممره في كننسبرغ ؛ في حين ظل تولستوي ، هذا العجوز الذي يطفح قوة وعزماً ، يغمس جسده الاحمر من البرد في الماء المتجلد وهو ينتفض كالعصفور بلله الندى ، ويشذب الاشجار في الحديقة دون كلل ، كما يركض بخفة ورشاقة خلف الطابات في ملعب التنس ؛ ويراوده الفضول ، وهو في السابعة والستين ، فيريد ان يتعلم امتطاء الدراجة؛ وفي السبعين يروح يتزحلق في الساحة المتألقة برشاقة تامة ؛ وفي الثمانين يدرب يومياً عضلاته في تمارين رياضية عنيفة ؛ وفي الثانية والثمانين ، وهو على قاب قوسين من الموت ، يلوح بعد بالسوط فوق رأس فرسه اذا توقفت عن الركض ، او ثارت احتجاجاً بعد عشرين فرسخاً قطعتها في عدو سريع . كلا ، ليس هناك مقارنة ممكنة ، فالقرن التاسع عشر لايعرف ابداً مثيلاً لمثل هذه الحيوية القمينة بالعصور الاولى من العالم.

وهذه الغصون قد بلغت سماوات السنوات البطريركية ، دون ان يجف جذر واحد في شجرة الحور هذه ، العملاقة في الارض ، المنتفخة بالنسغ حتى آخر ليف بها . ان العين تظل ثاقبة حتى ساعة الموت ، فتولستوي عندما يكون ممتطياً جواده ترى نظرته الطلعة اكثر الحشرات دقة تزحف على قشر الاشجار ، كما انه في غنىً عن المنظار كي يلاحق طيران العقاب في السماء المريغة ، والاذن منه تظل حادة السمع ، كما ان خيشوميه الواسعين ، الحيوانيين تقريباً ، يمتصان كل رائحة لذيذة ويبتلعانها في نهم شديد وجشع لامثيل له . ان نوعاً من النشوة تطبق دوماً على هذا الشيخ الابيض اللحية عندما يستنشق بغتة ، اثناء نزهاته الربيعية ، الرائحة القوية المتصاعدة من الدمن والمختلطة بذفرة الارض التي تتعرى عن الجليد ، فيشهد عندئذ في ذاكرته ، بكل وضوح ، ثمانين ربيعاً من الزمان الغابر يضع كل منها انطلاقه الخاص ، اولى دفعات أبخرته ، في هذه الدفقات من العطر الوحيد ... ان الاحساس الذي ينتابه اذن لشديد الحيوية ، شديد التأثير حتى تبتل عيناه على حين غرة وتدمعان ...

ان ساقيه العصبيتين ، ساقي الصياد في حذائي الفلاح المرهقي الثقل ، يذرعان في كل حدب وصوب التربة الندية ، ويده الثابتة لاتعرف ارتعاش الشيوخ وترددهم ،

وخطه في رسالة الوداع يحمل بعد تلك الخطوط الكبيرة والشطحات الطفولية التي يتميز بها في سنيه الاولى ؛ وفكره ، هو ايضاً ، مابرح يدوّم دون هوادة ، سليما بصورة رائعة مدهشة مثل اوتاره واعصابه ، فهو في الحديث يتألق ويشع ويتجاوز الجميع ، بينا تحفظ ذاكرته - بدقتها المرعبة - حتى اتفه التفاصيل ، فلا يفلت شيء من قبضتها المتينة ، ولايستطيع محك السنوات القاسية ان يمحو اي بروز او يلين من حدته . وان حاجبي الرجل العجوز ليرتجفان بعد غضباً كلما لقي معارضة ، بينما يدوّر الضحك الرنان شفته الغليظة ، ولسانه مابرح خصباً بالصور المبتكرة ، بينما الدم الحار ابداً يطلب ان يكتفي ويشبع . وعندما اعترض احدهم ، اثناء مناقشة عن « السوناتا الى كروتزر » ، على الرجل البالغ السبعين من العمر بأنه يسهل في مثل سنه ان يقلع المرء عن الشهوانية ، اذا عين العجوز العقد تلقي شرر الكبرياء والغضب ، واذا هو يهتف : « هراء ! ان الجسد مابرح قوياً بعد ، وما زلت حتى الآن اقاوم ! » .

ان مثل هذه الحيوية الراسخة ، العصية على الزوال ، تستطيع وحدها ان تفسر تلك القوة الخلاقة التي لاتتعب او تكل ابداً ولاينضب لها معين او يجف قط .. ليست هناك سنة واحدة بين السنوات الستين من جهاده الدنيوي قد ظلت مجدبة غير مثمرة ، كان هذا الفكر لم يعرف سبيلا الى الراحة ابداً ، وهذه الحساسية المستيقظة بصورة رائعة ، الناهضة بصورة عجيبـــة ، لم تذق يوماً طعما للنوم او للنعاس ... ان تولستوي ، حتى في إبان شيخوخته ، لايعرف معنى المرض الحقيقي ، والاعياء لاينال ابداً - بصورة جدية - هذا العامل الذي يشتغل عشر ساعات في النهار ، وحواسه الناشطة دوماً لاتحتاج الى لسعة سوط المنبهات من خمر او قهوة ، مثلما هي في غنىً عن الاستدفاء بالكحول او اللحوم ، حواسه المروضة هذه سليمة جداً ، مستعدة ابداً للهجوم ، والفرح يغمرها ، متوترة على الدوام بصورة شديدة المرونة ، عامرة جداً بالطاقة الداخلية في كل الاحايين حتى لتروح تهتز لدى ادنى احتكاك ، وحتى لتكفي قطرة واحدة كي تطفح بها .. ان صحته الجبارة لاتمنع بشرته من ان تكون حساسة (كيف كان يمكن ان يكون فناناً لو لم تكن له هذه الاثارة القصوى ؟) فلا تمس مفاتيح اعصابه ، السليمة في جوهرها ، الا بحذر

شديد ،لان عنف ارتكاسها هو بالضبط مايجعل سائر انفعالاته شديدة الخطورة ، عظيمة الانفجار ...

ولهذا فهو (مثل جوته وافلاطون) يخشى الموسيقى ، لانها تثير بعنف شديد امواج شعوره العميقة الخفية .. انها تهاجم دون هوادة اعصاب اهوائه المنتفخة بدماء حيويته، او كما يقول عنها : « انها تؤثر في بصورة رهيبة » . وفي الحقيقة ، فبينما عائلته تجلس حول البيان تصغي في لطف وعدم اكتراث الى الالحان العذبة ، يأخذ خيشوما تولستوي بالارتجاف بصورة مخوفة ، وينقبض حاجباه ويتخذان موقف الدفاع ... انه يحس « ضغطاً غريباً حول عنقه » ، فلا يلبث ان يستدير بعنف ، على حين غرة ، ويسرع الى الباب هارباً ، لأن العبرات قد انبثقت في عينيه ..قال مرة ، وهو مذعور من نفس انتصاره : « ماذا تريد مني هذه الموسيقى ؟ » .انه يحس انها تريد شيئاً ما منه ، انها تهدد بسلبه ماقرر ألا يسلمه قط للآخرين ، شيئاً يحتفظ به في اعماق دولاب عواطفه الخفي ، فاذا اختار عنيف يحدث في باطنه بالرغم من ذلك ، انبثاق يهدد بأن يتجاوز السدود ويحطمها ...

ليس من يدري اي شيء فائق الجبروت ، قوته وافراطه يخيفانه ويلقيان الذعر في قلبه ، يأخذ بالحركة فيه والفوران ... انه يحس بالرغم منه ، في اعمق اعماق كينونته ، ان موجة الشهوانيـــة تطبق عليه وتحيد به — عنوة — عن الصراط المستقيم ... ولكنه يبغض (او يخشى) — بسبب ذلك الافراط الذي لايعرفه ، بكل تأكيد ، أحـد سواه — شهواتـه الخاصة ، الأمر الذي يدفعـــه الى مطاردة « المرأة » ايضاً بحقد الناسكين ، حقد لايمكن ان يكون طبيعياً عند رجل سليم . ان المرأة لاتبدو له « عديمة الاذى إلا عنـدما تنهمك في امور الامومة ، اذا كانت متواضعة ، او اذا اضفى عليها السن جلالاً ووقاراً » ، يعني فيما وراء تلـك العاطفة الجنسية التي « احس بها طوال حياته كعيب في جسده ثقيل مرهق » ... ان المرأة ، مثلهـا مثل الموسيقى ، تمثل بالنسبة الى هـــذا العدو للاغريقية ، هـذا

المسيحي المصطنع ، هذا الراهب بالرغم منه ، تمثل الشر ولا تمثل شيئاً سواه ...
ان هذه وتلك ، المرأة والموسيقى ، يحيدان بنا بواسطة الشهوانيـــة « عن ميزاتنا الاصيلة من شجاعة وعزم وعقل وعدالة » ... انهما تقودانا ، كما « سيبشر الاب » تولستوي فيما بعد ، « الى الخطيئة الجسدية » ... انهما « تتطلبان منه شيئاً ما » يرفض أن يعطيه . انهما تلمسان فيه شيئاً خطراً يخشى إيقاظه ..

وليس من حاجة الى كثير من الذكاء ليخمن المرء ان المعني ههنا شهوانيـــة شيطانية قد كبح تولستوي جماحهـــا بصبر وعزم في نضال دام سنوات طويلة ، لكن دون ان ينجح في خنقها بصورة نهائية وسحقهـــا بصورة تامة ، حيث بقيت ـ بعد ان روضها واستعبدها وهزمها وأرهقهـــا بالسوط دون شفقة ـ رابضة في زاوية خفية من كينونته ، ترتعش أظافرها وهي على اهبة الاستعداد للقفز في اول لحظة تنعدم فيها المراقبة عليها ... الموسيقى : هـــذا رباط الارادة يرتخي ، فاذا « الحيوان » ينتصر . النساء : هذه الكلاب تعوي وتزمجر متعطشة الى الدم ، وهي تهز قضبان السجن الحديدية ... بهذا القلق الرهباني المجنون ، بهذه القشعريرة المخبولة اللذين يجتاحان تولستوي تجـــاه الشهوانيـــة السليمة والصافية ، العارية والطبيعية ، بهذين الشيئين وحدهمـــا يستطيع المرء ان خمن ذلك العنفوان الجدير بالاله بان ، ذلـــك الثوران الجامح ، ثوران الحيوان الانساني المختبىء فيه والذي انطلق على هواه ، في ايام شبابه ، في إفراط همجي (انه ينعت نفسه في خطاب الى تشيخوف بـ « الزاني الذي لايتعب » كي يظل فيما بعد حسيياً بالرغم منه طوال خمسين عاماً تحت قبب الاقبية ـ مسوراً ولكن غير موؤد ... ان امرأً واحداً في العمل الاخلاقي المطلق الذي حققه تولستوي ، يكشف اللثام عن كون شهوانية هذا الرجل ذي الصحة الماثلة قد بقيت مفرطة طوال حياته ، وذلك هو خوفه من « المرأة » بالضبط ، المجربة ، هذا الخوف الذي يذكرنا بآبار الصحراء ، هذا الخوف الهادر والاكثر من المسيحي الذي يضطره بالرغم منه الى غض ناظريه ، والذي ليس هو

في الحقيقة الا الخوف من نفس شهواته التي تسخر فيما يبدو من سائر الحدود وتتجاوزها.

دوماً وفي كل مكان نحس الشيء نفسه : ان تولستوي لايخاف من اي شيء مثلما يخاف من نفسه ، من قوته القمينة بدب جبار .. ان نشوة السعادة التي كثيراً ماتوسلها في اوصاله صحته فوق العادية ليعكر صفوها ، بصورة محتومة لامفر منها ، الرعب الذي يبعثه فيه جبروت حواسه الحيواني العاتي .. لقد كبح جماح هـــذه الحواس ، بكل تأكيد ، كما لم يفعل احد من قبله قط ، ولكنه يعرف حق المعرفة ان المرء لايكون ــ عبثاً ــ انساناً روسياً ، الرجل الشعب وابن شعب متطرف ، ان المرء لايكون ــ عبثاً ــ مجنوناً بالمتطرفات ، عبداً لكل مايتجاوز الحدود الطبيعية . وهذا هو السبب في ان ارادته العاقلة تتعب جسده ، وهذا هو السبب في انه يشغل حواسه دون انقطاع ، فيفسح الميدان لها ، ويقدم اليها العابا غير مؤذية ، ويفيض عليها بالهواء والسرور ، وما ذلك كله الا كي يغذيها ويشبعها ... انه يرهق عضلاته بجهد بربري في استعمال المنجل وقيادة المحراث ، ويتعبها بالرياضة البدنية ، والسباحة والفروسية ، كي ينتزع منها زعافها ، ويحيلها عديمة الأذى ، عاجزة عن الضرر ... انه يدفع قوته الخطرة الى الخروج من الحياة الخاصة كي تنتشر في الطبيعة حيث ينطلق في هياج لاحدود له كل ماتلجمه طاقة ارادته في حياته الباطنة ...

ولذا كان الصيد هوى اهوائه .. ههنا تجد سائر الحواس ميداناً لها ، ان كانت بناتاً للنور ام بناتاً للظلمة ... ان غرائز قديمة جداً ، موروثة عن اجداد موسكوفيين وربما تتريين ايضاً ، موروثة عن اجيال من الفرسان الرحل والمحاربين الممجبين ، لتستيقظ اذن بصورة شيطانية في دمائه الحبيسة عادة ... ان الشهوانية المخوفة ترفع رأسها وتتأجج ، وتولستوي الذي لم يصبح رسولاً بعد ، يسكر عندئذ برائحة الجياد الناضحة عرقاً غزيراً ، وبهياج العدو الجنوني ، وبالسباق والجولات المجنونة التي تبسط الاعصاب وتحمل اليها الراحة ... لا بل انه يسكر (وهذا امر يمتنع على الفهم عند ذلك الذي سيصير مجنون الاشفاق في ايامه المقبلة) بذعر الفريسة الصريعة وعذاباتها ،

الفريسة الدامية التي يبدو ان نظرتها الجامدة المحطمة تتأمل السماء الواسعة الابعاد حيث كانت تحلق قبل لحظة قصيرة .. وانه ليعترف ، عندما يحطم جمجمة ذئب كاسر بضربة من هراوته ، بأنه يحس « لذة حقيقية رائعة لدى مشهد آلام الحيوان الذي يلفظ انفاسه الاخيرة » ... وان المرء ليخمن ، من هذه الدفقة الطافرة من التعطش الى الدم ، سائر الغرائز الحيوانية التي كبح جماحها في نفسه طوال حياته ، اللهم الا في سنوات صباه المجنونة ..

ان يديه مابرحتا ترتجفان بالرغم منه وكأنهما تريدان ان تطلقا النار، حتى بعد زمن طويل من زهده في الصيد عن قناعة اخلاقية ، اذا مارأى ارنباً برياً ينطلق على حين غرة امام عينيه عبر الميدان الفسيح .. انه الحيوان الاموي ، الكائن الغريزي الذي يشد على سلاسله .. ولكنه يكبح بعنف ، وبصورة دائمة ، هذا الهوى مثلما يفعل بكل هوىً آخر ايضاً . واخيراً ، فان الفرح الذي تمنحه الامور الجسدية الى حواسه يكتفي بتأمل الحياة البسيطة وتصويرها فقط ... ولكن اي فرح جامح جلي هو هذا ايضاً ! ويا لحواسه السكرى بانطلاقها ، كيف تمدو ، تنشر امواجها وتطبق على فريستها ، منذ اللحظة التي يقودها فيها الى الطبيعة الحرة ! وما أقل مايلزمها كي تهتاج وتتأرث ! ان ابتسامة راضية تباعد كثيراً مابين شفتيه كلما مر قرب جواد جميل ، فيروح - في لذة شهوانية تقريباً - يربت على اعطافه الدافئة الحريرية ، ويمسح عليها حتى تسيل من بين اصابعه حرارة الحيوان الخافقة ... ان كل ماهو حيواني خالص يملأه تهللاً وإشراقاً ، حتى انه ليتأمل - مسحور العينين - رقص الفتيات طوال ساعات عديدة ، مأخوذاً فقط بما في هذه الاجساد اللدنة من الرشاقة واللطف والليونة ... واذا ماالتقى برجل جميل ، او بامرأة صبوحة الوجه ، فانه يتوقف عن السير او عن الحديث ، لالشيء إلا كي يرضي دهشته الفرحة ، ويهتف في حماسة واندفاع : « ماأروع الجمال الانساني ! » . ذلك انه يحب الجسد ، هذا الحوض للحياة الحية ، هذا السطح الذي يحس النور ويعكسه ، هذا العضو التنفسي للهواء الحلو

المذاق ، المتدفق من الف ينبوع وينبوع ، هذا الغلاف للدم ذي الدوران المحرق.. إنه يهواه في مجموع خفقانه الجسدي لانه يجد فيه معنى الحياة وجوهرها ..

بلى ، انه ليحب الجسد ، هذا الذي لم يعرف الادب العالمي مغرماً بالحيوانات اكثر تأججاً منه ، مثلما يحب الفنان آلته الموسيقية .. انه يحب الكائن الحكمي لأنه يجد فيه اكثر اشكال الانسان طبيعية ، ويحب ذاته في جسده البدئي اكثر مما يحب ذاته في نفسه الهشة التي تتحدث بلغة مضاعفة . انه يحبه في سائر الاشكال وسائر الأزمان ، منذ البداية حتى النهاية ، وملاحظته الاولى الواعية عن هذا الهوى الذاتي (وهو ليس بالخطيئة) لتعود الى السنة الثانية من حياته ...

ويجب ان نصر على هذه الناحية كي نفهم جيداً بأي وضوح واي جلاء تظل سائر الذكريات مرئية عند تولستوي ، مثلها مثل حصوة تحت تيار الزمن . وبينما يكاد جوته وستندال ألا يتذكر انطباعات سنتها السابعة او الثامنة ، يحس تولستوي — وهو بعد في الثانية — مشاعر تبلغ من التعقيد مايبلغه الفنان الذي كان مدعواً لان يصير اليه ... مشاعر تتوطد بها ، بقوة عظيمة ، وفرة حواسه وتعددها ...". فلنقرأ هذا الوصف لاول انطباع تركه فيه جسده : « اني اجلس في محم من الخشب ، تحيط بي من كل حدب وصوب رائحة جديدة بالنسبة الي ، ولكنها ليست كريهة ، رائحة سائل يفركون به جسدي ... لاريب انها مياه النخالة التي كانوا يستعملونها في اغتسالي ... وان جدة هذا الانطباع تؤثر في ، فألاحظ للمرة الاولى ، في حنان ، جسدي الصغير ، وقد بانت اضلاعه في القسم الامامي من الصدر ، كما ألاحظ وجنتي ممرضتي القاتمتين الملساوتين واكمامها المرفوعة ، وكذلك مياه النخالة الحارة الداخنة ورشرشاتها . ولكني لاأنسى ، بصورة خاصة ، ذلك الاحساس من المادة المصقولة الذي يرسله المحم في كلما مررت بيدي الصغيرة على جوانبه » .

واذا اردنا الآن ان نحلل ذكريات الطفولة هذه ونصنفها حسب مناطقها الحواسية ، لدهشنا اذن من ذلك الكمال التام الذي يشاهد به تولستوي العالم

الخارجي ، وهو في هيكل البرقة الصغيرة لطفل في الثانية من عمره . انه يرى تلك التي تعنى به ، انه يشم رائحة النخالة ، انه يميز منذ الآن ذلك الانطباع الجديد ، انه يحس حرارة الماء ، انه يسمع الضوضاء ، انه يتلمس جدر الخشب المصقول ، واذا سائر هذه الانطباعات المتوافقة لمختلف الحبال العصبية تؤدي الى تأمل الطفل ، « بحنان » إجماعي ، لجسده الصغير ، باعتباره سطحاً جماعياً تعبر به كل احساسات الحياة عن نفسها .. واننا لنرى كيف تلتحم محاجم الحواس بالوجود في وقت مبكر جداً ، وبأية قوة واية دقة في الوجدان ينفصل ادراك العالم عند الطفل منذ الآن الى انطباعات متميزه مفترقة ... ولفي وسعنا ان نقدر منذ هذه اللحظة مبلغ مايمكن لهذه العضوية ، اذا ماأصبحت بالغة يوماً ، ان تضفيه من الحذق والشدة معاً على كل انطباع يوم يكمل الطفل نضوجه ، وتنتفخ حواسه بالنخاع والقدرة العضلية ، ويشحذ الوعي احساساته ، ويوتر فضول الحياة المصابة ويشدها .. وعندئذ سوف يزدهر هذا الارتياح البدني الذي يهب الطفل اللعوب الاحساس العميق بجسده الصغير في الحمم الضيق ، عندئذ سوف تزدهر لذة بالغة بالوجود ، لذة همجية تكاد تكون كاملة ... وان الرجل البالغ ، مثله مثل رضيع الأمس ، سوف يخلط ، في شعور وحيد بالنشوة ، الخارج والباطن ، الكون والأنا ، الطبيعة والحياة جميعاً ...

وفي الحقيقة ، ان هذه النشوة بالأنا المتحدة بشمول الاشياء ، كثيراً ماتطبق على تولستوي الذي بلغ الرجولة ، فكأنها هذيان مسعر ... يكفي ان نقرأ ان هذا الانسان الجبار ينهض احياناً في الليل ، ويغادر فراشه كي يغدو الى الغابة يتأمل العالم الذي اختاره من بين ملايين الاحياء كي يحسه بقوة ووضوح يتفوقان احساس الآخرين به ، وانه ينفخ صدره على حين غرة باشراق عظيم ، ويمد ذراعيه ويفتحهما واسعتين عريضتين وكأنه يستطيع ان يمسك اللانهاية التي تعذب نفسه في الهواء الحي الطنان من حوله ، او انه ينحني ايضاً ، وهو لايقل انفعالاً بأحقر الاشياء منه بامتداد الكون العظيم ، كي يرفع عن الارض نبتة صغيرة سحقتها بعض الاقدام ، ويسوي

اوراقها في عطف وحنان فائقين ، او كي يتأمل مـــأخوذاً ألاعيب حشرة صغيرة مضطربة الطيران ... ومن ثم ، اذ يرى ان بعض الاصدقاء يراقبونه ، يستدير جانباً بسرعة كيلا يفضح الدموع المترقرقة في عينيه . ان احداً من الشعراء المعاصرين ، حتى والت وهايتمان نفسه ، لم يحس بمثل هذه القوة ماتبعثه الاعضاء الارضية والجسدية من لذة حكمية عاتية فينا . وليس بينهم من اجتذب اليه ، من احضان الابدي ، بكل هذا الوضوح والحدة ، سائر التفاصيل على الاطلاق (وهو ينظر ، ويحس ، ويشم الاشياء في وقت واحد) مثل هذا الروسي ، بجميا شهوانيته القمينة بالآلهة بان ، بإله قديم حاضر في كل مكان . وعندئذ نستطيع ان نفهم هذه الكلمة التي هتف بها بكل فخر واعتزاز : « اني ، أنا نفسي ، الطبيعة ! » .

هذا الروسي المتفرع الاغصان ، الذي يؤلف كوناً مستقلا قائماً بذاته في هذا الكون الذي يحيط بنا ، كوناً تمتد جذوره قوية متينة في تربته الموسكوفية ، ليخيل اليك ان شيئاً في هذا العالم لايمكن ان يزعزع ثباته الراسخ ، الجسدي والفكري جميعاً ... ولكن الارض نفسها قد ترتجف في بعض الاحيان بفعل زلزال يهزهـا في اعماق باطنها ، وهكذا تولستوي ايضاً يترنح احياناً في ملء يقينه الثابت الوطيد الاركان .. هذه عيناه تجمد على حين غرة ، وهذه حواسه تتأرجح ولا تجد امامها الا الفراغ وحده ، الفراغ المخيف ، لان شيئاً مـــا ـ غريباً غير مألوف . قد دخل ساحة بصره ، شيئاً تعجز الحواس عن ادراك معناه ، شيئاً يظل خارجاً عن حدود الكمال الدافىء الذي يتمتع به كلا الجسد والحياة جميعاً ، شيئاً لايفقه له معنى بالرغم من توتر اعصابه التام ، شيئاً يخرج عن متناول يده ، هو رجل الحواس ، لأنه ليس بالشيء الارضي ، بل هو عنصر لايستطيع ان يمتصه وان يمزجه بنفس مادته وعناصره الخاصة ، شيئاً يلقي ظلاً غريباً وراء كل مايجعل الانسان سعيداً ، وكل مايمكن للاحساس ان يبلغ اليه ، شيئاً لايقبل ان يمس او يوزن ، ويرفض ان يدخل في شعور الكون الشامل ، هذا الشعور الصادي ابداً ، المتعطش دوماً ... وفي الحقيقة ، كيف

السبيل الى الامساك بهذه الفكرة المخوفة التي تشتق ، على حين غرة ، الفراغ المستدير الذي يؤلف مسرحاً تجري الحوادث على خشبته ؟ كيف السبيل الى تصور هذه الحواس المتدفقة الخفاقة بالحياة وقد انقلبت يوماً ما خرساء صماء ، وهذه اليد وقد اضحت معرّاة من اللحم مجردة عن الاحساس ، وهذا الجسد العاري الجميل الذي يلتهب في هذه اللحظة بتيار الدماء الجارية في عروقه وقد امسى مرعى للديدان تنهش فيه ، وهيكلاً بارداً كالحجر الأصم لايحس ولايعي ؟ ماذا يحدث ياترى لو انبثق عنده ايضاً ، هذا اليوم او غداً ، ذلك العدم ، ذلك الشيء الاسود الرابض خلف الحياة ، ذلك الشيء الذي لايمكننا ان نقاومه وندافع عن انفسنا ضده ، كما لايمكننا في اي مكان ان ندركه بوضوح وجلاء ؟ ماذا يحدث ياترى لو ان ذلك الحضور ، الممتنع عن الحواس ، تسرب الى داخله ، هو الذي مايزال يطفح بعد بعصارات الحياة وعنفوانها ؟

ان الدم يجمد في عروقه ويكف عن الدوران كلما تملكته فكرة الفناء ... كان طفلا بعد عندما التقى بهـــذا الفناء للمرة الاولى ، وذلك يوم قادوه الى قرب جثمان امه ... كان شيء بارد صلب يضطجع هناك ، والحياة بالامس فقط كانت تدبّ في اوصاله طرية دافئة . ولم يستطع ، طوال ثمانين عاماً ، ان ينسى تلك الظاهرة التي عجز يومذاك عن تعليلها ، ان بالشعور او بالفكر ايضاً . ولكن ذلك الطفل البالغ من العمر سنته الخامسة ليطلق صيحة ، صيحة ذعر رهيبة ، ومن ثم يولي الادبار هارباً في فزع مجنون تلاحقه سائر آلهة الخوف وجنياته . وان فكرة الموت لتسقط عليه ، في كل مرة ، بالعنف نفسه اشبه ماتكون بصدمة شديدة ، او بقوة تضيق الخناق عليه حتى لتكاد ان تزهق روحه ، ان لدى وفاة اخيه ام منية ابيه ام موت عمته ، كما ان تلك اليد الجليدية تطبق على عنقه ، في كل مرة ، وتجلده جلداً لارحمة فيه ، فيحس أعصابه جميعاً وكأنها تتمزق تحت قبضتها القاسية الرهيبة .

وفي عام ١٨٦٩ ، قبل حدوث الازمة بفترة قصيرة ، وصف تولستوي «ذلك

الرعب الاصفر الشاحب » (وهذا هو نفس تعبيره) الذي ينتابه لدى كل انبثاق مماثل : « كنت احاول ان انام ولكني ما ان اضطجعت حتى تملكني ذعر عظيم ، واخذني ارتعاش شديد اجبراني على النهوض من فراشي . ذلك احساس من العذاب كالذي ينتاب المرء قبل ان يقيء ... ان شيئاً يحطم وجودي ارباً ارباً ، ولكن دون ان يأتي عليه تماماً ويفنيه ... حاولت مرة اخرى ان انام ، ولكن الرعب كان حاضراً هناك ، احمر وابيض ... ان شيئاً ما يمزق كينونتي ويجتاح كل اوصالي بالرغم من ذلك » . ان الحادث الرهيب قــــد تحقق ، فقبل ان يرفع الموت اصبعاً واحدة على جسد تولستوي ، قبل موته الحقيقي بأربعين سنة ، كان الاحساس السابق به يتسرب الى نفس الحي دون ان يستطيع اي شيء ان يطرده منها بصورة نهائية . ان عذاباً عظيما يقتعد في الليل حافة سريره ، انه يقضم كبد فرحة الحياة عنده ، انه يتسلل بين صفحات كتبه ويلتهم افكاره السوداء التي شرع التفسخ ينال منها .

وهكذا نرى ان رهبة الموت عند تولستوي رهبة فوق إنسانية ، مثلها مثل حيويته التي كانت تفوق حيوية البشر . ولو اننا نعتناها بالرهبة العصبية الشبيهة مثلا بالخوف الناشيء عن الوهن العصبي الذي نجده عند اشجار ألان بو ، او القشعريرة الصوفية اللذيذة الاثر التي نلقاها عند نوفاليس (١) ، او الاكتئاب المبتئس الحزين الذي نراه عند لورو (٢) ، لكان في وصفنا هذا شيء كثير من الحياء والوجل . ههنا يتظاهر رعب بربري ، حيواني ، عارٍ ، ذعر خالص لاخليط فيه ، عاصفة جبارة من القلق ، خوف من غريزة الحياة التي تلاشت في النوء واللحظة . ان تولستوي لايرهب الموت كانسان مفكر او كروح بطولية رجولية العنفوان ، بل انك لتقول عنه انه وسم بالحديد الاحمر فأصبح بعد الآن عبداً لذلك الرعب يرتجف امامه بكل ذرة من ذرات كينونته ، ويطلق صيحات عنيفة حادة دون ان يستطيع ان يتمالك زمام

---

(١) شاعر ألماني صوفي النزعة من الشعراء القرن التاسع عشر .

(٢) شاعر الماني معذب حزين ولد في هنغاريا (١٨٠٢ — ١٨٥٠)

نفسه ويستعيد هدوءه .. ان رهبته تنفرغ بشكل انفجارات من الهلع الحيواني والجبن المترنح ، بشكل صدمات شديدة لاتبقي ولاتذر ... وذلك هو العذاب البدئي للخليقة وقد تجسد في انسان واحد ، ذلك هو الرعب الذي تعبر عنه – في جنون وخبل – اجيال عديدة تتكلم بلسان نفس واحدة . انه لايريد ان يستسلم لتلك الفكرة ، لايريد ذلك بل يرفضه ، فيحطم الرعب مفاصله بوحشية فائقة ، اذ يجب ألا ننسى انه قد هاجمه على غيرانتظار ، بينما هو يرتع في هدوء لامتناه ، معدوم الحدود ، بحيث ان الانتقال بين الحياة والموت يعوز هذا الدب الموسكو في الرابض في جبه بأمان وطمأنينة . ان الموت ، بالنسبة الى هذا الكائن الصحيح تماماً ، لشيء غريب عنه بصورة مطلقة ، بينما الانسان المتوسط يجد عادة جسراً ينتصب بين الحياة والموت كثيراً مايعبر ، وذلك الجسر هو المرض .

ان معظم الاشخاص ، عندما يقاربون الخمسين ، يجدون في انفسهم عنصراً من عناصر الموت في حال الكمون ... فوجود الموت بالنسبة اليهم لم يعد شيئاً خارجياً تماماً ، مفاجأة ان صح التعبير .. ولذا فهم لايرتعشون لدى هجمته الاولى العنيفة على تلك الصورة الرهيبة .. خذ مثلاً دستويفسكي الذي ربط الى عمود الاعدام ، وقد عصبت عيناه ، ينتظر طلقات الرصاص التي ستضع حداً لحياته ، والذي كان يتردى في كل اسبوع فريسة لاختلاجات صرعية ، حتى لقد اعتاد هكذا على العذاب ، واصبح يجابه فكرة الموت بثبات اعظم من ذلك الذي لم يشك بها لحظة واحدة لانه يطفح دوماً صحة وحيوية ، فلا يجمد ظل هذا الرعب الذليل تقريباً ، والذي ليس من ثقل يعدله ، دماءه بمثل الشدة التي يجتاح بها دماء تولستوي ، هذا الذي ينتابه الارتعاش لمجرد سماعه صدى الكلمة ، او لمجرد اقتراب فكرة الموت منه .. انه لايجد اكتمال قيمة الحياة الا في ازدهار أناه ، في « نشوة الحياة » على حد تعبيره ، ولذا فان اقل انقاص لهذه الحيوية يصبح في نظره نوعاً من الداء (كان في السادسة والثلاثين ينعت نفسه « بالرجل العجوز ») . وذلك هو السبب في أن هذا الشعور الجديد يخترقه كالقذيفة من الجانب الواحد حتى الجانب الآخر .

ان من يحس الوجود بكل هذا الجبروت الحيوي يستطيع وحده، من دون سواه - وبفضل حادثة مكملة لذلك الاحساس ليس غير - ان يخشى اللاكينونة بمثل تلك الشدة ، كما لايمكن الا لهذه الصحة التي تتجاوز كل حدود ان تذعر بمثل هذه النقمة المهتاجة امام واقع الموت الذي يفوقها قوة وبطشاً . ولكن قيام حيوية شيطانية هينا في وجه ذعر من الموت شيطاني بدوره ، هو بالضبط السبب في حدوث مثل ذلك النضال العملاقي بين الكينونة واللاكينونة عند تولستوي ، هذا النضال الذي لانجد له مثيلاً في الآداب العالمية جميعاً ، لان الطبيعة العملاقية تستطيع وحدها ان تبدي مقاومة جبارة عملاقة ايضاً . ان انساناً متسلطاً ، صنديد الارادة مثل تولستوي ، لايستسلم ويلقي السلاح - ببساطة وخضوع - امام العدم ، كما لايبحث في جبن عن مأوى له خلف ابواب الكنائس ، بل انه يتمالك نفسه سريعاً بعد الصدمة الاولى ، ويقلص عضلاته ويشحذها كي يغلب هذا العدو الذي انقض عليه بصورة مفاجئة من حيث لايدري . كلا ، ان مثل حيويته الطافحة المرنة لاتقبل بالهزيمة دون قتال ، فهو لايكاد يستيقظ من ذعره الاول ، حتى يتحصن خلف متاريس الفلسفة ، ويرفع الجسور ، ويروح يصب على العدو الخفي - بغية طرده - قذائف المنجنيق التي يتناولها من مصنع منطقه . وان الازدراء هو اول وسائل دفاعه : « اني لااستطيع الاهتمام بالموت ، لسبب رئيسي هو عدم وجوده مادمت على قيد الحياة » ويروح ينعته بأنه « لا يستأهل التصديق » ، ويدعي في كبرياء انه « لايخاف الموت ، بل الخوف من الموت فقط » ، ويؤكد دون انقطاع (طوال ثلاثين عاماً !) انه لايخشاه ، وانه لايفكر فيه في عذاب وقلق ابداً . ولكن هذه الاقوال جميعاً ينقضها بكل وضوح حقيقة انحصار عنايته ، منذ سنته الخمسين ، في قضية الموت وحدها ، بصورة مستمرة دائمة تفلت من نطاق ارادته - ليس بصورة سطحية عابرة ، بل « بكل قوى نفسه » ، دون ان ينجح بالرغم من ذلك في خداع اي انسان كان ، حتى ولانفسه ايضاً . . ليس في ذلك ادنى ريب ... ان فجوة قد حدثت في حاجز هدوئه الاخلاقي

والحكمي منذ اول هجوم شنه عليه ذلك الخوف النفساني ، فاذا سائر اعصابه وسائر افكاره تقع تحت رحمة هذه الهجمات ، فهو لايقاتل بعد سنته الخمسين الا على انقاض الثقة التي كان يملكها فيما مضى بحياته الخاصة . لابل ان وعيه استحالة الافلات من قبضة تلك الفكرة يزداد ويتفاقم بمقدار مايبذل من الجهود المستميتة كي ينتزع نفسه من هذا الوسواس الذي يرهقه ويئيد عليه . ولم يكن امامه بد من الاعتراف ،وهو يتقهقر خطوة فخطوة ، بأن الموت ليس مجرد « شبح » و « فزاعة » فحسب ، بل هو خصم يستحق عظيم الاحترام ، خصم لايمكن اخافته بالكلمات البسيطة ... وعندئذ يجرب تولستوي ان كان يستطيع ان يحيا في احضان **ضرورة الفناء** التي لاغنى عنها ، وان كان يستطيع ان يعيش مع الموت مادام لايستطيع ان يعيش وهو يناضل ضده .

وتبدأ ، بفضل هذا النور الجديد ، مرحلة ثانية ، خصبة هذه المرة ، في علاقات تولستوي مع الموت . انه « لايتخبط ابداً » ضد وجود هذا الاخير ، ولايغذي قط الوهم بامكان تنحيته بالمغالطات والسفسطات او قوة الارادة ايضاً ، وبامكان ابعاده عن عالم افكاره والخلاص منه بصورة نهائية ، بل يسعى الى ادخاله في وجوده ، الى صهره بشعور حياته ، الى التحجر ضد مالابدّ منــــه ، الى « الاعتياد » عليه .. ان الموت لايقهر ، وعملاق الحياة الذي هو تولستوي مجبر على الاعتراف بهذه الحقيقة المرة ، ولكن الخشية من الموت ليست كذلك ايضاً ، فهو يجند اذن كل قواه بعد الآن ضد هذا الخوف فقط . ومثل المتدينين الاسبانيين الذين ينامون في القبور كي يقتلوا في باطنهم كل فرق من الموت ، يروح تولستوي يمارس ، بتدريب للارادة عنيد ويومي على غرار الايحاء الذاتي ، تقويماً للموت مستمراً لاانقطاع فيه .. فيجبر نفسه على التفكير في المنية على الدوام ، دون ان يرهب جانبها ابداً . ان كل مقطوعة من مذكراته تبدأ بأحرف ثلاثة غامضة : إ . ب . ح . (« اذا بقيت حياً ») ... وطوال سنوات عديدة يبدأ كل شهر من حياته بهذه الملاحظة ، هذا التذكير الموجه

الى ذاته : « اني اقترب من الموت » ، فيعتاد هكذا على التطلع اليه وجهاً لوجه دون وجل ... ولكن العادة تلين مافي الشيء من غرابة وتخفف من حدته ... انها تنتصر على الموت ! وهكذا فان الفكرة الغريبة في البدء لاتلبث ، في ثلاثين عاماً من النضال ضد الموت ، ان تصير باطنة متحدة بجوهر الحياة ، والعدو يصبح صديقاً حتى درجة ما ، لان تولستوي يجتذبه اليه ، يجتذبه الى باطنه ... انه يجعل من الموت عنصراً اخلاقياً من عناصر حياته ، وبذلك يصبح العذاب البدني «مساوياً الى الصفر » ،والانسان يصير اشيب الشعر في هدوء وبكل طيبة خاطر ايضاً ،والحكيم ينظر في وجه الفزاعة القديمة دون هيبة أو هلع ... « ليس من حاجة الى التفكير في امره ، لكن يجب ان نراه دوماً امامنا .. ان الحياة بأسرها تصبح عندئذ اكثر خطورة واهمية ، وفي الحقيقة اكثر خصباً وبهجة » .

ان الضرورة قد اصبحت فضيلة ، وتولستوي (هذا الينبوع الابدي للفنان !) قد تغلب على ذعره عندما جعله موضوعياً . لقد ابعد عنه الموت والخوف من الموت بتجسدهما في مخلوقات اخرى ، في اشخاص مؤلفاته .. وهكذا فان ما كان في البدء يسعى الى سحقه فيما يبدو قد امسى الآن يفيده في مضاعفة الحياة عمقاً ، ويضفي على فنه - بحادث لم يكن ابداً في الحسبان - اتساعاً رائعاً عظيماً .. ذلك انــــه يعرف ماهية الموت ، منـــذ ادرك انه مقدر له بالضرورة فلا مفر منه . وهكذا يصبح ، بفضل محاولاته الاستكشافية المعذبة ، بفضل آلاف المرات التي تصور فيها نفسه يحتضر ويموت ، هو اكثر الاحياء تعطشاً وتأججاً ، افضل من وصف الموت ، سيد سائر الذين صوروا يوماً ما قضايا المنية . ان القلق ، هذا الذي يسبق الواقع ويتقدم عليه ، الذي يسأل سائر الامكانيات محموماً متأرثاً . هذا الذي يملك اجنحة الخيال ، هو دوماً - بكل تأكيد - اكثر ابداعاً من الصحة الخرساء الفظة ... ما القول اذن بقلق مرتعش على هذا الفرار ، مذعور حـــتى هذه الدرجة ، ممتد منذ عشرات السنين؟ ما القول اذن بالرعب والذهول المقدسين ، رعب احد عمالقة الفكر وذهوله؟ انه يدري بفضل الموت كل اعراض الانعدام الجسدي ، يعرف كل سمة وكل اشارة



ليوه تولستوي

برسمها منقاش تاناتوس (١) في الجسم الذي سيفنى ويتلاشى ، يعرف كل قشعريرة وكل اعصار من الرعب بجناحان النفس التي تبتلعها الظلمات : ان الفنان يشعر ويتهلل بقوة عظمى بفضل معرفته الخاصة .. ان موت ايفان إيليتش (٢) الذي يزمجر بصورة رهيبة : « لااريد ، لااريد ! » ، ونهاية اخي ليفين (٣) المفجعة ، والمنايا المتعددة التي يصفها في رواياته ، و« الاموات الثلاثة » اخيراً ، كل هذه الحركات التي يقوم بها فكر في المرصاد ابداً ، يميل على حافة الوجدان القصوى ، كل هذا ـ وهو افضل مزية نفسانية لتولستوي ـ كان يظل عصياً على الادراك دون ذلك التوزع الهائل ، دون تشرب الكائن بمجموعه بالرعب الذي احسه هو نفسه ، دون هذه القشعريرة الجديدة ، المجبولة من اليقظة والريبة ، هذه القشعريرة التي تسمو فوق هذا العالم وتعلو عليه . هل يمكن لأقل اختلاف في الفكرة ولاقل تغير حكمي ان يرتسما بكل ذلك الوضوح الا في هـــذا التناقض مـــع ينبوع الضيـــاء الذي لاينضب بالنسبة الى الفنان ، ينبوع صحته القـاتم ؟ ان قوة قد حطمها الرعب بكل هـــذا العنف الفائق الوصف حتى اعمق جواهرها ، هذه القوة وحدها تستطيع بعد ان ترتجف على هذا الفرار ، بكل من أليافها ، لانها ارادت ان تظل يقظة لاتنام . ان العطف يتطلب دوماً ان يسبقه الشعور ، وتولستوي ـ كي يصف هؤلاء الاموات المائة ـ كان مضطراً قبلالأن يعيش الموت في نفسه المضطربة ، وان يحسه ، ويرزح تحت وطأته مائـــة من المرات ... وبالتالي فان العبث الظاهري القائم في ذلك الاظلام المفاجىء للوجود هو بالضبط ما يشعل عند الفنان الذي هو تولستوي معنى جديداً ، لأن قلقه وحده ، المصنوع من الحدس والاحساس السابق ، قد رفع فنه من السطحي ، من مجرد ملاحظة الواقع ونسخه ، الى اعماق المعرفة ... ان هذا القلق

«١» اله الموت عند الاغريق .

«٢» قصة لتولستوي .

«٣» احد شخصيات آنا كارنينا .

وحده ، بعد كمال الموضوعية الحسية، على غرار روبنز (١) ،هو الذي علم تولستوي ذلك الضياء ـ الميتافيزيائي ان صح التعبير ـ القادم من الباطن ، في وسط الظلال المفجعة ، ذلك الضياء الذي يميز رامبرانت بصورة خاصة .. ولأن تولستوي قـــد عاش الموت بحميا تفوق حميا سواه من الناس ، عاشه في ملء المادة الحية ، لهذا السبب وحده قد احال الموت حياً لنا جميعاً ، كما لم يفعل سواه قط .

ان كل ازمة هدية من القدر الى الانسان الخالق ... وهكذا يتحقق اخيراً في موقف تولستوي الروحي من الكون وفلسفته ، تماما مثلما حدث في فنه ،توازن جديد اكثر ارتفاعا وسمواً ... ان المتناقضات تتداخل ، والنزاع الرهيب بـــين الرغبة في الحياة ونقيضها المفجع يفسح المكان لتفاهم حكيم متوافق ... ان الحياة التي تنطفىء ببطء ، والموت الذي تقترب ظلاله ، يمتزجان ـ الموجة في اثر الموجة ـ بصورة جميلة خصبة ، في القيلولة البطولية لسنوات شيخوخته ... والشعور ـ وقـد هدأ في النهاية واستكان ـ يرتاح بمجموعه ، حسب مفهوم سبينوزا ، في توازن خالص بين الرهبة وبين رجاء الساعة العظمى : « ليس حسنا ان نخاف الموت ، وليس حسنا ان نرغب فيه ، بل يجب ان نضع ابرة الميزان عمودية ، فلا تتغلب اي من الكفتين على الاخرى ... تلك هي افضل الشروط لحياة جيدة » .

ان النشاز قد انسجم اخيراً ، والعجوز تولستوي لم يعد يغذي الحقد على الموت، ولم يعد فارغ الصبر تجاهه ... انه لايهرب منه ولا يبغضه ، بل هو يحلم به فقط في تأملات عذبة ـ مثلما يشتغل الفنان سلفا ، بفكره ، في عمل غير مرئي ، لكنه حاضر بالرغم من ذلك منذ الآن .. وذلك هو السبب ، على وجه الدقة ، في ان هذه الساعة العظمى ، المرهوبة جداً ، تهبه النعمة الكاملة ،نعمة موت عظيم مثل حياته ـ موت سوف يكون اعظم اثر من آثاره ...

«١» صاحب «النزول عن الصليب» و«صلب القديس بطرس» . فلمندي المولد «١٥٧٧ - ١٦٤٠»

الفنان

« ليس من لذة حقيقية الا تلك التي تنشأ عن الخلق. ان صنع المرء اقلاماً ، ام احذية ، ام خبزاً ، ام اطفالاً ، يعني كائنات حية ، فليس من لذة حقيقية بريئة من الألم ، من العذاب ، من تأنيب الضمير ومن المذلة دون الخلق ابداً ».

من رسائل تولستوي

لا يبلغ الاثر الفني ارفـــع درجات الكمال الا عندما ننسى منشأه المصطنع فنعود لخال وجوده الحقيقة المجردة العارية ... وما اكثر مايتحقق هـذا الوهم السامي عند تولستوي ، حتى لانجرؤ ابداً ان نفترض ـ لشدة ماتبدو لنا اقاصيصه مزدهرة بألوان الحقيقة الحسية ـ ان رواياته من نسج الخيال وحده ، وان شخصياته من صنع الابتكار ليس غير . ان المرء ليتصور، وهو يقرأه ، انه انما يتطلع الى العالم الواقعي من نافذة مفتوحة المصراعين تطل عليه من علٍ .

وبالتالي ، لو لم يكن هناك إلا فنانون على غرار تولستوي ، لسهل جداً وقوعنا في خطأ الاعتقاد ان الفن شيء يسير للغاية ، وان الحقيقة الفنية امر طبيعي تماماً ، وان وضع مؤلف ادبي يرجع بكل بساطة الى نقل نسخة امينة عن الواقع ، الى نوع من الرسم البسيط الذي لايتطلب عناء فكريا عظيما ، وانه لايلزم في سبيل ذلك ـ حسب تعبير تولستوي نفسه ـ اكثر من « موهبة سلبية ، ألا وهي عدم الكذب » . ذلك ان آثار تولستوي تنتصب امام اعيننا ، بوضوح عظيم ، وبكل ما في المشاهد الطبيعية من طبيعي ساذج ، تنتصب امام اعيننا اذن ، ثرية هدارة ، اشبه بطبيعة جديدة ، لاتقل عن الطبيعة الاخرى صحة وصدقاً ونصيباً من الحقيقة . ان سائر قوى حميا الالهـــام ، حميا الانفعال والولادة ، حميا الرؤى المتألقة والخيال الجريء ، المقدام ، اللامنطقي في اغلب الاحايين ـ هذه العناصر الاساسية لكل مبدع ـ ان سائر هـــذه القوى الخفية تبدو تافهـة ، عديمة الجدوى وغائبة في آثار تولستوي الملحمية ، حتى ليحمل المرء على التفكير انـــه ليس في حضور شيطان سكران ، بل في حضور انسان جلي الخاطر ، رابط الجأش ، يصنع دون جهد ـ بالمشاهدة البسيطة الدقيقة والتصوير المثابر الذي ينسخ الطبيعة به ـ نسخة ثانية عن الواقع الملموس ، ولايفعل شيئا اكثر من ذلك .

ولكن كمال الفنان يخدع هنا الفكر الذي يتمتع به في امتنان وعرفان بالجميل ،

اذ هل اصعب من الحقيقة ، وهل اكثر عناء من الوضوح ؟ ان المخطوطات الاصلية تثبت ان السهولة لم تفسد تولستوي ابداً ، بل هو في الحقيقة اجدر الشغيلة بالاعجاب والتقدير ، ومن اكثرهم صبراً واجتهاداً وعكوفا . وان التصاوير الرائعة التي وضعها عن الكون لأشبه ماتكون بفسيفساء عظيمة الفن قد استهلكت عناء لايقل عظمة عن الفن المتجلي فيها ، فسيفساء صنعت بتراكب احجار صغيرة لاعد لها ولاحصر ، يحمل كل منها في ذاته عنصراً من اللون لامتناهياً ، يعني بكلام آخر انها صنعت باتحاد ملايين المشاهدات الدقيقة حتى الدرجة القصوى والتي لاتفلت منها كبيرة او صغيرة من وقائع الحياة .

ههنا ، وراء وضوح الخطوط ، هذا الوضوح الذي يتحقق في الظاهر دون عناء كبير ، يختفي اصعب عمل ينجزه شغيل عنيد صعب المراس ، ليس هو بالملهم ابداً ، بل بالاحرى سيد للصبر يشتغل في بطء وموضوعية ، مثل الرسامين الالمانيين القدماء ، فيعطي دوما في البدء طلاء اولياً لكل صورة ، ومن ثم يقيس الابعاد في هدوء وتمهل ، ويبني في حذر شديد مختلف الامتدادات والخطوط ، واخيراً يضع السيماء ، الواحدة تلو الاخرى ، قبل ان يعطي في النهاية ـ بتلاعب دقيق للظلال والانعكاسات ـ آثار نور الحياة لخرافته الملحمية .

ان « الحرب والسلم » ، هذه الملحمة الضخمة التي تعد ألفي صفحة ، قد نسخت سبع مرات متتاليات ، اما المسودات والملاحظات التي تتعلق بها فتملأ وحدها صناديق كبيرة عديدة . ان التدقيق والتمحيص قد شملا ، بعناية فائقة ، كل حدث تاريخي مهما تضاءل شأنه ، كل صغيرة مادية مهما تفهت قيمتها ... فتولستوي يعدو على متن جواده ، كي يعطي وصف معركة بورودينو (١) دقة موضوعية ، طوال يومين كاملين حول ميدان المعركة ، وخريطة اركان الحرب في يده ، ويجتاز بالقطار آلاف الفراسخ كي يستقي ، من فيه احد المحاربين الاحياء بعد ، بعض التفاصيل الزهيدة التي لن تفيده الا في سبيل الزينة وحدها ... وهو لاينقب في سائر الكتب ويستكشف مختلف المكاتب فحسب ، بل انه يتوجه بالاسئلة الى عائلات نبيلة ،

« ١ » المعركة التي انتصرت فيها جيوش نابليون على الجيوش الروسية على ابواب موسكو .

ويتناول من القراطيس المحفوظة وثائق مجهولة ، ويطلع على رسائل خاصة ، وكل ذلك كي يحصل - بكل بساطة - على حبة صغيرة من الواقع ، بالاضافة الى ما كدسه منها حتى الآن .. وهكذا تتجمع ، سنة بعد سنة ، الحبيبات الزئبقية لعشرة آلاف ، لمائة الف من الملاحظات الصغيرة جداً ، حتى اللحظة التي تتحد فيها وتختلط ، شيئاً فشيئاً ، ودون حاجة الى بذل اي جهد في سبيل جمعها الى بعضها ، فتخلق بذلك شكلا مدوراً ، نقياً ، كاملا . ومن ثم ، عندما تنتهي تلك المعركة في سبيل الحقيقة ، يبدأ النضال في سبيل الوضوح . ومثلما يفعل بودلير - هذا الشاعر المغني - بكل بيت من ابيات شعره ، يفعل تولستوي بنثره - بتهوس العامل المنزه - فيبرده ويصقله ويصنعه ويطرقه ويشذبه ... ان جملة واحدة لاتنسجم مع المجموع ، نعتا واحداً لايقع في مكانه بصورة تامة ، بين الفي صفحة المؤلف الضخم ، يمكن ان يقلقاه ويشغلا باله حتى الدرجة القصوى ، فيبرق بسرعة ، مذعوراً ، الى الناشر - بعد ان ارسل المخطوط اليه - يطلب اليه توقيف الطبع حتى يستطيع ان يعدل ايضا ايقاع الموضع الذي عرض له ... وهكذا يرمي ذلك النص الاول بعد طبعه في بوتقته الفكرية ويصهره مرة اخرى ، ثم يصبه من جديد ... كلا ! ان يكن هناك ابداً فن لم يكلف عناء واجهاداً فهو لايمكن - بالضبط - ان يكون فن هذا الكاتب ، الاكثر طبيعية في الظاهر بين سائر الكتاب . ان تولستوي يشتغل ، طوال سبع سنوات ، ثماني ساعات ، عشر ساعات في اليوم ، دون راحة على الاطلاق . فهل من عجب اذا انهار نفسانيا - وهو الذي لايوجد انسان اسلم منه اعصابا - بعد كل من رواياته الكبرى ؟ ان المعدة ترفض العمل بغتة ، والحواس تضطرب وتترنح ، وشعوراً من الضيق ، من عدم الاكتفاء ، شبيها الى حد بعيد بكآبة فظة غليظة ، يجتاحه في كل مرة ينهي فيها مؤلفا كبيراً ... ولا بد له عندئذ من اللجوء الى العزلة المطلقة ، بعيداً عن كل حضارة ، مقيم في اكواخ ريفية صغيرة ، كي يستعيد التوازن الاخلاقي بمداواة صارمة بشراب الكوميس (١) .

ان هذه العبقرية الملحمية - شقيقة هوميروس - هذا الحاكي الطبيعي الأمثل ،

«١» شراب خاص يصنعه الفلاحون الروسيون من حليب الفرس بالإضافة الى بعض الخمائر .

الصافي كالمياه المتفجرة من الصخر الاصم ، والبدائي تقريبا على صورة الشعب ومثاله، ايخفي بالضغط تحت دثاره فنانا معذبا ، ناقما حتى الدرجة القصوى، لايعرف الرضى سبيلا الى فؤاده مطلقا (وهل من فنان إلا وهو على هذا الغرار ؟) ... ولكن صعوبة الخلق ـ وهنا يكمن جماله الاسمى ـ تظل خفية غير مرئية في حياة الاثر الكاملة. ان هذا النثر الذي لم نعد نحس وجود الفن فيه ليلوح ، في قلب زماننا الراهن ـ وفيما وراء كل زمان ايضا ـ خالداً ابديا نوعا ما ، لايعرف اصولا ولا سناً مثله مثل الطبيعة نفسها ... انه لايحمل في اي موضوع منه طابع عصر معين ، حتى لو وقعت بعض روايات تولستوي بين يدي القارىء للمرة الاولى دون ان تحمل اسم المؤلف، فلن يجرؤ احد اذن فيشير الى الحقبة ـ بله الى القرن ـ اللذين خلقت فيها تلك الروايات ، لشدة ما تشكل اسلوبا في الحكاية يخرج تماما عن حدود الزمان . ان الخرافات الشعبية عن « الرهبان الثلاثة » و « كم يحتاج الانسان من الارض » ، يمكن ان تكون معاصرة لراعوث وايوب ، قد ابدعها الخيال قبل اختراع الطباعة بألف سنة، في العصور الاولى من معرفة الكتابة ... و « موت ايفان إيليتش » و « بوليكي » و « بائع الاقمشة » تخص القرن العاشر او الثلاثين مثلما تخص القرن التاسع عشر على حد سواء ... ذلك ان روح العصر واهله لاتتجلى في تلك المؤلفات ، كما هي الحال عند ستندال أوروسوأو دستويفسكي مثلا، بل مايتجلى فيهـــا هو بالاحرى الروح البدائية ،روح سائر الازمنة والعصور ،الروح التي لاتخضع لاي تطور، النفخة الارضية، الحساسية البدائية ، عذاب الانسان العميق امام اللانهاية ووحدته الاصلية .. وتماما مثلما يحدث في احضان المكان المطلق،يحدث بالنسبة الى الانسانية في احضان المكان النسبي لفعاليتها الادبية ، فاذا سطوة تولستوي الاجماعية والمنتظمة تمحو الزمان وتبطل مفعوله ..

لم تمس الحاجة تولستوي يوما الى تعلم فنه في الحكاية ، كما انه لم ينكر فنه ذلك ابداً ... فعبقريته الطبيعية لاتعرف نمواً او تدهوراً ، تقدماً او تقهقراً ... ان وصف الطبيعة في «القوزاق » عند الشاب البالغ الرابعة والعشرين من عمره، وذلك الصباح المتألق في « البعث » الذي لايمكن للنسيان ان يتطرق اليه ابداً ـ وقد صوره عندما كان في الستين ، بعد مرور اجيال صاخبة عديدة من البشر ـ كلاهما يتنفسان نضارة

الطبيعة نفسها ، القريبة والمحسوسة من سائر الاعصاب ، يتنفسان ذات حساسية العالم العضوي واللاعضوي المتصف بالمرونة ، والواقع تحت الحس مباشرة .. ليس في فن تولستوي تلمذة ، كما انه خال من نسيان ماسبق علمه. ليس فيه ذروة ، ولا فيه زوال ، بل ان ذات الكمال الموضوعي يثابر فيه ويستمر طوال نصف قرن ونيف ... ومثلما ترزح الصخور هناك امام الله ، مهيبة دائمـــة جامدة لايطرأ عليها اي تبديل كذلك تنتصب مؤلفات تولستوي وطيدة الاركان في قلب الزمان المتقلقل المتبدل .

ولكن ذلك الاحساس المنتظم ، والمجرد بالتالي عن كل ماهو شخصي انسانيا ، هو السبب بالضبط في اننا لانكاد نشعر بالوجود الحي للكاتب في مؤلفاته ... ان تولستوي لايبدو لنا مخترعا الحوادث خيالية ، بل بكل بساطة مقرراً عظيما لواقع مباشر ليس غير .. وفي الحقيقة ، اننا كثيراً مانتردد في وصف تولستوي بالشاعر ، لأن هذه الكلمة المجنحة ، تعني مهما اختلفت اقوال البشر ، نوعا من الكينونة مختلفا ، شكلا من الانساني ساميا ، شيئا مرتبطا بصورة عجيبة وخفية بالخرافة والسحر ؛ تعني الكائن في حالة الاشراق ، تصدر عنه في نشوة الرؤيا كلمات جديرة بالكاهنة بيتيا(١) ، وحقائق لايصعد اليها ولايستطيع البشر العاديون بلوغها ... هذه الكلمة تشير الى العبقرية الطافحة بالحدس العبقرية التي تعري كل مايفوق الوصف ويتجاوزه ، وذلك بفضل موسيقاها الشجية التي تفلت من قبضة الفكر وتتمرد عليه ، بفضل الرمز الذي يشكل روحها وجوهرها . ولكن تولستوي ، على العكس من ذلك ، ليس انساناً « من منطقة عليا » ابداً ... انه متأصل في هذا العالم عميق الجذور في تربته ، لايحلق فوق هذه الارض البتة ... انه مادة كل ماهو ارضي وعنصره ، لايتجاوز في اي مكان المنطقة الضيقة لما يقع تحت الحس ، ما هو محسوس وقابل للحس . ولكن اي كمال عظيم يبلغه في نطاق هـــذا الميدان ! انه لايتجلى بميزات تختلف عن ميزات بقية البشر ، ميزات يستمدها من آلهات الشعر او من آلهات السحر ، بل ان ميزاته عاديـــة تماماً ، ومألوفة لكنها صارت عنده الى قوة عظيمة لامتناهية .. انه يكتفي بامتلاك فكر قد تضاعفت شدته كثيراً ، فهو يرى ويسمع ويشم ويحس بصورة اوسع واوضح وأجلى واكثر

«١» كاهنة ابولون في دلفيس ، كانت تعلن الى البشر ارادة الآلهة في آيات رائعة الجمال ..

وعياً من الانسان الطبيعي ،ويتذكر اكثر منه وابعد،وبصورة اعمق منطقاً وعقلا، ويفكر بصورة اسرع واحذق وادق .. وباختصار فان كل صفة انسانية تتجسد في ذلك الجهاز المنقطع النظير في كماله ودقته - والذي هو عضويته - بشدة تفوق مائة مرة مثيلاتها عند الطبيعة العادية . ولكن تولستوي لايتخطى ابداً (ولذا فقلة هم الذين يجرؤون على تسميته «عبقرياً » بينما الكلمة طبيعية جداً بالنسبة الى دستويفسكي) حدود الطبيعي ، ولايدخل قط العالم الصوفي الكروي النبوئي ، تلك الممالك فوق الارضية حيث نجد احياناً ، من خلال صدع مشقوق اوثغرة مفتوحة ، رسالة من النار تتأجج في « رجل النشوة » ، في الملهم الذي تخترق ابصاره الحجب المختلفة وتنفذ منها .. ابداً لاتبدو فعالية تولستوي الادبية ومن ورائها شيطان يحميها، من ورائها الممتنع على المعرفة ينفخ فيها من انفاسه .. ومن هنا كان وضوحها وادراك الجميع لها ، لأن هذ الخيال المرتبط بالارض لن يستطيع ابداً ان يبتكر شيئاً يتجاوز « الذاكرة الحسية » ، شيئاً يخرج عن نطاق الانسانية المشتركة ... وهذا هو السبب في ان فنه سيظل دوماً موضوعياً ايجابيا ،دقيقا وانسانيا .. انه فن ينيره الضياء اليومي ، انه واقع في حالة الكمون ...

فتولستوي لايصنع عمل الشاعر اذن ، لايتخيل عوالم سحرية ، بل يكتفي « بتقرير » الاشياء الواقعية بكل بساطة . وهكذا يراودنا الشعور ، عندما نستمع اليه يحكي ، باننـــا لانصغي الى فنان يتحدث الينا ، بل الى الاشياء نفسها تتكلم.. ان البشر والحيوانات تخرج من عالمه كما تخرج من مساكنها الخاصة المألوفة ، حسب النظم الطبيعي لحركاتها ، فنحس انه لايوجد هناك اي شـاعر ملتهب من ورائها كي يحثها ، ويدفعها الى الفعل في تسرع وهرولة ، على غرار دستويفسكي مثـــلًا الذي يضرب - محموماً - اشخاصه بسوط مرفوع دوماً ، فينطلقون وهم يصيحون ويزعقون، تشتعل فيهم النيران ، في حلبة اهوائهم .. عندما يحكي تولستوي ، فاننا لانسمع نفسه ... انه يحكي مثلما يتسلق الجبليون مرتفعاً ما ، بتؤدة ، وانتظام ، رويـداً رويداً ، خطوة فخطوة ، دون قفزات ودون عجلة ، ودون تعب ودون ضعف ، فلا تمر ضربات قلبه في صوته ابداً . . وذلك هو السبب في غبطتنا التي لاتقارن عندما

نتأثره ، فنحن لا نحمل بسرعة البرق عنده - كما يحدث لنا مع دستويفسكي - على طول حواف السحر الحادة المتألقة ، ولا نتردى بصورة مباغتة في دوار الهاوية الطنان ، ولا نرتفع ، وكأنما تحملنا اجنحة خفية في اجواء الاحلام الخيالية ... اننا نبقى ، في حضور الفن التولستوي ، نافذي البصيرة دوماً ، وكأننا في حضور العلم نفسه .

انـنا لا نترنح ولا نشك ولا نتعب ، بل نصعد خطوة فخطوة ، تقودنا يده البرونزية ، على طول الصخور الجبلية الكبيرة التي تشكلها ملحماته ، فيمتد النظر درجة درجة رحباً واسعا ، بينما يتسع الافق في الوقت ذاته وينتشر . ان الحوادث لا تجري إلا في بطء شديد ، والابعاد لا تستضيء الا شيئـاً فشيئاً .. ولكن ذلك كله يتم بيقين اساسي ، بدقة الآلات التي تسير الساعة . ومثلما تشرق الشمس في الصباح فترتفع اشعتها رويداً رويداً من اعماق المشهد المترامي امام أعيننا ، كذلك يحكي تولستوي ببساطة طبيعية لا تصنع فيها ، كما كان اولئك الشعراء الملحميون الذين عـاشوا في العصور الاولى من العالم ، رواة الشعر ومغنو المزامير والمؤرخون ، يحكون فيما غبر من الزمان ، أيام كان البشر يتمتعون بميزة الصبر بعد ، والطبيعة لما تنفصل عن المخلوقات ، والانسان لا يتميز عن الحيوانات والنباتات والحجارة باية مرتبة أقامها البشر بكل كبرياء وغرور ، بل على العكس من ذلك تماماً كانت الالوهية نفسها والاجلال نفسه ينطبقان على اصغر الكائنات مثلما ينطبقان على اكبرها .. والحقيقة ان تولستوي يرى الى الاشياء تحت مظهر الشمول ، يعني بصورة تضفي عليها الألوهية ، وبالرغم من انه اقل الناس اغريقية فيما يتعلق بالاخلاق ، فان انطباعاته كفنان هي - بصورة مطلقة - انطباعات پان ، انطباعات حلولي لا دنس فيه .

ليس من فرق بالنسبة اليه بين اختلاجات كلب يحتضر وهو يعوي ويزمجر ، وبين وفاة لواء امتلأ صدره بالاوسمة ، او سقوط شجرة اقتلعتها الريح فهي على وشك الفناء .. ان الجمال والقباحة ، الحيوانية والانسانية ، الطهارة والنجاسة ، ما هو سحر وما هو إنبات ، كل هذا يشاهده بنفس النظرة المشبعة بالفن والطافحة بالروح في وقت واحد .. ولكي نعبر عن فكرة واحدة باسلوبين مختلفين ، فلن نفعل اذن

سوى التلاعب بالالفاظ اذا ارغنا ان نعين ان كان يطبع الانسان او يؤنس الطبيعة. واذا لم تظل اية طبقة من العالم الارضي مغلقة عليه ، بل ان حساسيته لتنزلق من جسد وليد مضرج بالحمرة الى الجلد المتهدل الذي يكسو جسد حصان منهوك القوى قد ارهقه العمل الشديد واعياه ، او من ثوب قطني تلبسه احدى الفلاحات الى بزة الاستعراض التي يرتديها رئيس في الجيش عظيم الكبرياء والمهابة ، تلك الحساسية متآلفة كل الالفة مع كل جسد وكل نفس ، تجد ذاتها مباشرة في ميدان معرفتها اىان حلت ، تقتطف الانطباعات بيقين يفوق التصور ، يقين يخترق كل الخفايا ويبلغ حتى اعمق اعماق دم الكائن الانساني ولحمه .. وكثيراً ماسألت بعض النســاء في رعب وذهول كيف يستطيع هذا الرجل ان يصف احساساتهن الاكثر خفاء وشخصية، وكأنه ينتزع الجلد عنهن ؛ كيف يستطيع ان يعبر عن ذينك الضغط والجذب اللذين يحدثهما في صدر الام الابن المنبثق منه ، او ايضاً ذلك الاحســاس اللذيذ بالرطوبة والنضارة الذي ينتشر كالضباب على الذراعين العــاريتين لصبية تشترك في حفلة راقصة للمرة الاولى .

ولو ان الحيوانات تستطيع الكلام لتعبر عن افكارها ، لسألت بأي حدس عظيم استطاع تولستوي ان يخمن تلك اللذة المعذبة التي يحسها كلب الصيد عندما يشم رائحة دجاجة الحقل المتوحشة ، او ايضاً تلك « الافكار الغرائز » التي تترجم عنها الحركات فقط ، والتي يحسها جواد اصيل في اللحظة التي تعطى فيها اشارة الانطلاق في السباق .. يكفي ان نقرأ حديث الصيد في « آنا كارنينا » حيث نقع على مالايحصى من الملاحظات الحدسية الدقة التي تفوق في قيمتها الوصفية سائر تجارب علماء الحيوان والحشرات من بوفون حتى فابر دون تفريق . ان دقة تولستوي في موهبة الملاحظة التي يتمتع بها لاتميز ابداً بين اشياء الارض ، كما ان محبته لاتعرف معنى التفضيل . ان نابليون ، بالنسبة الى هذه النظرة الممتنعة على الفساد ، ليس اكثر انسانية من ادنى البشر ، وهذا الاخير ليس بدوره اكثر اهمية وعنصريـــة من الكلب الذي يركض خلفه او من الحجر الذي يمسه هذا الكلب بقوائمه . ان كل ما في دائرة هــذا العالم الارضي : الانسان والمادة ، النباتات والحيوانات ، الرجال والنساء ، الشيوخ

والاطفال ، الرؤساء والفلاحين ، جميعهم يسجلون في اعضائه اهتزازاتهم الحواسية بنفس الضياء المتبلور المنتظم كي يخرجوا منها بصورة لاتقل انتظاماً ولا ترتيباً . وان هذا ليضفي على فنه شيئاً من المساواة بالطبيعة التي لاتعرف الفساد ، كما يضفي على ملاحمه نظم البحر ، هذا النظم الرتيب لكن العظيم مع ذلك ، الذي يبعث في اذهاننا على الدوام اسم هوميروس .

وان من يملك مثل هذه الرؤيا الواسعة والكاملة لفي غنى عن الاختراع ، من يرى الى الاشياء بمثل هذه الشاعرية لفي غنى عن تخيل اي شيء كان ، هذا التخيل الذي يحتاج الشاعر اليه ولا يستطيع عنه استغناء .. ان تولستوي لم يفعل ، طوال كل حياته ، الا المشاهدة بحواسه وإنضاج مارأته عيناه ... انه لايعرف الحلم الذي يتجاوز الحقيقة ، وفنه لايأتي من العلاء ، بل هو موجه نحو الباطن ، كما قال هو نفسه يوماً ما بصورة رائعة ، هذا الفن هو بناء في العمق وليس هندسة مرفوعة فوق المرتفعات .. انه لايحتاج في اي مكان ، وهو الفنان الموضوعي بصورة مطلقة ، على العكس من دستويفسكي الملهم ، الى اجتياز عتبة الواقع كي يبلغ فوق الطبيعي ويرتمي في احضانه ، فهو لايستخرج حوادثه من فراغ خيالي واقع فوق العالم ، بل يكتفي ان يحفر في ارض مشتركة ، في البشر العاديين الذين يشكلون بالنسبة اليه مناجم غنية طافحة بالثراء .. لابل اكثر من ذلك ايضا ، فتولستوي يستطيع - في الانسانية - بأن يستغني عن تحويل اهتمامه نحو كائنات غير طبيعية ومرضية ، بله اذا اردنا ان نذهب ابعد من ذلك ، فليس به حاجة ، مثل شكسبير ودستويفسكي ، لكي يخلق - بقوة سحرية عجيبة - نماذج جديدة متوسطة بين الله والحيوان ، كي يخلق اشباها لآرييل (١) أو ألجوسكا أو كاليبان (٢) أو كارامازوف (٣) ... ان اكثر الفلاحين تفاهة ليرتدي اهمية خفية في هذا العمق الذي لايبلغه الا تولستوي وحده ، اذ

« ١ » ملك ساقط

« ٢ » شخصية خيالية ادخلها شكسبير في مسرحيته « العاصفة » وهو تجسيد للانسان الوحشي المجبر على طاعة قوة تعلو عليه ، والمتمرد عليها ابداً .

« ٣ » ابطال قصة دستويفسكي الشهيرة : « الاخوة كارامازوف »

يكفيه - كي ينفذ الى اروقة ممالكه تحت الارضية التي يكتشفها في نفس ريفي بسيط، او جندي تافه، او سكير، او كلب، او حصان، او اي شيء كان، اي شيء معدوم الشخصية، ضائع في احضان العادي واليومي - يكفيه في سبيل ذلك أية مواد بشرية يعثر عليها في طريقه، وان تكن بعيدة كل البعد عن النفوس الثمينة والغالية، الحاذقة واللبيبة .. ولكنه يفرض على هذه الوجوه المتوسطة تماما ميزة اخلاقية فريدة من نوعها، غير مستهدف من ذلك تجميلها وتزويقها، بل مضاعفتها عمقا فقط ...

وانه لايعرف تكنيكا آخر سوى هذه الدقة في الرؤية، لايلجأ الا الى الآلة العارية، آلة الحقيقة الحادة القاطعة. ولكنه يغرس هذا المثقب القاسي بقوة عنيفة جداً في كل حادثة، في كل شيء، حتى اننا نكتشف، مدهوشين، في قلب هـذا العالم عالما اكثر عمقا، طبقة نفسانية لم يرتدها بعداي عامل منجم من قبل ... انها الحقائق - لا الاحلام - التي تهز قوته المرنة، فيعوزه -- مثل المثال - التراب والحجر والطين كي يخلق شكلا ماجسما .. ولا يكفيه ابداً - كالموسيقي - الاهتزاز الهوائي وحـده : فلا عجب اذن اذا لم يكتب تولستوي شعراً قط، فكل ماهو شعري واقع في القطب الآخر من هذا الواقعي المغرق في واقعيته. ان فنه لايتكلم الا لغة واحدة، لغة الواقع - وتلك هي حدوده - ولكنه يتكلمها بدقة تفوق كل ماتوصل اليه الشعراء حتى الآن - وتلك هي عظمته .. ان الجمـــال والحقيقة ليسا، بالنسبة الى تولستوي، الا وحدة لاتنفصل او تتجزأ .

وهكذا فان تولستوي - ولنكرر القول مرة اخرى بصيغة تحتفر في الاذهان احتفاراً فلا تمحي بعد ذلك ابداً - هو اكثر الفنانين بصيرة، ولكنه ليس نبيا قط، هو اكمل سائر « مقرري الواقع » على الاطلاق. ولكنه ليس شاعراً مبدعا البتة. انه لايملك، كي يبني عالمه ذا الابعاد والوفرة الفريدة في انواعها، الا آلات حكمية وارضية، الحواس الخمس والحســـاسية الموضوعية، هذه الآلات الحية، الدقيقة، السريعة والحاذقة بشكل مدهش، لكن الخاصة بالرغم من كل شيء بميكانيك الجسد وحده . ان تولستوي لايبلغ احساساته الاكثر سرعة بواسطة الاعصـــاب مثل دستويفسكي أو الرؤى مثـل هلدرلن وشللي، بل بفضل فعل حواسه المتوافق ،

هذا الفعل الذي يشبه أشعاعه اشعاع النور . ان هذه الحواس ، مثلها مثل النحل، تهجر خلاياها باستمرار كي تحمل اليه غبار طلع الملاحظة ذا الالوان الجديدة ابداً ، غبار طلع يعطي فيما بعد - في اختمار موضوعية لاهبة - العسل السائل والمذهب الأثر الفني الخالد .

ان حواسه الرائعة ، حواس الامتثال ، والبصيرة ، والدقة السمعية ، حواسه القوية الاعصاب ، لكن الدقيقة مع ذلك ، حواسه الناشطة والحاسبة التي تتزلق في اكثر ثنايا الكائن الانساني ظلمة على طريقة القطط ، حواسه مفرطة الاثارة والمتمتعة بقوة حيوانية تقريبا ، حواسه هذه تستطيع وحدها ان تستخرج من كل حادثة من حوادث هذا العالم تلك الكتلة من المادة الحساسة منقطعة النظير التي تحيلها فيما بعد الكيمياء الخفية لهذا الفنان غير المجنح الى مادة نفسانية ، بمثل البطء الذي يقطر الكيميائي به - في صبر عظيم - خلاصات النباتات والازهار .. ان البساطة فوق الطبيعية لأقاصيص تولستوي تنتج دوماً عن وفرة فريدة لاتحصر ولا تحسب ، وفرة مؤلفة من عشرات الوف الملاحظات الخاصة . ذلك ان تولستوي ، كي يعرف افكار احد الناس وعواطفه ، لابد له قبلا من دراسة مظهره الحكمي في كل من خفاياه ، وكل من تفاصيله ، وكل من ثناياه ، وكل من تحولاته ، فهو كالطبيب يبدأ بفحص عام اولاً ، باحصاء لسائر خصائص الافراد الجسدية ، قبل ان يطبق عملية التقطير الملحمية على عالم رواياته .

كتب في ذات يوم الى صديق له يقول : « انك لاتستطيع ان تتخيل كم يصعب علي هذا العمل التحضيري ، هذه الضرورة التي تجبرني قبلا على حرث الحقل الذي أنوي زرعه . انه لمن العسير بصورة فظيعة ان يفكر المرء ويتمثل كل مايمكن حدوثه لسائر هذه الشخصيات التي هي بعد في طور الصيرورة ، شخصيات المؤلف الواسع جداً الذي يداعب الفكر بعد . انه لمن العسير بصورة فظيعة ان يتصور المرء امكانيات مالا يحصى من الاحداث ، كي يختار منها فيما بعد جزءاً واحداً من مليون جزء »... ولما كانت هذه العملية ، الميكانيكية اكثر منها إلهاماً ووحيــاً ، القائمة في ارجاع العديد من التفاصيل وتكثيفها في وحدة واحدة ، المتكررة بالنسبة الى كل من

الشخصيات الكثيرة الفائقة العدد ، فان المرء يستطيع ان يرى بكل وضوح كم من حبيبات الغبار يجب سحقها ومزجها من جديد ، في هذا الطـــاحون من الصبر الذي لا ينفد ، قبل الحصول على الشكل المطلوب . ان تولستوي لمضطر ، كي يؤلف رواية ، الى الاختيار بين الف حادثة والف صورة ، ثم عليه بعد ذلك ان يركب ، حكمياً في البدء ، كل صورة خاصة بما لا يحصى من الملاحظات الصغيرة ، قبل ان يصهرها في بوتقة نفسانية دقيقة ، لان ملامح كل محيا خاص لا تتشكل عنده الا بتراكم علامات جسدية لا عد لها ولا حصر .. ان كل كائن بشري هو نتيجة آلاف من التفـاصيل ، وكل من هذه التفاصيل نتيجة ملاحظة حقائق عديـدة دقيقة اخرى ، لأن تولستوي يسبر غور كل عرض يكشف عن شخصية اشخاصه بدقة العدسة المكبرة ، الباردة والقاسية معاً .. انه يرسم مثلا ، على غرار هولبن (١) ، فم احد الابطال سمة فسمة : ان الشفة العليا تتميز عن الشفة السفلى بـــكل خصائصها الفردية ، وكل ارتعاش للصوار يتظاهر في بعض الانفعالات الاخلاقية يسجل بأمانة ودقة ، وطبيعة الابتسامة والثنية التي يرسمها الغضب تقاس بكل اخلاص ومرونة . وعندئذ فقط يصور لون هذه الشفة بكل بطء ، ويجس قوامها القاسي او الغليظ باصبع غير مرئية ، ويحدد ظل الشارب المرتمي من فوقها بكل معرفة واتقان . ولكن هذا كله لا يعطي الا الشكل الخام فقط ، المظهر الحيواني للشفة وحده ، وعندئذ يضاف اليه وظيفتها الخاصة ونغمة الكلام والتعبير النموذجي المميز للصوت الذي يتلقى الان لحنا فرديا متلائما مع فردية ذلك الفم الموصوف .

وما صنع هكذا لشفة واحدة يتكرر في الاطلس التشريحي لتحليله ، بالنسبة الى الانف والوجنة والذقن والشعر بدقة وتدقيق يكادان ان يكونا مقلقين حقا . ان كل صغيرة تندمج برفيقتها بدقة مطلقة ، ومن ثم تتقابل سائر هذه الملاحظات السمعية والبصرية والحركية في مخبر الفنان الخفي مرة اخرى وتتكيف مع بعضها البعض ، لان تعبير الاصابع يجب ان يتوافق بدقـــة رياضية مع تعبير النظرة ،

---

(١) فنان الماني قضى معظم حياته في انكلترا . اشتهر بتصوير الاشخاص وبلوحة « رقص الموتى » خاصة « ١٤٩٧ – ١٥٤٣ » .

والنظرة يجب ان تكون بدورها في توافق مع الضحك ، وهذا الضحك يجب ان يكون بدوره في انسجام مع طريقة خاصة في الحديث ، حتى تتضح بكل ذلك وحدة الفرد بصورة اجماعية في كل من اشكاله المعبرة عنه . ومن ثم يستخرج الفنان المنظم الجذر الخيـــالي ، ان صح التعبير لهـــذا المجموع من الملاحظـــات التي يمرر كثرتها المدهشة في غربال الانتقاء بحيث يتبدد كل ماهو ثانوي الاهمية فلا يبقى الا مايميز الجوهر ويسمه . وهكذا يقابل تبذير الملاحظة اقتصـــاد عظيم في استعمال الصفات ، ولكن القليل الذي تم الاحتفاظ به يتكرر وكأنه انطباع عميق الغور خلال الكتاب بكامله ، حتى تجمع الى فكرة كل من الاشخاص رؤيا مباشرة عن كل مايميزه ويعطيه شخصيته وفرديته .

ياله من بناء جبار ! أية معرفة عميقة تختفي خلف مايبدو في وصفه نتيجة الصدفة المحضة ، لانتيجة الارادة الواعية . والحقيقة اننا نحتاج الى كتاب كامل كي نحلل آلية هذه العملية في دقائقها ، وكي نبرهن ان الوحدة البينة لأشخاص تولستوي التي تبدو لنا للوهلة الاولى مجردة عن الفن بعيدة عنه ، تنتج بالضبط عن تكثيف عدد من الملاحظات يثير الدهشة والذهول حقـاً .

ذلك ان الانسان الذي ركبته الرؤيا لايبدأ بالحديث والتنفس والحياة الابعد ان يتم تعيين كل مايعود عنـده الى الحواس وتحديده بدقة تكاد ان تكون هندسية ، بعد استكمال المظهر الحكمي لشخص الرواية . ان النفس ، البسيطة ـ هذه الفراشة الالهية المأخوذة في شبكة الملاحظات الدقيقة ذات الالف عروة ـ لحبيسة في شبكة الجلد والعضلات والاعصاب . ولكن الامر على العكس من ذلك تماماً عند دستويفسكي ـ هذا النبي الذي يؤلف النقيض العبقري لتولستوي ـ حيث يبدأ تحديد فردية البطل بالنفس ، لان النفس عنده هي العنصر البدئي ... انها تصنع قدرها بقوتها الخاصة ، والجسد ان هو الانوع من الثياب البرقية ، الرخوة والخفيفة ، حول نواتهـــا اللامعة المتأججة . لابل انها تستطيع ، في ساعات تجلي الروح العظمى ، ان تلهب ذلك الجسد وتسمو به في الاجواء العالية وتجبره على الانطلاق نحو اراضي العاطفة ، نحو الاشراق الخالص . ولكن النفس عند تولستوي ـ هذا المراقب النافذ البصر والفنان العظيم الدقة ـ لاتستطيع ، على العكس من ذلك ، ان تطير قط ، بل لاتستطيع ابداً ان

تتنفس بكل حرية .. ان الجسد ليظل على الدوام معلقاً ، مرهقاً قاسياً ،حول النفس يجرها باستمرار نحو الاسفل بقانون الجاذبية الوحشي . وذلك هو السبب في ان مخلوقاته المجنحة نفسها لاتستطيع البتة ان ترتفع نحو الله ، ان تنتزع نفسها مرة من الارض وتتحرر بصورة تامة من هذاالعالم ... انها تصعد بصعوبة،خطوة فخطوة، كمن يحمل ثقلا وازناً ، وظهورها محنية فيما يبدو تحت ثقل اجسادها الخاصة، تصعد بصعوبة درجة فدرجة نحو التقديس والتطهير ،وهي تهوي ابداً إعياءً تحت نير طبيعتها الارضية . ابداً لن تستطيع بسيشة ـ فراشة الله هذه ـ ان تعود باستقامة نحو المملكة الافلاطونية ... انها لاتستطيع الا التحول الى شرنقة ،فتبدل هكذا طبيعتها، وهي تناضل كي تطهر نفسها وتخفف العبء الذي يرهق كاهلها ... ابداً لن تقدر ان تتخلص من جاذبية الجسد الارضي الذي تخضع له سائر تجسداتها البشرية ، فكأنها تخضع لخطيئة موروثة ارتكبتها قبل خليقة العالم . ومما لاريب فيه ان جزءاً من ظلمة تولستوي المفجعة ينشأ بالضبط عن هذه الاولية ، عن هذه السيطرة التي يفرضها الجسدي على الروحاني ، لان هذا الفنان المجرد عن كل انطلاق نحو الجلد ، وعن كل فرح مشوب بالسخرية، يذكرنا دوماً ـ بصورة مؤلمة ـ اننا نعيش على الارض، وان الموت يطوقنا من كل حدب وصوب ، واننا لانستطيع الفرار او الافلات من ثقل طبيعتنا الجسدية التي سمرنا اليها تسميراً ... يذكرنا اخيراً اننا محاطون في صميم الحياة بالعدم المرهق ،واننا عبيد للواقع محرومون من كل منفذ الى الخلاص .ولقد كتب تورجنيف الى تولستوي مرة يقول : على غرار نبي ينفذ الى اعماق الضمائر : « اني ارجو لك شيئاً اكثر من حرية الروح » . والحقيقة ان هذا هو بالضبط مايرجو كل منا ان يجده في اشخاص تولستوي ، شيئاً اكثر من التحليق الروحي ، شيئاً اكثر من القوة الصعودية الاخلاقية ، موهبة الافلات من العالم الوضعي والجسدي هذا الافلات الذي يمكن من الانطلاق نحو الغبطة ، او نحو الفرح ،اونحو عدم الاكتراث ايضاً ،اوعلى الاقل ،موهبة الحلم بتلك العوالم الاكثر طهراً وصفاء .

هذا الفن يمكن باختصار ان يوصف بالخريفي .. ان كلاً من استداراته ترتسم واضحة حادة ، مثل شفرة الموسى ، على افق السهب الروسي المجرد عن كل هضبة او مرتفع ، بينما الرائحة المريرة المتصاعدة من الاشياء الذابلة والعابرة تسلط علينا من

الغابات الشاحبة الصبغة . ليست هناك سحابة واحدة تلقي ابتسامتها الحالمة فوق هذا المشهد، ونحن لانرى الشمس ابداً ،بل نكاد ألانشك في وجودها ايضاً . ولذا فان هذا الوضوح البارد الضياءالذي يتميز به تولستوي لايشع في القلب اية حرارة او دفء ، بل ان ذلك الضياء المتجمديحدثنتيجة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي يحدثها الربيع ،والتي يرافقها في النفوس رجاء لاهب بازدهار قريب مقبلللطبيعة والقلوب معاً . ان المرء ليحس دوماً في مشاهدتولستوي شعوراً بالخريف ...وعن قريب سوف يأتي الشتاء ،عن قريب سوف يستولي الموت على الطبيعة، عن قريب سوف تكف سائر الكائنات البشرية، مثل ذلك الانساني الابدي الكامن فينا، عن الحياة ... إنه عالم لاأوهام فيه ولا احلام ولا ضلالات،عالم فارغ بصورة رهيبة، بله عالم مجرد عن الله (ان تولستوي لن يدخله في كونه الا فيما بعد.بداعي الحياة مثلما ادخله كانت بداعي الدولة) ،عالم لايعرف الانور حقيقته القاسية التي لاترحم، ولا يعرف الا ضياءه الخاص ، وهو بدوره عديم الرحمة ايضاً .

لعل الجو الاخلاقي عند دستويفسكي يبدو للوهلة الاولى بصورة اشد اسى، وألماً ، فيبدو لنا اقتم واشد سواداً من هذا الضياء الذي يشمل كل شيء عند تولستوي ... ولكن بروقاً من الاشراق والنشوة تمزق احيانا ، عند دستويفسكي الليل الحالك ،فترتفع القلوب، الى لحظاتقصيرةعلى الافق ، في سماء رائعة من الرؤى البديعة . ولكن فن تولستوي ، على العكس منذلك ، لايعرف نشوة اوعزاء ، فهو ابداً ذوخطورةمقدسة، شاف كالمياه ، قليل الاثارة مثلها تماماً.واننا لنستطيع بفضل شفوفه وصفائه ان نشاهد قعره ، ولكن مانراهلايشرب النفس ابداً بأي اشراق او تهلل كاملين . ان من كانعلى غرارتولستوي عاجزاً عنالتحليق فياجواء الاحلام والارتفاع فوق الحاضر على اجنحة الوهم والخيال ، انمن يجهل الاشراق الذي يبعثه في النفس جمال التحرر من قيود الارض (ان هــذا الجمال يبدو له تافها عدم القيمة الى جانب الحقيقة)، لايستطيع الا ان يشعرنا بصورة عظيمة رائعة بتطويق الطبيعة لنــا وخضوعنا لجسدنا الخاص ،الحي والدافىء .. ان يشعرنا ـ باختصار ـ بالمصير الارضي تماما الذي هو مصيرنا ... ولكنه لن يستطيع قط ان يشعرنا بتلك الحرية الــتي تفلت النفس بواسطتها من ذات دياجيرها الدامسة

الخالكة .. ان فن تولستوي يبعث فينا الرزانة، ويميل بنا نحو التفكير والتأمل - مثله مثل العلم تماما - بنوره الحجري وموضوعيته الثاقبـــة، ولكنه لايعطي السعادة ابداً .

كيف كان حكمه اذن - هو انفذ الافكار بصيرة على الاطلاق - على هذه الميزة البريئة من السحر والجمال التي تسم عمل عينيه ،هذا الفن الخالي من بريق الحلم المذهب الانيس ،المجرد عن سائر انطلاقات الفرح المحررة، البعيد عن سحر الموسيقي وفتنتها ؟ انه لم يحبه ابداً في صميم قلبه، لان هذا الفن لم يعرف ان يحمل اليه او الى الآخرين معنى السعادة وتأكيد الحياة .. والحقيقة ان الوجود بأسره يتصرف بصورة يائسة رهيبة امام هـــذه الحدقة التي لاتعرف معنى الاشفاق ! ما النفس الا آلية جسدية صغيرة ترتجف اوصالها وسط سكون الموت المسيطر في الفراغ الذي يحيط بها ،اما التاريخ فتيه مضطرب لاغاية له من الحوادث التي تجرى اتفاقا وعرضاً، بينما الانسان الجسدي هيكل متجول لايرتدي غلاف الحياة الدافيء الا ابرهـــة وجيزة من الزمن فقط، وسائر مظاهر الحياة التي لاتفسير لها ولا ترتيب عبث هباء مثل الماء الذي يسيل او اوراق الشجر التي تذبل . ابداً (حتى ولا زمن تلك البرهة الوجيزة الكافية كي يتمالك المرء انفاسه !)لايمر قليل من الموسيقى فوق هذا الجريان الكئيب للحوادث اليومية ، او ينبثق انطلاق ضئيل يسعى لى الخروج من هذه العدميـــة المرهقة ،او تبرق ابتسامة يبعثها شيءجميل يتألق بسرعة خاطفة في هذه الآلية الغريبة، بل انت لاتجد دوماً الا الوصف الذي لايرحم ، الموضوعي بصورة شديدة القسوة، الذي يصور الدياجير الخانقة فقط ، ولا تنعقط لاعلى تحايل هذا اللب الذي لامعنى له ،ولا تلقى على الدوام الا ذلك الفم المرير ،الجامد، المغلق،وتينك العينين البصيرتين في قسوة وتأمل ،تينك العينين اللتين ترفضان ان تخدعا باي وهم مغر يمكن أن يحمل المؤاساة اليها . هل يصعب علينا كثيراً بعد ذلك فهم احساس تولستوي المفاجيء - بعد ثلاثين عاماً من تصوير مثل تلك اللوحات القاتمة - بالرغبة الجامحة العنيفة التي تحثه على عدم الاكتفاء باطلاع الانسانية وافهامها بصورة وحشية وباعثة على اليأس والقنوط أن مصيرها الارضي معدوم الغاية ؟ هل يصعب علينا كثيراً فهم طموحه الى توجيه جديد لكينونته ، توجيه ينقذ البشر من هذا الكابوس القاتل ، ويجعل

حياتهم اكثر سهولة ويسراً ، طموحه الى فن « يوقظ في الناس عواطف ارفع وافضل » ؟هل يصعب علينا كثيراً فهم ارادته الجديدة في ان يمسي، هو ايضاً، ولو مرة واحدة ، قيثارة الرجاء والامل الفضية ، هذه القيثارة التي تكفي ابسط الاهتزازات كي تجعلها تدوي في تقوى وخشوع في صدر الانسانية ؟ هل يصعب علينا كثيراً فهم حنينه الى فن محرر ، فن يخلصنا من الاضطهاد الكئيب الذي ترزحنا كل الصلات الارضية تحت نيره الثقيل ؟

انما عبث ذلك كله ! ان عيني تولستوي، هاتين العينين المصنوعتين من الضياء القاسي، البصيرتين ابداً واليقظتين دوماً حتى الدرجة القصوى ، لاتستطيعان ان تشاهدا الحياة إلا كما هي ، يعني رازحة تحت ظل الموت ، قاتمة مظلمة عديمة الغاية ... ابداً لن يصدر عن هذا الفن نفسه ، الذي لايريد ان يخدع ، اي عزاء حقيقي للنفوس . ولعل هذا هو السبب في ولادة تلك الرغبة الجديدة عند تولستوي الذي يشيخ ، مادام عاجزاً عن رؤية الحياة وتمثيلها بصورة لاتكون مفجعة ومؤلمة « الرغبة في **تبديل الحياة نفسها** ، في جعل البشر افضل مما هم عليه » في **منحهم العزاء بواسطة مثل اعلى اخلاقي** ، في رفع سماء النفس فوق مادتهم الجسدية المظلمة ، والخاضعة لقوانين الميكانيك. والحقيقة ان تولستوي الفنان لايكتفي بعد الآن ، في المرحلة الثانية من حياته، بتمثيل الحياة بصورة بسيطة ، بل يفتش - واعياً - **عن معنى ، عن رسالة اخلاقية لفنه** ، وذلك بوضع هذا الفن في خدمة تبشير النفس اخلاقياً والسمو بها عالياً. وهكذا فان رواياته وقصصه تريد من الآن فصاعداً ، لا ان تعطي صورة العالم كما هو فحسب، بل ان تخلق عالماً جديداً ، وذلك بفصلها ، في وضوح وبصورة رمزية ، اشخاص الخير - هؤلاء السابقين الذين يمهدون لانسانية جديدة وضرورية - عن الاشخاص غير الجديرين او المستحقين ، الذين لم يعوا بعد ماهي الحقيقة ، والغاية من ذلك احداث فعل « تثقيفي » يؤثر في الناس . وفي ذلك الزمن بدأ تولستوي مقولة جديدة من الآثار الفنية التي لاترضى ابداً بأن تكون مسلية ورفيعة الجمال ، بل تريد ان تصبح « معدية »، يعني ان تعطي بالأمثلة انذاراً الى القارىء الذي يسير في طريق الشر ، وتوطده في طريق الخير بالامثلة التي تقدمها اليه . ان تولستوي هذا لم يعد شاعر الحياة

فحسب ، بل انه ليرتفع الى مرتبة ديان هذه الحياة ايضاً .

ويطل علينا هذا الاتجاه العقائدي والنفعي ، اول مايطل ، في « أنا كارنينا ». بلى، فمنذ الآن ، في هذا المؤلف - ولكن بصورة غير واعية بعد وقليلة الوضوح نوعاً ما - ينفصل الاشخاص المناقبيون والاشخاص غير المناقبيين الى مقولتين متميزتين بفعل القضاء نفسه . ان فرونسكي وأنا ، هذين الكائنين الشهوانيين وغير المؤمنين ، الانانيين في هواهما ، « ينالان عقابهما » كاملا ، فيلقي بهما في مطهر شكوك النفس وقلقها ؛ أما كيتي وليفين ، فعلى العكس من ذلك يرفعان نحو سماء الغبطة والحبور . ان هذا المحلل الدقيق الذي ظل عصياً على الفساد طوال زمن مديد ، يسعى للمرة الاولى ان يتحيز مع مخلوقاته الخاصة او ضدها لانه قد وجد الحاحاً جديداً ، الحاحاً أخلاقياً يدفعه الى ذلك ويجبره عليه . وان ذلك الميل الى الاصرار - على غرار المربين - على مبادىء ايمانه الاساسية ، والى زرع كتاباته ، ان صح التعبير ، بنقـــاط التعجب والاقواس - ان هذه النية العقائدية والتي لاتعدو كونها انحرافاً للفن ، لتتجلى عنده بصورة تزداد تشدداً وتزمتاً يوماً بعد يوم . واخيراً فان كساء ادبياً رقيقاً ، في « السوناتا الى كروتزر » أو « البعث » يغطي عرى لاهوت اخلاقي خالص ، بينما الخرافات تخدم على خير وجه اغراض المبشر . وهكذا يصبح الفن شيئاً فشيئاً بالنسبة الى تولستوي ، ليس غاية خاصة ، هدفاً قائماً بذاته ، بل هو عاجز بعد الآن ان يحب «الكذب الجميل » الا اذا كان يخدم قضية « الحقيقة » ، لا كي يساعد - مثله قبلا - على التعبير عن الواقع ، واقع الفكر والحواس ، وانما كي يظهر حقيقة هي ، بالنسبة اليه ، اعلى وارفع ، الحقيقة الروحية ، الحقيقة الدينية التي كشفت له عنها ازمته العنيفة . ومن الآن فصاعداً سيعطي تولستوي اسم الكتب « الجيدة » ، ليس لتلك الكتب الكاملة في اعتبارها آثاراً فنية ، تلك التي تعبر عن الافكار العظيمة وعن عبقريـــة الانسانية ، بل لتلك التي تعضد « الخير » فقط (مهما تكن قيمتها الفنية) ، تلك التي تساعد الانســـان على الصيرورة اكثر صبراً ووداعة مسيحية ، واجتماعية ، ومحبة ، وكرماً ، بحيث ان اويرباخ (١) الطيب التافه يبدو له اهم من شكسبير ، هذه « الشجرة الضارة » ، لان مقياس القيم عند تولستوي - قد اخذ ينزلق اكثر فأكثر

(١) روائي الماني مغمور (١٨٢ - ١٨٨٢)

من بين يدي الفنان كي ينتقل الى يدي العقـــائدي[1] المبشر بالاخلاق ... ان مصور الانسانية ، ذلك الذي لايقارن ولا يطال اليه ، يمحي بوعي واحترام ويتلاشى امام مصلح الانسانية ، امام الاخلاقي الذي ليس الفن بالنسبة اليه إلا آلة تخدم في بنـاء شعور ديني جديد ، لامثل اعلى قائم بذاته هدفه ان يحقق على الارض رسالة مقدسة .

ولكن الفن ، المتشدد والغيور مثل كل مـــاهو إلهي ، ينتقم من ذلك الذي ينكره ، فما اسرع ماينسحب حيث يراد اخضاعه واستعباده لقوة يريدها إلا دعاءان تكون عليا ، ويولي الادبار حتى من وجه المعلم الاعظم .. وهكذا ، فحيث يتنازل تولستوي عن حياده وعدم تحيزه كي يصبح عقائدياً ، فهناك بالضبط تضعف حساسية صوره البدائية وتشحب مباشرة . ان ضوءاً رماديا بارداً ، ضوء العقل ، يلقي في كل مكان ستاراً من الضباب الذي يحجب الرؤية ، فاذا العابر يتعثر ويسقط في وسط الثرثرات المنطقية الفارغة ، واذا هو يتحسس طريقه في صعوبة كي يجد له منفذاً يتسلل منه طلباً للخلاص .

وبالرغم من ان تولستوي سينعت فيما بعد ، بكل احتقار ، وبفعل هوس اخلاقي ليس غير ، « ذكريات الطفولة » و « الحرب والسلم » - وهما اروع ما كتب عـــلى الاطلاق - بـ « الكتب السخيفة التافهة الرديئة » لانهما لايرضيان الا معطيات علم الجمال فقط ، يعني انهما يبعثان في النفس « متعة دنيئة الطبيعة » (ماذا يقول أبولون عن مثل هذا التقدير ؟) ، فان هذين المؤلفين يظلان في الحقيقة يتبوءان قمة انتاجه ، بينما تظهر كتبه ذات المنحى الاخلاقي اقل مؤلفاته كالا على الاطلاق .. وفي الواقع ان تولستوي ، بمقدار مايستسلم الى « تعسفه الاخلاقي » ، فـان الشقة تتسع مابينه وبين عنصر عبقريته الاساسي ، الحقيقة الحسية ، فيروح يضرب على وجهه في تيه الجدلية ، بينما تتناقص قدرته الفنية في الوقت ذاته ... انه مثل أنته (١) ، يتناول كل قواه من الارض التي يتصل بها ، وهو يظل عبقرياً ، حتى في شيخوخته الاخيرة ، حين يرى الى العالم الحسي بعينيه الرائعتين الماسيتي الحدة ، بينما تتضـــاءل عظمته بصورة

---

(١) عملاق ، ابن نبتون والارض ، خنقه هرقل بين ذراعيه ولكنه لاحظ انه يجدد قواه كلما لامس الارض . فرفعه عن سطحها بيديه طويلا حتى فارقته الحياة .

مخوفة عندما يروح يتخسس طريقه في السحب ، في ماوراء الطبيعة ، فـلا يمكن للقلب الا ان يتأثر عندما يرى الى العناد المستميت الذي يسعى به مثل هذا الفنان الى الارتفاع والتحليق في اجواء الروحي ، في حين صنعه القدر كي يمشي في ثقل على ارضنا القاسية فقط ، كي يحرثها ويزرعها ، كي يعرفها ويصفها كما لم يفعل اي نكر آخر في عصرنـا .

نزاع مفجع ، يتكرر ابداً في كل الآثار وسائر الازمان .. ان مايجب ان يعطي الأثر الفني سلطة اعظم ، القناعة والرغبة في الاقناع ، يؤذي الفنان في اغلب الأحايين ويسيء اليه . ان الفن الحقيقي اناني ، لا يعرف شيئاً خارجاً عنه وعن كماله واتقانه ، والفنان الخالص يجب ألا يفكر إلا في عمله وحده ، وليس في الانسانية التي يوجهه اليها . وهذا هو السبب في ان تولستوي ، هو ايضاً ، يبدو اعظم مايكون ـ باعتباره فناناً ـ حيث يصف في عدم اكتراث ودون ادنى إشفاق ، بعين موضوعية لا يتطرق الفساد اليها ، عالم الحواس دون ان يزعجه او ان يضيعه أي اشفـاق أو عاطفة . ومنذ اللحظة التي يصبح مشفقاً فيها ، فيريد ان يمد يد المعونة ، وان يحسن الأمور ، وان يوجه بمؤلفاته ويثقف ، فان فنه يفقد من قوته الساحرة ، بينما يصبح هو نفسه ـ بمصيره ـ وجهاً يفوق في تأثيره سائر الوجوه التي ابدعها .

تولستوي كما يصف نفسه

« أن نعرف حياتنا ، ذلك يعني معرفتنا بأنفسنا » .

الى روسانوف

١٩٠٣

النظرة القاسية ، المسلطة على العالم دون رحمة ، لاتقل قسوة منعدمة الاشفاق بالنسبة الى صاحبها ايضاً . ان طبيعة تولستوي لاتقبل شيئاً يعوزه الوضوح ، لاتقبل نقاطاً غائمة قاتمة ، لا في داخل العالم الأرضي ولا في خارجه . وهكذا فان ذلك الذي اعتاد ، كفنان ، على ملاحظة استدارات الاشياء الأكثر نعومة ولطفاً بدقة تامة ، ان في الخط الناحل الذي ترسمه الشجرة عن بعد ، أو في الحركة المختلجة التي تنتاب كلباً اعتراه الخوف الشديد ، لن يستطيع ابداً ان يطيق في نفسه اضطراباً فظاً أو نقص الوضوح وانعدامه ؛ فهو لذلك يطبق على نفسه ، بصورة مستمرة لاتقاوم ، ومنذ طلائع سنيه ، تلك الحاجة الأساسية الى المعرفة التي تعتمل في نفسه . وعندما كان في التاسعة عشرة من عمره كتب في « مذكراته » يقول : « أريد ان أتعلم معرفة نفسي في الصميم » . ومنذ تلك اللحظة ، حتى بلوغه الثالثة والثمانين ، لن يكف عن سؤال شكل أناه الخاص ، مسلطاً عليه مراقبة حادة ، يقظة ، متشككة . ان تولستوي ، القاسي على نفسه مثلما هو قاس على سائر الناس ، ليمرر من تحت المشاهدة السريرية لأناه سائر أعصاب حساسيته وسائر افكاره ، وهي جميعاً مابرحت بعد حارة ملتهبة بالدماء الساخنة .. ان هذا الحيوي العملاق يريـــد ان يعرف ذاته بوضوح لايقل شدة عن القوة التي يحس الحياة بها .. وفي الحقيقة ان مجنونـــاً مثل تولستوي لايمكن ان يكون شيئاً آخر سوى مترجم لحيـــاته شديد الحماسة حتى الحد الاقصى .

ولكن تمثيل الأنا ، على العكس مما يحدث عندما نمثل العالم ، لايمكن ان يتحقق بصورة تامة في أثر فني واحد .. ان المبدع يقدر ان يعزل كلياً صورة غريبة ، ان كانت بنتاً للمشاهدة ام بنتاً للخيال ، وذلك بتمثلها في عمله ... فالحبل السري قد قطع منذ ولادتها ، وهي لن تعيش من الآن فصاعداً الا بحياة مستقلة في عالم الفكر . انها اشبه بطفل لم يعد هناك مايربطه بدوران امه الدموي ، قد اصبحت مستقلة قائمة بذاتها ، والفنان يتحرر منها بفعل انضاجها وإخراجها نفسه .. ولكن الأنا ، على نقيض ذلك ، لاتسمح بعزلها تماماً بمجرد تمثيلها ، لان صورة واحدة لاتكفي لتقرير سائر

حركاتها الدائبة المستمرة . وذلك هو السبب في ان المصورين العظام الأنا يكررون، طوال حياتهم ، صورتهم الخاصة . فيبدأون - وتلك هي الحال مع دورر ورامبرانت وتيتيان على حد سواء - آثار صباهم الاولى امام المرآة ، ويستمرون على ذلك حتى اللحظة التي ترفض ايديهم فيها ان تنصاع لهم ، وما ذلك إلا لأن محياهم الخاص يجتذبهم ان بما فيه من الثابت غير المتبدل ، أو بما فيه من المتبدل والمتحرك ، بحيث ان كل صورة قد رسمت خطوطها هكذا في الماضي لن يلبث ان يغمرها من جديد تدفق الزمان الذي يتابع أبداً جريانه الدائم .

وهكذا فان هذا الرسام العظيم للواقع ، الذي هو تولستوي ، لايكمل تصوير نفسه ابداً ، بل لا يكاد يمثل نفسه تحت مظهر احد الوجوه الذي يظنه نهائياً (أكان هو نيشلودوف ، أو بيزوشوف ، أو بيير ، أو ليفين) ، حتى لايعود يعرف ابداً في العمل المنتهي محياه الخاص ، فيضطر الى البدء من جديد ، كي يطبق على الشكل الجديد ويمسك به . وكما ان تولستوي الفنان يلاحق خيال نفسه دون تعب أو كلل ، هكذا أناه تتابع الفرار من امام وجهه ، في شيء من الهرب الاخلاقي ، فكأنه تجاه تضاعف متجدد أبداً ، ناقص وغير مكتمل على الدوام ، يحس عملاق الارادة هذا - دون انقطاع - الحاجة الى التغلب عليه وقهره . وهكذا فان تولستوي لاينتج ، طوال ستين عاماً من العمل الجبار ، مؤلفاً واحداً لايحوي وجهاً يعطي مسودة عن شخصه بالذات ، دون ان تستطيع اية مسودة رسمها ان تضم - لوحدها - كل اتساع هذا الانسان وامتداده ، بل ان سائر رواياته وأقاصيصه و « مذكراته » ورسائله في مجموعها - هذا النتاج الذي يضم عالماً عنيف التدفق والجريان - تستطيع وحدها ان تعطي صورة صحيحة عنه ، ولكنها هنا الصورة الأكمل والأدق والأوضح والاكثر استمراراً التي رسمها يوماً انسان عن نفسه في زماننا بأسره .

وفي الحقيقة ان تولستوي ، وهو الذي تفصل شقة واسعة بينه وبين الاختراع ، والذي يعجز إلا عن خلق اشياء عاشها البشر وشاهدوها ، لايستطيع ابداً - على اعتباره كائناً حياً ومراقباً للكون يضع ذاته ، في شيء من اليأس ، في مركز رؤاه دوماً - ان يطرح من ساحة بصره أناه الخاصة ، بحيث لايفقد قط الشعور بشخصيته حتى

ولا في لحظات اشراقه .. ان بصيرته النافذة ، المجالة ، لاتغلق الاجفان قط ، حتى ولا في احضان الهوى . ان تولستوي (واي شيء لايعطيه كي يبعـــد عنه ذلك الظل المرهق لأناه الخاصة ؟) ، هذا الانسان الذي يملك في كل من حواسه وعياً فائقاً عن ذاته ، لن يستطيع ابداً ان يتحرر ثانية واحدة من شخصه ، ان ينسى نفسه أو يتناساها.. انه عاجز عن الاستسلام حتى الى عنصره الحوامي ، أعني الطبيعة : « انا احب الطبيعة عندما تحف بي من كل حدب وصوب (فلنلاحظ « انا » و « بي ») ، ومع ذلك فيجب ان اكون في وسطها . اني احبها عندما تغمرني أنسامها الدافئة بأمواجها ، ومن ثم تبتعد نحو آفاق لامتناهية ، عندما تعبر عروق العشب الطرية التي اضغط عليها اثناء افتعادي الارض اخضرارها الى الحقول الواسعة المترامية الاطراف » . وهكذا نرى ان المشهد الاكثر سحراً وفتنة لايعدو كونه ، بالنسبة الى حساسيته ، الشعاع والدائرة اللذين تثبت أناه في وسطهما وتستقر ـ وأناه مركز ثقل كل حركة عـــلى الاطلاق ، مركز لايتحنح من مكانه قيد أنملة ابداً ـ والكون الروحي باسره يدوم بالطريقة نفسها ويستدير حول شخصه وفكره وحدهما . وهذا لايعني أنه مغرور ، متكبر ، متعصب لأناه ، يعتبر نفسه في مبالغة تتجاوز كل حدود ـ سرة هذا العالم ومركزه ، بل ان احداً ـ على النقيض من ذلك تماماً ـ لم يشك اكثر منـــه بقيمته الاخلاقية ، بالرغم من عمق وعيه لأناه وشدته . ولكن الرجل متأصل بصورة متينة جداً في جسده العملاقي ، عميق الجـــذور في سجن انطباعاته الشخصية ، حتى لايستطيع قط ان يحذف أناه وينسى نفسه . ان القدر قد امسك بصورة مطلقة عن هذا الفكر غير المجنح موهبة الفرار من نفسه كي يطير نحو عـــالم الحلم ، نحو الوهم والخرافة ، نحو شيء ماغريب عن عالم الارض . انه مضطر بصورة اجبارية لاتعرف تعباً او كللا ـ وفي غالب الاحيان بالرغم من ارادته ، ودومـــاً فيما وراء ارادته البصيرة ـ الى دراسة نفسه والتجسس عليها ، وتوضيحها حتى الاهياء ، الى « اقـامة الحراسة » نهاراً وليلا على حياته الخاصة . وهكذا فان حماه في ترجمة حياته لاتتوقف لحظة واحدة ، مثلما لاتتوقف الدماء في اوردته ، او ضربات قلبه في صـدره ، او الافكار تحت جبينه ... ان صنع مؤلف ادبي يعني بالنسبة اليه دوماً إدانة نفسه ورواية قصته .

وهكذا فليس هناك شكل من تمثيل الأنا لم يمارسه تولستوي، من الحكاية البسيطة الساذجة، الى المراقبة الموضوعية والميكانيكية الخالصة للذكرى، ومن الشكل التربوي الى المراقبة الاخلاقية، ومن الاتهام الاخلاقي الى الاعتراف الروحي، انه تمثيل الأنا كوسيلة الى كبح جماح النفس وتحريضها، وترجمة الحياة الذاتية كفعل جمالي وديني خالص... كلا، اننا لن ننتهي من تعداد سائر الصيغ في تفاصيلها، وسائر المبررات في دقائقها، ومن وصف ذلك التنوع المدهش الذي يميز هذه الاظهارات للأنا، ان العارية او المقنعة على حد سواء. ولكن هناك شيئاً واحداً اكيداً لايتطرق الشك اليه، وذلك ان تولستوي هو الانسان المعاصر الذي تتوفر لنا المعلومات عنه اكثر من اي انسان سواه، مثلما هو اكثر من تتوفر لنا صوره من الناس. اننا نعرف من مذكراته مراهق السابعة عشرة مثلما نعرف عجوز الثمانين، ونعرف اهواء صباه، ومأساة زواجه، وافكاره الاكثر إلفة بنفس الدقة والصدق اللذين نعرف بهما افعاله الاكثر جنوناً وتفاهة، لأن تولستوي-وهنا تناقض مطلق آخر مع دستويفسكي الذي كان يعيش «مغلق الشفتين» -كان يحب ان يعيش مصيره «تاركاً الابواب والنوافذ مفتوحة على مصاريعها». واننا لنعرف بفضل هذه التعرية المهووسة لكينونته التي يقوم بها هو نفسه، كلاً من حركاته ومن خطواته، وحتى اكثر فصول سنوات وجوده الثمانين سطحية وتفاهة، بذات الدقة التي نعرف بها صورته الحكمية كما تظهرها لنا نسخ لاحصر لها ولاعد، عند الحذاء او في حديث مع الفلاحين تارة، وممتطياً جواده او وراء المحراث تارة اخرى، إلى طاولة العمل او في ملعب التنس حيناً، ومع زوجته او مع اصدقائه وحفيدته حيناً آخر، بله وهو نائم او على سرير الموت ايضاً. والأكثر من ذلك ان هذه الوثائق العديدة وذلك الاظهار الاخلاقي والحكمي التي يقدمها لنا جميعاً تولستوي بنفسه، تؤيدها ذكريات لاتحصى وملاحظات لاتعد صادرة عن المحيط الذي عاش فيه، كتبتها زوجته، او ابنته، او امناء سره والصحفيون والزائرون العديدون... وعندي انه يمكن تجديد غابات ياسنايا بوليانا بالخشب الذي صنع به الورق الذي خطت عليه مختلف الذكريات المتعلقة بتولستوي! ابداً لم يعش شاعر واعياً بمثل هذه الطريقة المفتوحة، وقلة هم ايضاً اولئك الذين عرفوا الناس

على اتمام مثله . اننا لانعرف منذ جوته وجهاً تتوفر الوثائق عنه بمثل هذا الكمال ، وثائق تقدمها المشاهدة الداخلية والمشاهدة الخارجية جميعاً .

وتعود هـــذه الحاجة عند تولستوي الى مراقبة نفسه الى يقظة وجدانه الاولى ، فتبدأ بتوطيد نفسها اول ماتبدأ ، في عـــدم انتظام ودقة ، في الجسد المزدهر والمضطرب ، جسد الطفل الصغير قبل ان يعرف الكلام بزمن طويل ، ولاتنتهي الا في الثالثة والـــثمانين ، والرجل مسجي على سرير موته ، والكلمة الارادية قـــد فقدت كل سلطة لها على اللسان ، والشفة التي تنطفىء لا تصعد في الفراغ بعد الآن الا نفخة غير مفهومة . ولكنك لاتجد في هذه الفترة من الزمن التي تفصل بين البداية وسكون النهاية لحظة واحدة لم يقل فيها او يكتب شيئاً . ان الطالب تولستوي ، وهو بعد في التاسعة عشرة لما يكد يتخرج من المدرسة ، يشتري كراسة ليكتب عليها مذكرات يومية ، فيخط منذ الصفحات الاولى هذه الكلمات : « اني لم اثابر من قبل على كتابة المذكرات ابداً لاني لم اجد لها نفعاً او فائدة . أما الآن وانا معني بتطور مواهبي ، فلسوف استطيع بفضل هـــذه المذكرات ان اتابع جريان هذا التطور . يجب ان تضم هذه المذكرات قواعد الحياة ، كما يجب ان اكتب فيها افعالي اللاحقة » . ففي هذا الفتى الصغير الذي مابرح امرد المحيا ، يوجد منذ الآن اذن بذرة لما تفتش بعـــد ، بذرة مربي الكون اللاحق الذي سيصير اليـــه تولستوي ، هذا الذي يعتبر الحياة منذ البداية « مهمة جديـــة » يجب ان ينفذها المرء بدقة وخطورة . ويبدأ بفتح حساب خاص بواجباته ، مثله مثل تاجر يباشر اعماله ، « من والي » من المبادىء والافعال .. ان هذا الفتى الصغير البالغ التاسعة عشرة لعلى معرفة تامة منذ الآن بدخل الرأسمال الذي يمثله شخصه ، فهو منذ اول احصاء يقوم به عن كائنه يتحقق من انه « فرد غير عادي » ألقي على عاتقه « مهمة غير عادية » .. ولكنه يحسب في الوقت نفسه ، منذ الآن وبدون اية شفقة - هو الذي مابرح نصف طفل بعد - اي مجموع ضخم من الارادة سوف يتوجب عليه ان يبذله كي يفرض على طبيعته الميـــالة الى الكسل والطيش والتهور والشهوانية سلوكا اخلاقياً حقاً وفعلاً ... وان هذا العالم النفساني المبكر

ليعرف منذ الآن ، بغريزة سحرية البصيرة ، أسوأ عيوبه ... تلك العيوب الروسية النموذجية حتى الدرجة القصوى ، عيوب بعثرة النفس وتبذير الزمن وهيجان لا يكبح جماحه ...

ولذا فهو يخلق لنفسه جهازاً الغاية منه الاشراف على مردود كل من نهاراته ، حتى لا ينقضي احدها ابداً دون ان يحصد منه بعض الفـــائدة والنفع ، فالمذكرات تخدمه في البدء اذن محرضاً كي يتقدم تربوياً ، كي يحلل ذاته حتى الصميم ، وكي (يجب ان نفكر دوماً في كلمة تولستوي هذه) « يقوم بالحراسة على حياته الخاصة » . وهذا المراهق يختصر مثلا ، بدقة لا مداراة فيها ، نتائج احد نهاراته على هـــذا الغرار : « من الظهيرة حتى الساعة الثانية مع بيجيتشيف ، تحدثت بحرية كثيرة ، وبغرور عظيم ، وانا اكذب على نفسي ايضاً .. من الثانية حتى الرابعة رياضة بدنية : قليل من العكوف ومن الصبر .. من الرابعة حتى السادسة طعمت وابتعت بعض الاشياء عديمة النفع . في البيت لم اكتب شيئاً : انه الكسل .. ولم استطع ان اقرر ان كان يجب ان اغدو لزيارة آل فولكونسكي ام لا .. تحدثت قليلا هناك : انه الجبن .. ولقد تصرفت بصورة سيئـــة : جبن ، وغرور ، وطيش ، وضعف ، وكسل » . ان القسوة الـــتي يطبق تولستوي بهـــا على عنقه بيـــده الطفولية لمبكرة وعديمة الشفقة حتى هذ الدرجة البعيدة ! ولسوف تدوم هذه القسوة طوال ستين عاماً ، مثلها في التاسعة عشرة . ان تولستوي ، في الثانية والثمانين ، مابرح يمسك بالسوط مرفوعاً فوق رأسه ، وبالقسوة نفسها يخط في مذكرات الشيخوخة هذه النعوت المهينة الموجهة الى نفسه : « جبان ، نذل ، كسول » ، عندما لا يخضع جسده المتعب خضوعاً تاماً مطلقاً للنظام السبارطي الشديد الذي تفرضه ارادته عليه .. ان تولستوي يقف بالمرصاد ، منذ الساعة الاولى حتى الساعة الاخيرة ، حارساً على حياته الخاصة ، مثله مثل صف ضابط بروسي قاس وعبد للواجب ، عبداً للنظـــام الذي فرضه بمحض ارادته على نفسه ، ساعياً بالانذار تارة ، والتهديد تارة اخرى وربما بضرب



ليون تولستوي في ثياب الفلاحين

خبيث متلاحق من عقب البندقية في بعض الاحايين ، الى طرد البطالة والكسل بعيداً عنه ، كيما يسير في طريق الكمال المسيرة ...

ولكن الفنان الكامن في تولستوي ليطالب هو الآخر ، بصورة متوافقة تقريباً مع الاخلاقي المبكر فيه ، بصورته ايضاً ، فيبدأ في الثالثة والعشرين (وهو أمرفريد في الادب العالمي !) ترجمة حياة ذاتية في ثلاث مجلدات ... ان نظرة تولستوي الاولى تقوم في التطلع الى نفسه في المرآة . ان هذا الفتى لايعرف شيئاً من العالم بعد ، حتى انه يختار موضوعاً لفنه ، وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين ، قصة حياته وحدها ، قصة طفولته .. وهكذا فان الملازم الثاني تولستوي ، الذي مابرحت لحيته عبارة عن وبر خفيف فقط ، والذي يعسكر كمدفعي في احدى قلاع القوقاز ، يجرب بسذاجة لاتقل عن سذاجة دورر° الذي يتناول الريشة المفضضة وهو في الثانية عشرة كي يرسم على اول ورقة سقطت بين يديه محياه الضيق ، الشبيه بمحيا فتاة صغيرة ، حيث لم تضع التجربة بعد اياً من غضونها ، يجرب اذن ، فضولاً وحباً في الاستطلاع ، ان يروي لنفسه « طفولته » و « سنوات صباه » و « سنوات مراهقته » . انه لا يُعنى إذن بمن يكتب لهم ، ولا يفكر ابداً في الأدب ، والصحف ، وجمهور القراء ؛ بل يطيع - بصورة غريزية - حاجة الى فهم نفسه بروايته قصة حياته ، دون ان يلاحق ذلك الدافع الغامض فيه أي هدف معين واضح ، كما انه - على النقيض مما سيتطلبه فيما بعد - لا « يستنير بضياء أي اهتمام اخلاقي » . ان هذا الضابط الصغير في القوقاز يتصرف بدافع من غريزته وحدها ، ويخط على الورق بدافع من الفضول والضجر ، في هواية لطيفة ، على غرار التصوير المائي ، صور بلاده وصور طفولته . انه لايعرف شيئاً بعد من ذلك الرمز الذي سيتجلى فيما بعد عند تولستوي على طريقة رسل جيش الخلاص ، لايعرف شيئاً من « الاهتداء » ، الاهتداء « الى الخير » ، ولا يحاول كذلك ان يعلن على الملأ ، كتحذير شديد وانذار عنيف ، « فظائع شبابه » ، كي يستخرج منها مثالاً يفيد الآخرين . كلا ، ان هذا الشاب البالغ الثالثة والعشرين لايصف وجوده الصغير ، وانطباعاته الأولى ، وأباه ، وأمه ، وأهله ، ومعلميه ، والبشر ، والحيوانات ، والطبيعة ، كي يفيد بعض الناس وينفعهم ، بل انما يفعل ذلك بدافع لعب غريزي فقط ، ميدانه فكر مافتىء يحمل شيئاً كثيراً من الطفولة ، فكر

لم يعش حتى الآن إلا حادثة واحدة ، الا وهي « كيف انزلق الصبي الصغير فيه حتى المراهق » . وان تولستوي لينجح في وصفه ذلك نجاحاً عظيما بفضل تلك العفوية الرائعة التي لا يعرفها إلا ذلك الذي لا يلاحق هدفاً معيناً . ماأبعد هذه الطريقة الصافية في الرواية ، ماأشد بعدهـا عن ذلك التحليل الخطير العميق الذي يتميز به الكاتب المنهجي الذي سيصير اليه ليون تولستوي ، هو الذي سيجـد نفسه مضطراً ، بفعل المركز الذي يحتله ، الى تقديم نفسه امام الناس ككاتب ، وامام الفنانين كفنان ، وامام الله كخاطىء ، وامام نفسه كمثال للتواضع الضروري ! ان الذي يكتب هذه الاقاصيص ليس إلا نبيلاً لا يريد أن يقضي كل أمسياته على مائدة القمار ، كان الحنين الى محيط بلاده الدافىء ، والى عذوبة الوجوه التي اختفت منذ زمن بعيد ، ينتابه وهو في بلاد اجنبية غريبة . وعندما يحصل مالم يكن منتظراً ، فاذا تلك الترجمة الذاتية العديمة الغاية تمنحه اسماً في عالم الأدب . فان ليون تولستوي يسرع فيهمل استكمالها ، يهمل قصة « سنوات الرجولة » ... ان الكاتب الشهير لن يسترجع بعد الآن ابداً ايقاع الكاتب المجهول ، والمعلم لن ينجح قط في سنوات نضوجه في رسم صورة ذاتية بنقاوة الصورة الاولى ومرونتها . وفي الحقيقة ان الفنان يصاب بخسارة لا تعوض ـ مهما تكن الحسنات التي ينالها من امتلاكه جمهوراً خاصاً به ـ خسارة نوع من الاخلاص والأمانة الساذجين ، اخلاص وأمانة يستحيلان على اية حال إلا في عتمة الاسم المجهول . ان عفة نفس متعاظمة تبدأ بالظهور متواقتة مع المجد ، عند كل انسان لم يصبح بعد ـ بصورة كلية ـ عبداً للادب ورقيقاً ... ان حياة الكاتب الخاصة يجب ان تختبىء خلف قناع وتتخفى كي لا يـأتي شيء كاذب او مسرحي المظهر فيشوه بصورة محتومة ذلك الاخلاص الذي لا يملكه إلا المجهول وحده ، هذا الذي لم يجرحه بعد فضول العالم . ولسوف ينقضي نصف قرن كامل (ان الارقام عند تولستوي لواسعة مثل الارض الروسية) قبل ان تعود تلك الفكرة الـتي كانت مجرد لعب بسيط بالنسبة الى المراهق ، فكرة ترجمة ذاتية كاملة ومنهجية ، فتشغل ذهن الفنان من

جديد . ولكن ماأكثر ماتبدلت هذه المهمة بعد مروره الى الافكار الدينية ! لقد اصبحت رسالة انسانية ، اخلاقية ، تربوية ، هدفها الا معرفة الذات فحسب ، بل تثقيف العالم وهدايته في الوقت نفسه ـ بفضل تلك الصورة عن تولستوي التي وضعها تولستوي ايضاً : « ان وصفاً اميناً وممكناً معاً يقوم به كل فرد عن حياته الخاصة ، يملك قيمة كبرى بالنسبة اليه ، ويجب ان يكون ذا نفع عميم بالنسبة الى سائر الناس » . وهكذا فهو يعلن فيما بعد ، بكل خطورة ، عن هذه الرسالة العظمى ، ويروح يتأهب بدقة عظمى ـ وهو عجوز في الثمانين ـ لذلك التبرير الحاسم . ولكنه لايكاد يبدأ المؤلف حتى يهمله ، بالرغم من انه يجد هذه الترجمة الذاتية « الموافقة للحقيقة بصورة مطلقة ، اكثر فائدة ... من كل الثرثرة الفنية التي تملأ مجلدات مؤلفاتي الاثنتي عشرة التي يمنحها اناس هذه الايام أهمية لاتستحقها مطلقاً » . وفي الحقيقة فان المقياس الذي يخدمه في الحكم على الحقيقة قد زاد دقة على مر السنين ، بمقدار ماتحسنت معرفته لحياته الخاصة ، بحيث اصبح اكثر تعنتاً في هذا المضمار ... لقد عرف ان كل ماهو حقيقي يرتدي شكلاً متعدد المظاهر ، صعب النفوذ ، قابل التبدل والتغيير ، فماذا الرجل الذي وعى مسؤولياته يجد نفسه مذعوراً مرتجف الاوصال حيث كان مراهق الثالثة والعشرين يتزحلق على سطوح ملساء كالمرايا ، فيتراجع يائساً ويعود القهقرى ، هو الذي يفتش عن الحقيقة ويعرف ماهيتها ... انه يخاف من « النواقص ، من عدم الامانة التي تتسرب بصورة محتومة في كل ترجمة ذاتية » ، يخشى ان « تصبح مثل هذه القصة كاذبة ، حتى ان لم تكن كذباً مباشراً ، بفعل اضاءة مغلوطة ، تظهر بصورة منهجية الى النور ماهو خير ، وتترك في الظلمة ماهو شر » .

ويعترف دون مواربة : « وبالمقابل ، عندما قررت ان اكتب الحقيقة العارية فلا اخفي اي عمل شرير ارتكبته في حياتي ، ذعرت للنتيجة التي ستنشأ ، حتما ، عن مثل هذه الترجمة الذاتية » . ان الاخلاقي الذي صار تولستوي اليه يدرك بكل

وضوح ، بمقدار مايتفحص بانتباه اخطار مثل هذا المشروع ـ هو الذي لم يعد يفكر إلا في الاخرين ، في « النتيجة » التي ستحدث ـ استحالة إنجاز العمل بين « شاريبد الأنانية وسيلا (١) الصراحة القصوى » ، في مضيق نفس كلية السلامة شديدة الاخلاص. وان مشروع هذه الترجمة الذاتية الاخلاقية ، المصنوعة « من وجهة نظر الخير والشر » والتي ينوي فيها ان يكتشف دون أي تحفظ ـ باعلان محفوف بالأخطار عن أناه ـ « كل سفالة حياته وعارها » ، ان هذا المشروع لم يتحقق ابداً ، وما السبب في ذلك الا احترام الحقيقة المطلقة بالضبط .. لكن لا نأسف أكثر مما يجب لهـــذه الخسارة ، لاننا نعرف بصورة دقيقة ، مما كتبه تولستوي في تلك المرحلة ـ « الاعترافات » مثلا ـ ان الحاجة الى الحقيقة قد اصبحت بالنسبة اليه ، منذ أزمته الدينية ، الحاجة التي لاتقاوم الى اهانة نفسه وإذلالها ، نوعاً من اللذة المجنونة في جلد نفسه (على غرار لذة تلك الفئة من الروسيين الذي كانوا يجلدون انفسهم بالسياط كي يقهروا خطيئة جسدهم) ، بحيث كان كل تصريح عن شخصه أدلى به في تلك السنوات يتفسخ في نوبة عنيفة من الشتائم والاهانات الصادرة عنه على حسابه الخاص .

ان تولستوي هذه السنوات الاخيرة لم يكن يريد ان يروي قصة حياته بكل بساطة فحسب ، بل ان يذل نفسه أمام اعين البشر ، ان « يقول اشياء كان يخجل من ان يعترف بها لنفسه » ، بحيث أن هذه اللوحة النهائية التي رسمها عن شخصه قد اصبحت من دون ريب ، بذلك العرض الجائر « لرذائله » وخطاياه الكاذبة ، تشويهاً للحقيقة لامراء فيه . واننا نستطيع ، بالاضافة الى ذلك ، ان نستغني عنها تماماً ، لاننا

« ١ » اعصار مائي وكتله جبارة من الصخور في مضيق مسينا قرب صقلية مشهوران كثيراً في الملاحة القديمة لما كانا يلقيان من الرعب في قلوب الملاحين الذين كثيراً ما كانوا يصطدمون بالثاني اذا استطاعوا ان يتجنبوا الاول .

تملك وصفاً آخر لتولستوي ، وصفاً من وضعه ايضـــاً يضم كل حياته ويشملها ، في مختلف مراحلها ؛ وصفاً لعله اكمل ماتركه شاعر - خلاجوته - عن نفسه ...
وصحيح ان هذا الوصف ، كما هي الحال عند جوته ، لايوجد في مؤلف واحد ، بل بالاحرى في التنوع ، فهو يتطور دون مفاصل او فراغـــات خلال مجموع مؤلفاته ، ورسائله ، و « مذكراته » ... ان هذا الفنان « المعني ابداً بأناه الخاصة في سائر مراحلها المختلفة » قد وضع نفسه على المسرح - بنسبةرامبرانت تقريباً - في رواياته واقاصيصه ، متنكراً في وجوه مختلفة ، لكن يمكن التعرف عليها دوماً وبسهولة تامة ايضاً ! ... وانك لاتجد في وجوده الطويل جداً مرحلة هامة من حياته الخارجية ، أو أزمة في حيـــاته الداخلية ، لم يجسدها - مثلما يفعل الشعراء الحقيقيون - في شخص رمزي ... ان الملازم الثاني الشاب أو ليفين ، سليل الطبقة النبيلة الذي يفتش - في « القوزاق » - في اية مهنة يرتمي في احضانها وفي الطبيعة العظيمة في وقت واحد ، عن ملجأ يفر اليه من كآبة موسكو وبطالتها ، ويجد فيه نفسه وأناه ايضاً ؛ انما هو ، حتى في كل خيط من خيوط ثيابه وكل ثنية من ثنايا وجهه ، الرئيس الفتى في المدفعيـــة تولستوي بلحمه ودمه . وان بيير بيروشوف الحـــالم ، الثقيل الدم ، في « الحرب والسلم » ، وأخاه اللاحق النبيل الريفي ليفين ، هذا الباحث عن الله الذي يحترق برغبة النفوذ الى معنى الحياة ، ليفين « آنا كارنينا » ، لهما من دون ادنى ريب - حتى في مظهرهما الحكمي - تولستوي نفسه عشية الازمة . وإن سائر الناس ليعرفون تحت جبة « الاب سيرج » نضال الكاتب الشهير في سبيل القداسة ، وفي « الشيطـــان » مقاومة تولستوي الذي يشيخ ضد مغامرة شهوانية ، وفي الامير نيشلودوف - اكثر شخصياته اعتباراً (انها تجتاز مؤلفاته باسرها) - ذلك النموذج من الانسان الذي احتفظ به سراً في اعماق كينونته ، تولستوي المثالي الذي يعيره كل نواياه وسائر افعاله مرآة مبدعة خلاقة لوجدانه الاسمى ...

لابل ان ساريزين نفسه ، في « النور في الدياجير » يحمل قناعاً شديد الشفوف ،

ويفضح بصورة تامة كل مشهد من مشاهد مأساة تولستوي العائلية ؛ حتى ان كل ممثل يلعب ، اليوم ايضاً ، ذلك الدور على الخشبة ، يضع بالضرورة قنـــاع الكاتب الكبير ويتاثر به . . . ان طبيعة شديدة الامتداد والاتساع ، كطبيعة تولستوي ، قد اضطرت الى الانقسام والتوزع على العديد من الشخصيات التي اذا مافتشنا عنها وجمعناهـــا ـ صورة فصورة ـ في تيار مؤلفاته العظيم وجريانها ، سمح لنا اجتماعها ان نركب من جديد صورة تولستوي الجامعة ، الامر الذي يتحقق لنا بكمال ووضوح مطلقين . ولذا فان كل ترجمة لحياة تولستوي ، وكل وصف وثائقي لشخصه ، أمران فائضان في الحقيقة بالنسبة الى كل من يستطيع ان يقرأ ببصيرة نافذة وفكر ثاقب مؤلفـات الكاتب الشعرية ، لانه لايوجد اي مراقب خارجي يتفوق في وضوح التعبير على هذا المراقب لأناه ، الملاحق لها دون هوادة ... انه يقودنا في احضان اكثر نزاعاته خفية ، ونثره ـ مثل شعر جوته ـ ليس إلا اعترافاً وحيداً وعظيماً يتطور ويستكمل نفسه ، صورة فصورة ، عبر حياة كاملة مديدة السنوات .

وان هذا الاستمرار ، وحده ، هو بالضبط مايرفع عمل تولستوي الى المرتبة الاولى من الترجمات الذاتية التي تركها لنا فنانو النثر .. ليس ههنا مايشبه من بعيد او قريب ترجمة كازانوفا الذاتية ، المكتوبة كتلة واحدة ؛ او ترجمة ستندال الجزئية غير الكاملة ... ان تولستوي يعدو دوماً ، ملاحقاً نفسه في اشخاصه ، مثلما يتأثر الخيال الجسد .

وفي الحقيقة ان هذا المنهج ، هذه الحاجة التي يحسها المرء الى اظهار نفسه بمرونة والاعلان عنها دون كلل ، شيئان مألوفان عند ســائر الفنانين على الاطلاق . ان الشاعر ـ هذا الانسان الفائض الخصب والرازح تحت نير قضاء متعدد ، هذا الانسان الذي تسقيه كل حادثة وتلقحه ـ يردد في خليقاته إن الاشراقات التي تسكره ، او الازمات التي تمزق كينونته ... ولكن بينما يتقدم الكثيرون امام الناس في قناع

وحيد دائم ، مثل ستندال في كتابه « فابريس » وجوتفريد كيللر (١) في «هنري الاخضر » وجويس في « ستيفان ديدالوس » ، نجد ان تولستوي ، بسبب تبدلاته المستمرة والفريدة في نوعها ، يعطي لصورته الخاصة شكلاً جديداً كل عشر سنوات ، فنراه هكذا ونعرفه لاشخصاً وحيداً لايتبدل ، بل طفلاً ومراهقاً ، ومن ثم ملازماً ثانياً عديم المبالاة ، فزوجاً سعيداً ، وبعد ذلك نرى اليه شاوول (٢) جديـــداً وبولس في أزمته التي ترفعه نحو الله . مناضلاً ونصف قديس معـــاً ، واخيراً نراه عجوزاً قنوعاً هادئاً حمل السكينة الى نفسه بنفسه ... نراه مختلفاً ابداً ، ولكن الانسان نفسه دوماً بالرغم من ذلك ، فكأنه نوع من الصورة السينمائية التي تجري باستمرار وتتطور دون ادنى علاقة برسم شمسي وحيد جامد ...

الا انه يجب ان نضيف الى هذه السلسلة من الصور التي لاتمتاز إلا بالمرونـــة والتي هي مؤلفات الشاعر ، المكمل العظيم لافكاره الذي كتبه المفكر عن نفسه « المذكرات » والرسائل التي ترافق ـ يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة ـ فكره اليقظ حتى ساعة وفاته ، بحيث لانكاد نجد في هذا الكون الفكري المتعدد الوجوه كثيراً موضعاً واحداً فارغاً لم يطرق ، ارضاً مجهولة لم يستكشفها الفكر ويعرف خفاياها. ان سائر القضايا الاجتماعية والعائلية ، الشعرية والادبية ، الزمنية والميتافيزيائية ، قد نوقشت هىنا وبحثت ... اننا لم نر ابداً ، منذ جوته ، الوظيفة الفكرية والاخلاقية لشاعر أرضي وقد تحققت على خير وجه وبصورة مطلقة تماماً . وكما ان تولستوي

«١» روائي سويسري ساخر الاسلوب (١٨٢١ - ١٨٨١).

«٢» شاوول هو اسم بولس الرسول قبل اعتناقه المسيحية .

يمثل ، بصورة مثلى ، في هذه الحياة غير العادية ، في هذه الانسانية فوق الانسانية في الظاهر - مثل جوته تماماً - الانسان الطبيعي والصحيح ، الانسان المتوازن تماماً ، والمجرد عن كل ماهو خيالي او مرضي ، النموذج الكامل للجنس ، رمز التوازن الاخلاقي والجسدي ، الأنا الابدية والنحن الشاملة في نفس واحدة وفي كل لحظة من لحظات الزمان ، فاننا نجد مرة اخرى - كما عند جوته - في وجوده الذي اصبح وثائقياً حتى هذه الدرجة البعيدة ، مختصراً للانسانيــــة نفسها وصورة مصغرة عنها ...

الازمة والتحول

« ان اهم حدث في حياة الانسان هو اللحظة التي يعي فيها أناه .. وان نتائج هذه المحادثة قد تكون جيدة للغاية ، أو قد تكون رهيبة حتى الدرجة القصوى ايضاً » .

نوفمبر ١٨٩٨

في مضمار الخلق الفكري يصبح كل خطر نعمة وفضلاً عميمين ، وتصبح كل عائقة عوناً ومحرضاً نافعين ، لان المبدع يجد فيها وسيلة لاطلاق قوى مجهولة وتجديدها باستمرار ... واذا كان مقدراً لوجود ما ان يؤثر في الكون ، فيجب ألا يأمن هذا الوجود في الجمود ويركد ، لان قوة الفكر - مثلها مثل كل قوة حكمية - انما تولد من الحركة والتبدل الدائمين ، وليس اخطر على الشاعر من الاكتفاء ، والقناعة ، والعمل الميكانيكي ، والطريق اليسيرة الخالية من الصعوبات .

وان تولستوي لم يعرف الا مرة واحدة فقط هذا الفتور الذي ينسى فيـــه أناه ، هذه السعادة التي يتمتع بها الكائن الانساني ويهنأ ، هذا الخطر الذي يتعرض الفنان اليه ويسقط في شباكه ... ان روحه ، المتمردة دون انقطاع ، غير الراضية ابداً ، لم تمنح نفسها الراحة في ذلك الحـــج الطويل الذي سيقوده نحو أناه إلا مرة واحدة ، طوال فترة لاتزيد عن ستة عشر عاماً من وجود استمر ثلاثة وثمانين حولاً مديداً ... ان تولستوي لم يعش في سلام مع نفسه وفي احضان عمله إلا خلال تلك الفترة من الزمن التي تفصل بين زواجه وبين الانتهاء من روايتيه : « الحرب والسلم » و « آنا كارنينا » ... وان « المذكرات » - هذه الحارسة لوجـــدانه - لتصمت بدورها ايضاً طوال ثلاث عشرة سنة (١٨٦٥ - ١٨٧٨) دون انقطاع ... ان تولستوي ، سابحاً في سعادته ، مستسلماً الى تيار العمل الذي ينجزه ، لم يعد يراقب نفسه البتة ، بل لايفعل سوى مراقبة العالم وحده ... إنه لايطرح المشاكل ويطلب لها الحلول ، لانه مشغول بالخلق منهمك في لجته ، خلق سبعة أولاد بالاضـــافة الى مؤلفيه الملحميين الاكثر قوة وعظمة ... في تلك الاثناء ، وفي تلك الاثناء وحدها ، عاش تولستوي مثل سائر البشر مجرداً عن سائر الهموم ، رابضاً في أنانيته العائلية البورجوازية المتكبرة ، سعيداً ، راضياً ، مبتهجاً ، لانه قد تحرر من « السؤال الرهيب عن سبب

الأشياء » ... « اني لم أعد اتأمل في حالي مطلقاً ، لقد انقضى كل تأمل وخلا زمانه ولم أعد أفتش ابداً عما يكمن في اعماق انطباعاتي المختلفة . اني لا أفعل سوى الاحساس، دون التفكير ، في علاقاتي مع عائلتي ، فتوفر لي هذه الحال حرية فكرية كبيرة للغاية » .

ان السير المنتظم للانضاج الفني لا يتعرقل ابداً بدراسة الأنا النقدية ... والحارس القاسي ، المتيقظ ابداً ، المنتصب في جبروت امام الشخصية الأخلاقية ، يبتعد وهو يغفو ، تاركا للفنان حرية حركاته ، موفراً له انطلاق حواسه التام ... وتأتيه الشهرة في تلك السنوات ، فيضاعف ثروته اربع مرات ، ويربي أولاده وينشئهم ، ويزيد في اتساع بيته . ولكن الاكتفاء بالسعادة ، والاغتذاء بالمجد ، والشبع بالخيرات ، جميعها امور يستحيل استمرارها بالنسبة الى هذا الجني الاخلاقي، فهو يعود في كل مرة ، بعد كل خليقة أدبية ، الى عمله الاساسي ، الى إنضاج كماله الخاص ، فيذهب من تلقاء نفسه لمواجهة الضرورة ، عندما لا يهتف أي إله بصوتها في اذنيه ... وانه ليخلق مأساته في نفسه مادامت انفاس القضاء لا تأتيه من اي حادث خارجي ، ذلك ان الحياة (وبالاحرى اذن حياة تصخب بكل هذا العنف !) تريد دوماً ان تظل في حالة دائبة مستمرة من التأرجح والاهتزاز ، فاذا ماتوقفت امواج القضاء عن التلاحق من جانب العالم ، فإن الفكر يحفر في باطنه ينبوعاً جديداً متدفقاً حتى لا تنضب ابداً حركة الوجود الدائرية غير المنقطعة .

ان مايحسه تولستوي عند اقتراب سنته الخمسين ، وما يدهش معاصريه ويذهلهم بصورة لا تجد لها تفسيراً مطلقاً ، ألا وهو ابتعاده المفاجيء عن الفن ، واتجاهه نحو الأمور الدينية ، يجب ألا يعتبر ابداً حادثاً فوق عادي وغير طبيعي... اننا لنبحث عبثاً عن الشذوذ في تطور هذا الانسان السليم بصورة مثلى. غير العادي عند تولستوي إن هو - بكل بساطة - إلا عنف الانطباعات التي يحسها والتي تترك فيه أثراً عميقاً غير مألوف ... وفي الحقيقة ان التحول الذي يخضع تولستوي له في

السنة الخمسين من حياته ليس اكثر من تظاهر واقع يظل خفياً غير منظور عند معظم الناس لأن شدته ليست متساوية دوماً ؛ بل تزيد او تنقص حسب الافراد ... انه التكيف المحتوم للعضوية الفكرية والحكمية مع الشيخوخة المقتربة ، انها « سنة الفنان الحرجة » بكل بساطة .

« ان الحياة تتوقف وتصبح محزنة كئيبة » ، هكذا يعبر هو نفسه عن بدء أزمته النفسانية العنيفة . ان هذا الخمسيني قد بلغ من تطوره الناقد النقطة الميتة ، حيث تبدأ مرونة البلاسما بالتناقص ، وحيث تهدد النفس بالجمود والتصلب ... فالحواس لاتنفذ بعد الآن بذات القوة التي كانت تنفذ بها قبلا في الكتلة الرخوة للخلية المبدعة ، ولون الانطباعات يشحب ، مثلما يشحب لون الشعر الذي يشيب شيئاً فشيئاً ... انه بدء تلك المرحلة الثانية التي عرفنا جوته عليها ايضاً ، المرحلة التي يتسامى فيها لعب الحواس المليئة بالحرارة الى نوع من المعصرة الباردة حيث تنضج مقولة المفاهيم الشفافة وتكتمل ... ان الجوهر يصبح حادثاً خارجياً ، والصورة تصير رمزاً ، وموهبة الخلق الملون تفسح المجال لتصنيف الافكار المتبلور ... وان هذا الظهور لانسان جديد يعبّد الطريق ههنا ايضاً ، مثله مثل كل تحوّل عميق للفكر ، لضيق حكمي خفيف الوطأة ... للشعور المضب باقتراب شيء غريب مابرح مجهولاً بعد لم تسبر المعرفة اغواره ... ان قلقاً فكرياً بارداً ، وخشية رهيبة من الافلاس الذي قد يحدث ، يرسلان القشعريرة بصورة مفاجئة في النفس المذعورة ، فإذا الجسد ذو الاعصاب الرقيقة جداً يسجل في التو واللحظة ذلك التزعزع الذي يقترب ، (امراض جوته الصوفية ، لدى كل من تبدلاته !) .

ولكن ، ونحن ههنا نتوغل في ميدان يكاد استكشافه ان يكون معدوماً بعد حتى الآن ـ بينا النفس عاجزة بعد عن تعليل هذا الهجوم القادم من الظلمة الحالكة ، فهي ترتجف فرقاً لشعورها المذعور بخطر عتيد عصي على الادراك ،

يكون الدفاع أثناء ذلك بدأ سالفاً في العضوية بصورة عفوية ، تحت شكل ارتكاس نفساني حكمي ، دون تدخل ذكاء الانسان أو إرادته ، بل بفعل قوة الطبيعة - وهي قوة لا يمكن النفوذ اليها - على التنبؤ واختراق حجب الغيب . ذلك ان النفس البشرية ، مثلها مثل الحيوانات التي تكتسي اجسادها - على حين غرة - بفراء شتوي دافىء قبل اقتراب الصقيع بزمن طويل ، ترتدي هي الاخرى - عندما تعلن الشيخوخة عن نفسها ، والحياه لما تكد تتجاوز السمت بعد - ثيابا واقية ، ثياباً من المرتبة الفكرية ، غلافاً دفاعياً ثخيناً تدرأ به عن نفسها الجمود والتصلب زمن الانحطاط الفقير باشعة الشمس ودفئها ... ان هذا الارتكاس العميق الذي ينتقل من الحكمي الى الفكري ، والذي ربما كان منشأه في خلايا الغدد الداخلية نفسها ، والذي ينتشر حتى في آخر اهتزازات الانتاج المبدع ، هذه المرحلة الحرجة التي اود ان اسميها هنا ضد البلوغ ، انما تحددها - على اعتبارها تزعزعاً أخلاقياً - الحالة الدموية الراهنة ، فهي تبـدو لنا تحت شكل الأزمة ، تماماً مثل البلوغ نفسه ، وان يكن ذلك حادثا (لكم ياعلماء النفس والنفس المرضي !) لم تكد تبدأ بعد دراسته في تظاهراته الجسدية ، وأقل من ذلك ايضاً مراقبته في تظاهراته الفكرية .

ولقد امكن عند النساء بصورة خاصة ، حيث سن اليـأس يتظاهر بصورة اكثر فظاظة واوضح اعراضاً ، تحت اشكال محسوسة تقريباً ، ان تجمـع بعض الملاحظات المختلفة ... ولكن هذه الحادثة نفسها التي تتظاهر عند الرجل بأعراض فكرية في الدرجة الاولى لم تنل بعد نصيبها من الدراسة ، فهي مابرحت تنتظر ، بنتائجها الاخلاقية العديدة ، ان ينيرها ضياء العلم النفساني ويكشف عن خفاياها ... ذلك ان السنة الحرجة هي ، بالنسبة الى الرجل ، في كل الاحوال تقريباً ، المرحلة الملائمة للايمان العظيم ، للسمو الشعري أو الفكري ، لكل الاشياء التي تصبح ثوبـاً واقياً للكائن الذي يضعف دمه ، أو ردفاً فكرياً لانهيار الحواس وتزعزعها ، او تعاظماً في وعي الكون يعدل فقر الشعور بالأنا ونقص كمون الحياة ، ويعوض عنها .

أن هذه السنة الحرجة ، وهي التي تكمل البلوغ بصورة مطلقة ، ولا تقل خطراً عن هذا البلوغ بالنسبة الى الذين يتحلون بقوة الانتاج ، تؤهب هكذا لمرحلة خلاقة فكرياً ، مرحلة تختلف لوناً عما سبقها من المراحل ، تؤهب لاستعادة فعالية الفكر بين ممته ونظيره ... اننا نجد هذه اللحظة المحتومة من الأزمة عند كل فنان يملك بعض الاهمية ، ولكننا لانجدها عند اي منهم بمثل هذا العنف وهذه القوة ، تقلب التربة عاليها سافلها ، بركانية حتى لتكاد ان تكون مدمرة ، كما هي حالها عند تولستوي . ليس من انسان قد عبر بمثل موضوعية هذا الفنان ، الحيوي والطبيعي بصورة مطلقة ، عن القلق الذي يستشعره الانسان تجاه الضعف الذي ينال الحياة ، وذعره الشديد عندما يحس قوته الخلاقة تتناقص ... وما السبب في ذلك الا ان تولستوي قد عاش حتى ذلك الحين في جو من عدم الاكتراث ، خالياً من كل الهموم ، متمتعاً بازدهار حواسه ، مديناً بإبداعاته الى كمال قوته وفيضها فقط ، فهو اذن يرى في اقل إنقاص لهذه القوة مايشبه الكارثة الساحقة القاضية ، بله مايشبه الفناء والانعدام .

والحقيقة ان ماحدث لتولستوي في سنته الخمسين ، من وجهة نظر ايجابية ، وجهة نظر موضوعية بسيطة ، هو امر طبيعي حتى الحد الأقصى ... انــه يشعر بنفسه يشيخ فقط ، وهذا كل شيء ... لقد سقطت بعض اضراسه ، وأظلمت ذاكرته نوعاً ما ، وأضحى فكره يحس الاعياء في بعض الاحايين ، وذلك في الحقيقة حدث يومي بالنسبة الى كل من بلغ الخمسين من العمر ... ولكن تولستوي ، هذا الرجل الذي يطفح قوة ، هذه الطبيعة التى تتدفق ابداً هدارة ثرية خصبة ، يحس نفسه منذ هذه النسمة الخريفية الأولى ، وقد ذبل وأشرف على الموت ... انه يعتقد : « ان المرء لايستطيع الحياة عندما لايكون نشوان بالحياة » ... ان اعياء منشأه الوهن العصبي ، ضيقاً مجبولاً من القلق والبلبلة الفكرية ، يستوليان على هــذا الرجل ذي الصحة فوق العادية ، منذ ظهور العلامات الاولى للبرودة والضعف الحيوي ...

وماأسرع مايلقي السلاح ويستسلم ...

انه لايستطيع ان ينام ، كما لايستطيع ان يفكر : «ان فكري مستغرق في النوم ، ولا يستطيع ان يفيق ابداً ، وانا لست في حال جيدة ، تنقصني الجرأة والشجاعة معاً » ... ويجر حتى النهاية ، اشبه بسلسلة ثقيلة : « آنا كارينينا المضجرة التفهة » ... وهذا شعره يشيب بغتة ، وهذه الغضون تمزق جبينه ، وهذه معدته تتمرد ، وهذه مفاصله تصبح اكثر ضعفاً ووهناً ...

انه غارق في بلادة كئيبة ، يقول : « ان شيئاً لم يعد يفرحه ، وانه لم يعد ينتظر من الحياة شيئاً ، وانه سيموت عما قريب ! » .. « انه يجن بكل قواه الى مغادرة الحياة » ، و « المذكرات » تسجل هاتين الملاحظتين الحازمتين ، الواحدة تلو الاخرى : « الخوف من الموت » اولاً ، ومن ثم ، بعد ايام قليلة : « لسوف اموت وحيداً ! » (بالفرنسية في النص التولستوى) ... ولكن الموت يعني بالنسبة الى عملاق الحياة هذا ، كما جربت ان اشرح ذلك في عرض حيويته ، اكثر الافكار هولاً ... ولذا فانه يرتعش بكل كينونته منذ اللحظة التي يبدو له فيها ان بعض عرى شبكة قوته الجبارة الوطيدة قد اخذت ترتخي وتنحل شيئاً فشيئاً ...

ولكن هذا المشخص العبقري لأناه لايخطيء كل الخطأ عندما يشم خيشوماه رائحة نهاية تقترب ، لأن شيئاً ما من تولستوي البدئي يموت في واقع الامر – يموت الى الابد في تلك الأزمة ، وهذا الشيء ليس بالرجل الطافح قوة ، بل هو بالأحرى الفنان الحر الامبالي الذي كان يقبل العالم كمعطية موضوعية لاتتبدل ، واقعية مثل جسده الخاص تماما ، وملك له مثل جسده ايضا ... ان تولستوي لم يسأل العالم حتى الآن عن معناه الميتا فيزيائي ، بل اكتفى بتأمله فقط ، مثلما يتأمل الفنان النموذج الذي ينقل عنه ، وترك الحوادث تأتي اليه ، وفي قلبه الطفل يزدهر ذلك الفرح الذي يمنحه الطبيعي من الأمور ... ان هذه الحوادث قد انتصبت دوما امامه عندما كان

يرسم صورتها ، ولم تجابه مداعباته وعناق يديه الخلاقتين بأية صعوبة أو مضايقة أو عناء . . .

ان هذا التأمل الموضوعي والفني الخالص ، هذه الطريقة في رؤية الحياة ، في سبيل اعادة تمثيلها بكل بساطة ، يصبحان بغتة مستحيلين على الفكر المحمل بالريبة والشكوك . . . ان الجماعية الساذجة قد تحطمت ، وبين الكون والأنا قد فتحت على حين غرة هاوية سحيقة تسيطر فيها البرودة والعفونة جميعا . . . ان الاشياء لا تتقدم الى تولستوي بعد الآن بالالفة نفسها ، ولا تستسلم اليه بكليتها . . . بل هو يشعر بأنها تخفي عنه جانبا منها ، عطفا من أعطافها ، ظلا من ظلالها ؛ تخفي عنه لا يدري اي شيء قاتم ، محفوف بالأخطار ، فائق للوصف لا يخضع له . . . هذا اكثر الناس بصيرة يكتشف للمرة الاولى وجود لغز في الحياة ، ويرتاب في ان للحياة معنى لا يستطيع ان يمسك به بالحواس المادية البسيطة . . . هذا تولستوي يدرك للمرة الاولى انه في حاجة الى آلة جديدة اكثر معرفة واعمق علما ، الى عين اكثر وعيا ، الى عين المفكر الثاقبة ، اذا اراد ان يفهم كل ما في تلك الاعماق المظلمة ويسبر غورها . . . وتتخذ سائر الفرديات لونا آخر ، او بالاحرى إنه لم يعد هناك فرديات ، لم يعد هناك اشياء تقوم في عزلة وانفراد عن بعضها البعض . . . ان كل شيء يتضمن علاقة خفية غامضة مع جماعية لا تفتأ مجهولة بالنسبة اليه ، فهو مضطر ـ بالرغم منه ـ ان يبحث بعد الآن في كل حادثة عن معناها الأخلاقي ، وان يرى في اغرب الأشياء حضور مصير خاص وارتباطه . وان بعض الامثلة لتوضح هذا التحول والدوران الباطنيين بصورة اكثر جلاء وبينة . . . ان تولستوي قد شاهد الناس يحتضرون ويموتون مائة مرة في الحروب التي اشترك فيها ، فصور نهايتهم الدامية ـ دون ان يسأل نفسه ان كان يحق قتلهم ام لا ـ كفنان وكشاعر ، بألاعيب الحدقة وحدها ، باعتبارها شبكية حساسة على مظاهر الاشكال وظواهرها المختلفة . . . وهذا هو الآن يرى في فرنسا رأس مجرم يتدحرج على ألواح المقصلة ، فاذا قوة اخلاقية تتمرد فيه

على الانسانية بأسرها . لقد مر – هـو السيد ، الاقطاعي ، الكونت – ألف مرة الى جانب فلاحيه على متن جواده ، متقبلاً في لامبالاة تحية عبيده المتواضعة كشيء طبيعي مفروغ منه ، بينا خبب الحيوان يغمر ثيابهم بغبار الطريق ؛ وهذا هو الآن يلاحظ للمرة الاولى انهم يسيرون حفاة ، وانهم فقراء معدمون ، وانهم يعيشون وجوداً مذعوراً ، مجرداً عن سائر الحقوق ، فيطرح على نفسه للمرة الاولى هذا السؤال المقلق : هـل يحق له ان يكون عديم المبالاة تجاه فقرهم وبؤسهم ؟ ان عربته قد مرت في موسكو مالا يحصى من المرات الى جانب المستعطين المتجمدين من البرد دون ان يدير رأسه نحوهم أو يلقي انتباهاً الى وجودهم ... فالفقر ، والبؤس ، والاضطهاد ، والدولة العسكرية ، والسجون ، وسيبيريا ، سائر هذه الاشياء كانت بالنسبة اليه أموراً طبيعية ، مثل الثلج في الشتاء ، ومثل الماء في البرك والبراميل ؛ وهذا هو الآن ، أثناء احد الاحصاءات ، وقد استيقظ فكره على حين غرة كي يرى في حال البروليتاريا المخوفة اتهاماً ضد نعيمه الفائض .

حين لم يعد البشر بالنسبة اليه مواد بسيطة لايفعل إلا « دراستها ومراقبتها » ، بل اصبح يسمع نداءهم الذي يخلق له إلزامات أخوية ويفرضها عليه ، حين تلقى ذلك الانذار من الموت الذي أفهمه انه مرتبط هو نفسه بمصير باقي الناس جميعاً ، ذلك المصير الذي يخيم شبح المنية فوقه ويظلله منذ ذلك الحين انهار نظام الوجود المادي ، والخيالي على نفسه بعد ان زعزعه زلزال الوجدان ودمر اسسه ... لم يعد باستطاعته بعد الآن ان يتأمل الحياة بعيني الفنان الباردتين ، بل هو مجبر على التساؤل ابداً دون كلال عن معنى كل حادثة ، وعن عبثها ، وعن شرعيتها على حد سواء ... انه يحس كل ماهو انساني ليس بالنسبة الى أناه ، بعد ان يجعل من نفسه مركز كل شيء ، ليس بقلب كل الكون الخارجي الى باطنه ، بل اجتماعياً ، أخوياً ؛ بقلب باطنه الى الكون المحيط به ... ان وعي اشتراكه مع الجميع ومع كل واحد قد « فاجأه »

مثل داء وبيل ، فراح يتنهد : « يجب ألا نفكر ، ذلك مؤلم للغاية ! » ... ولكن منذ ان فتحت عين الضمير فيه ، اصبح عذاب الانسانية ، ألم الانسانية الاساسي ، اكثر شؤونه شخصية بعد الآن ، وبصورة دائمة لا مرد لهـــا البتة ... وان الرعب الصوفي من العدم هو بالضبط ما يبعث فيه مراقباً جديداً للوجود ، مبدعاً جديداً لم يكن فيه من قبل ... ان الفنان لا يأخذ على نفسه عبء بناء كونه مرة جديدة إلا في الانكار التام لأناه ؛ فهو يبنيه ، ذلك الكون ، حسب القانون الاخلاقي هذه المرة ، ومعجزة الولادة الجديدة تتحقق حيث كان يعتقد ان الموت يسيطر ويتحكم دون مردٍّ لقضائه ... وهذا هو تولستوي الجديد يولد الى الوجود ، ليس تولستوي الذي تجله الانسانية كفنان ، بل ايضاً ذلك الذي تجله على اعتباره اكثر البشر إنسانية على الاطلاق ...

ولكن الكاتب ، المذهول من هول المفاجأة ، لا يحسب بعد ، في تلك الساعة المرهقة من الانهيار ، تلك اللحظة المتقلقلة التي تسبق « اليقظة » (كما سيصف تولستوي فيما بعد ، وقد استعاد هدوءه ، ذلك القلق الذي اجتاحه) ، لا يحسب بعد إذن أن ذلك الانقلاب يشكل انتقالاً من حالٍ الى حال ... انه يحس' نفسه وقد عمي تماماً ، قبل ان تفتح في باطنه تلك العين كلية الجدة والاختلاف ، التي هي عين الوجدان ، ولا يجد حوله إلا الفوضى ، والا الليل المجرد عن كل درب يستطيع المرء ان يسلكها .. ان كونه قد انهار وتحطم ! ... وهو ينظر حواليه في بلاهة ، والفرق يكاد ان يكتم أنفاسه ، الى الظلمة الداجية حيث لا يكتشف اي معنى على الاطلاق ... ويتساءل ، وهو يطرح على نفسه سؤال « الجامعة » (١) الأبدي : « لمَ العيش اذن ، اذا كانت الحياة رهيبة حتى هذه الدرجة ؟ » ... لمَ العناء ، اذا كان المرء لا يفعل الا حراثة حقله من اجل الموت ؟ ... ويروح يتلمس ، كاليائس ، جدران هذا الكهف القاتم الذي هو الكون ، كي يجد منفذاً له في مكان ما ، وسيلة يخلص نفسه بها ، شرارة

---

(١) احد كتب التوراة المنسوبة الى الملك داوود .

من الضياء ، أو وميضا نجمياً يبعث الرجاء في قلبه ... وعندما يرى ان انساناً لا يحمل له من الخارج الخلاص والنور ، يشرع يحفر لنفسه نفقاً ، بصورة منهجية عنيدة، درجة فدرجة دون تعب أو كلل ... وفي عام ١٨٧٩ يسجل على قطعة من الورق الاسئلة المجهولة الآتية :

آ ـ لمَ الحياة ؟
ب ـ ماهو سبب وجودي ووجود الآخرين ؟
ج ـ ماهو هدف حياتي وحياة الآخرين ؟
د ـ مامعنى هذه الثنائية من الخير والشر التي أحسهـا في نفسي ، ولمَ هي موجودة هناك ؟
هـ ـ كيف يجب ان اعيش ؟
و ـ ماهو الموت ؟ كيف يمكنني الخلاص ؟

« كيف يمكنني الخلاص ؟ كيف يجب ان اعيش ؟ » ، تلك هي الصيحة المخوفة التي يطلقها تولستوي ، تنتزعها أظافر الأزمة من قلبه الخافق ... ولسوف تتردد هذه الصيحة من الآن فصاعداً طوال الثلاثين عاماً ، حتى تتراخى شفتاه وتصمتان نهائياً ... رسالة السعادة الآتية من الحواس ، انه لايؤمن بها بعد الآن ! ... والفن لايعزي ، وعدم الاكتراث قد تلاشى ، ونشوة الشباب الحارة قد تبعثرت بصورة قاسية... ومن كل حدب وصوب تنتشر برودة جليدية مبعثها أعماق العدم ، مسكن الموت الخفي ، هذا الموت الذي يحوم حول الحياة ويتلصص ... كيف يمكنني الخلاص ؟ هذه الصيحة تزداد حمية باستمرار ، لانه لايمكن ان هذا الكون الخالي من المعنى ظاهراً ، لايملك ذلك المعنى حقاً وفعلاً ـ معنى يستحيل في الحقيقة الامساك به باليدين ، بله بالعينين ، وحسابه بالعلم الانساني كـأية عملية حسابية اخرى ... انه معنى يقوم فوق سائر الحقائق على الاطلاق ... ذلك ان العقل وحده يكفي كي يفهمنا الحياة فقط ، اما الموت فلا يستطيع ان يكشف لنا شيئاً من

غوامضه واسراره ... ولذا فالحاجة تمس - كما سيتحقق من هذا الامر ذلك الذي كان حتى اليوم عدمياً - الى موهبة جديدة روحانية ، كلية الاختلاف ، كي تمسك بما يمتنع عن الامساك ، وتطبق على مايفلت من قبضة الانسان ... وما دام تولستوي لايجد هذه الموهبة في نفسه ، فإن هذا الملحد الذي هو رجل الحواس في الدرجة الاولى ، هذا الكائن الذي لم يروض قط ، والذي يمزقه الرعب الآن ويذيبه الخوف في قلب الحياة ، وهو في منتصف الطريق بعد ، يرتمي بكل تواضع ، على حين غرة ، أمام الله ، ويخلع عنه في ازدراء علمه الدنس الذي أسعده دون حساب طوال خمسين عاماً ، ويروح يترجى ، جامحاً ، انبثاق إيمان في باطنه : « أعطنيه يارب ، واسمح لي ان اساعد الآخرين في العثور عليه » ! ..

المسيحي المصطنع

« يالهي ، ماأصعب ألا يعيش المرء الا امام الله ، ان يعيش كما عاش اناس كانوا مدفونين في قبو مظلم ، عارفين انهم لن يخرجوا من هناك قط ، وان انساناً لن يدري قط كيف عاشوا او بالرغم من ذلك يجب ، يجب ان يعيش المرء هكذا ، لان مثل هذه الحياة هي وحدها الحياة ... يارب مد لي يد المعونة » .

« المذكرات »

نوفمبر ١٩٠٠

« يارب ، اعطني ايمانا »... هكذا يهتف تولستوي في يأس عميق ، وهو يتوجه الى الله الذي انكره حتى ذلك الحين في عناد شديد . ولكن يبدو ان الله لايعطي نفسه لأولئك الذين يطلبونه في كثير من الحمية ، بدلاً من ان ينتظروا في تواضع ان تنكشف ارادته لهم ... ذلك ان تولستوي يحمل حتى في الايمان تلك الحدة العنيفة التي تشكل عيبه الأساسي ، فلا يكفيه ان يطلب ايماناً يعتنقه ، كلا ، بل يجب ان يمنح هذا الايمان في التو واللحظة ، في ليلة واحدة ، وان يكون هذا الايمان مستعداً دوماً وممتثلاً كالفأس كي ينظف غابة شكوكه العذراء ويطهرها ، لان هذا السيد النبيل قد اعتاد ان تنفذ اوامره بسرعة من قبل خدمه وتحمل الى حيز الانجاز دون ابطاء ، كما ان الحواس ، من جهة اخرى ، قد أفسدته بالاشتراك مع عينيه النافذتين واذنيه الحساستين الحادتين ، وجميعها تنقل اليه ـ في مثل لمح البصر ـ كل علم هذا العالم ومعرفته . انه لايريد ان ينتظر مثل الراهب الناسك الذي يظل ، في عناد ، مستغرقاً في التأمل كي يرى أخيراً النور العلي يتسرب اليه شيئاً فشيئاً .. كلا ، بل هو يريد ان يعود وضح النهار فيشرق حالا في نفسه التي اظلمت واجتاحتها العتمة .. ان فكره الجموح الذي يتحدى سائر العراقيل يريد ، بقفزة واحدة ، بانطلاق وحيد ، ان يبلغ الى « معنى الحياة » وينفذ اليه ، ان « يعرف الله » ، ان « يفكر الله » ، كما وجد الجرأة كي يكتب في شيء من الكفر تقريباً . ان الايمان ، والسكنى في الله ، والطريقة التي يصبح بها مسيحياً حقاً ويصير انساناً متواضعاً طيب القلب ، كل هذه امور يرجو ان يتعلمها بنفس السهولة ، وبذات السرعة التي يتعلم بها حالياً ، بالرغم من بلوغه السن التي يشيب الشعر فيها ، اللغتين اليونانية والعبرانية ... لقد اصبح ، على حين غرة ، مربياً ، ولاهوتياً ، وعالماً في الاجتماع ، في فترة لاتزيد عن ستة اشهر أو سنة سريعة على أكثر تعديل !

ولكن اين يجد المرء ـ على هذه الصورة المفاجئة ـ ايماناً حاضراً بينما نفسه خالية من بذور اي ميل ، مهما يك ضئيلاً ، الى الايمان ؟ ... كيف يمكن ان

يصبح ، في ليلة واحدة ، رحوماً ، محباً ، طيباً متواضعاً ، فرنسسكاني العذوبة ، بينا هو لم يدنِ العالم ، طوال خمسين عاماً ، إلا بعين المراقب الدقيق التي لاترحم ، ولم يرَ إليه إلا بروح العدمي الواعي والقاسي حتى الدرجة القصوى ، ولم يجد فيه شيئاً هاماً جوهرياً إلا نفسه وحدها ؟ كيف يحيل باشارة واحدة من يده تلك الارادة القاسية كالحجر حباً بالناس رفيقا عذباً ؟ اين يتعلم ، اين يكتشف الايمان ، هذا الاستسلام بكل كينونته الى قوة عليا تسيطر على الكون وتتحكم فيه ؟ ويقول تولستوي في نفسه انه سيجده بكل تأكيد عند اولئك الذين يؤمنون ، او يدعون الايمان على الاقل ، عند الام الأرثوذكسية ، الكنيسة التي تحفظ منذ الفين من الاعوام خاتم المسيح ، وما اسرع مايجثو ليون تولستوي (لانه لايمنح نفسه ، هو الرجل الفارغ الصبر ، لحظة واحدة من الراحة) أمام الايقونات ، ويروح يثابر على الصوم ، ويحج الى الاديرة ، ويتناقش مع الأساقفة والكهنة ، ويلتهم الانجيل ورقة فورقة دون كلل أو هوادة ...

ويحاول ، طوال ثلاثة اعوام ، ان يكون مؤمناً بكل معنى الكلمة ... ولكن جو الكنيسة لايفعل إلا نفخ البخور عبثاً في نفسه المتجلدة سلفاً ، نفسه التي تجتاحها الآن ايضا قشعريرة باردة قارسة ... وسرعان مايغلق الباب الى الابد ـ وقد تبددت اوهامه ـ بينه وبين العقيدة الارثوذكسية . كلا ، ان الكنيسة لاتملك الايمان الحقيقي ـ انه يعترف بذلك ـ اوبالاحرى انهاقد بددت مياه الحياة وزروتها ، وتركت ينبوعها الخفاق ينضب ويجف...

ولذا فهو يفتش ابعد من ذلك ... لعل الفلاسفة ، اسياد الفكر ، يعرفون بصورة أفضل « معنى الحياة » الرهيب ؟ وما اسرع مايأخذ تولستوي ، هو الذي جهل دماغه كل مالايقع في نطاق الحواس ، يقرأ في حمى ، بله في جنون ان صح التعبير ، فلاسفة سائر العصور في فوضى ودون ادنى نظام أو ترتيب (وبسرعة عظيمة جداً ايضاً لايمكن ان تسمح له بتمثلهم وفهمهم) ، شوبنهاور في البدء ، هذا

الرفيق الابدي لكل نفس كئيبة ، ومن ثم سقراط وأفلاطون، ومحمداً و كونفوشيوس، ولاوـتسي ، والصوفيين ، والرواقيين ، والمتشككين ، ونيتشه . . ولكنه سرعان مايغلق الكتب ويرميها جانبا .. هؤلاء ايضا لايعرفون وسيلة لرؤية هذا العالم غير التي يعرفها هو نفسه ، هذا الذكاء فوق الحاد الذي يتأمل الاشياء في ألم شديد . انهم ، هم ايضاً ، يسألون اكثر مما يعرفون ، وهم ايضا لايعبرون الا عن فراغ صبرهم في سبيل معرفة الله ، ولكنهم لايعرفون الراحة في الله ابداً ... انهم يبدعون جملا فلسفية للفكر ، ولكن لايخلقون سلاما للنفس التي تظل قلقة دوماً ... انهم يعطون معرفة ، ولكنهم لايعطون عزاء . . .

ومثله مثل مريض قد وقع فريسة العذابات ولم يفده العلم شيئاً .. فهو يذهب بادوائه الى أدوية امرأة عجوز أو الى حمامات القرية ، هكذا يذهب تولستوي ـ اعظم مفكر في الارض الروسية ـ وهو في الخمسين من عمره ، نحو الفلاحين ، نحو « الشعب » ، كي يتعلم اخيراً منهم ، هم الاميون ، الايمان الحقيقي ، كي يتعلم الحكمة من الجاهلين . . . بلى ، ان هؤلاء الاميين الذين لم تفسدهم الكتابات ، هؤلاء المساكين والمعذبين في الارض الذين يشقون في العمل دون شكوى ، والذين يرقدون في احدى الزوايا خرسان صامتين أشبه بالحيوانات عندما يتصاعد الموت من كينونتهم ، هؤلاء الذين لايشكون ابداً ، لانهم لايفكرون البتـــة ، هؤلاء الذين هم القداسة الساذجة ، لابد انهم يملكون سراً ما في قلوبهم ، والا لما استطاعوا ان يحنوا هكذا جبينهم ، في استسلام ودون تردد ، تحت النير الحديدي الذي يرهقهم البؤس به ، لابد انهم يعرفون في سذاجتهم ماتجهله الحكمة العظيمة ويعمى عنه الفكر النافذ ، مايجعلهم يتقدمون علينا في قضايا النفس ، هم الذين يتأخر ذكاؤهم كثيراً عنا ... « ان اسلوبنا في الحياة خاطىء ، أما اسلوبهم فصحيح » ... ولذا فان الله يكشف عن نفسه بصورة مرئية في وجودهم الصبور ، بينما الفكر المتعطش الى العلم يبعدنا «بشره الباطل الشهواني » عن ينبوع الضياء الحقيقي ، الضياء الذي يأتي من القلب ويتدفق

منه ... لو لم يكن في حوزتهم العزاء ، لو لم يكونوا يملكون عشبـــا سحريـــاً وخلاصياً في نفوسهم ، لما استطاعوا ان يتحملوا بكل هذا الهدوء ، وهذه اللامبالاة، وهذا المرح ، حياة بائسة كحياتهم ... لابد اذن انهم يخبئون في اعماقهم ايماناً غير منظور ، شيئا مايرفعهم فوق جاذبية وجودهم الثقيلة كالرصاص ، بحيث ان تولستوي - هو المفكر ذو المزاج المجروح - يجد نفسه وقد تملكته رغبة فارغة الصبر في اغتصاب السر منهم ... لايمكن الا بواسطتهم ، وبواسطتهم وحدهم ، هم « شعب الله » (كما يسمي تولستوي الى اقناع نفسه) ، لايمكن الا بواسطة البسطـــاء ، بواسطة فقراء الفكر ، بواسطة اولئك الذين يعملون بسذاجة ، في تواضع خصب ، اشبه بالحيوانات، لايمكن الا بواسطة هؤلاء وحدهم ان يتعلم المرء الحياة « الصالحة » ، والصبر العظيم والاستسلام الساذج الى وجود قاسٍ ، والى موت اشد قسوة ايضا ...

وبالتالي ، فلنذهب باستقامة اليهم ، في ملء حياتهم ، كي نتعلم منهم السر الالهي! فلنترك ثياب النبل ، ولنرتد قميص الموجيك ! لنبتعد عن مائدة الاطعمة اللذيـــذة والكتب التي لاتفيد ! ان الاعشاب البريئة ولبن الحيوانات العذب سوف تغـــذي الجسد وحدها ، من الآن فصاعداً ، والتواضع والبساطة الساذجة سوف يغذيان وحدهما ايضا هذا الفكر الثاقب كفكر فوست الشهير .. وهكذا فـــان ليون نيقولايفيتش تولستوي ، سيد ياسنايا بوليانا ، والاكثر من ذلك المليك الفكري لملايين البشر ، يأخذ المحراث بيده في السنة الخمسين من حيـاته ، ويحمل على ظهره العريض ، ظهر الدب العملاق ، جرة المياه من النبع ، ويحصد الحبوب بين فلاحيه بحميا لاتعرف الكلل في العمل مطلقاً . ان اليد التي كتبت « آنا كارنينا » و« الحرب والسلم » تغرز الآن المخرز الوسخ في نعل الحـــذاء الذي اشتغله بنفسه ، وتكنس أوساخ غرفته ، وتخيط ثيابه الخاصة دون معونة احد على الاطلاق .

باقصى السرعـــة يجب الاقتراب ، يجب الاقتراب مـــن « الاخوة » ، باقصى السرعة يجب الاتصال الوثيق بهم ... ذلك هو الشيء الرئيسي الذي يتقدم على كل

شيء آخر ... وهكذا فان تولستوي يأمل ، بحركة واحدة من ارادته ، ان يصبح « شعباً » ، وبالتالي ان يصير « مسيحياً حسب الله » ... انه يذهب الى القرية سعياً وراء الفلاحين نصف الارقاء بعد (عندمـــا يقترب يرفعون ايديهم الى قبعاتهم في ارتباك عظيم!) ، او يدعوهم الى داره حيث يسيرون بأحذيتهم الثقيلة ، مرتبكين حيارى ، على الارض المتلألئة ، وكأنهم يسيرون على الزجاج ، ويتنفسون الصعداء عندما يدركون ان « السيد الاقطاعي » ، « السيد اللطيف » ، لا يضمر لهم اي سوء ، ولا يضاعف مرة اخرى - كما كانوا يخشون - الضريبة التي يتناولها منهم ، والعمل الذي يجبرهم عليه في اراضيه الخاصة ، بل يرغب بالضبط (ما اغرب ذلك! انهم يهزون رؤوسهم وهم يتراشقون النظر في ضيق) في الحديث واياهم عن الله ، وعن الله دوماً ... انهم يتذكرون جيداً ، هم فلاحو ياسنايا بوليانا الطيبون ، انه صنع لهم ذات مرة شيئاً من هذا القبيل ايضاً ... كانت المدرسة هي التي تشغل باله - الكونت النبيل - في ذلك الحين ، فظل طوال سنة كاملة (ثم اضجره ذلك) يعلم - هو نفسه - الأولاد ويدرسهم ! ولكن ما الذي يريده الآن ؟ ويصغون اليه يتحدث وفي انفسهم ريبة ، لأن هذا العدمي المتنكر يختلط « بالشعب » كجاسوس في الحقيقة ، كي يتعلم منه الستراتيجية الضرورية لحملته في سبيل الصعود الى الله ، كي يتعلم سر التواضع واستعمال الايمان .

ولكن هذه الاكتسابات الشاقة لا تفيد إلا الفن والفنان وحدهما . وفي الحقيقة ن تولستوي مدين بأجمل خرافاته الى حاكين ريفيين قرويين ، ففنه يكسب بروزاً جديداً ومذاقاً رائعاً بفضل تلك الكلمات التي يزينها الفلاحون بكل سذاجة وبدون اي قصد على الاطلاق ... ولكن سر بساطة النفس لا يمكن ان يتلقنه المرء ابداً . لقد قال دستويفسكي من قبل بوضوح نبوئي في الحقيقة ، عندما ظهر كتاب « آنا كارنينا » ، عن ليفين الذي هو صورة تولستوي نفسه : « ان اناساً على غرار ليفين قد يعيشون مع الشعب ماطاب لهم ، ولكنهم لن يصبحوا شعباً قط . ان خيلاء

الارادة وقوتها ، مهما تكونان متقلبتي الاطوار ، لن تكفيا كي تضها الرغبة في النزول حتى الشعب وتحققاها ... وان الملهم العبقري ليمس بذلك ، في ملئه ، المركز النفساني للتبدل الذي طرأ على ارادة تولستوي ويكشف الاثام عند هذا الاخير، عن الغضب والاجبار ، عن المسيحية المصطنعة التي يعتنقها يائس معذب ، وعن تلك الاخوة للشعب التي لاتنشأ عن حب اصيل وطبيعي ، بل عن ألم النفس وحزنها فقط .

وفي الحقيقة ان تولستوي ، المفكر ، مهما قاتل نفسه في غضب وجنون كي يصنع من شخصه الانسان الأبله والفلاح البليد ، لن يستطيع قط ان يزرع في باطنه نفس الموجيك الضيقة ، في مكان فلسفته الواسعة التي تعانق كل الاشياء وتشملها . ابداً لن يستطيع فكر مصنوع من الحقيقة مثله ان ينحط تماماً حتى إيمان الفلاح المضطرب الغامض : ليس يكفي ان يرتمي الانسان جاثياً في غرفته ، مثل فرلين ، ويصلي : « ياربي ، امنحني البساطة » كي يزدهر في الحال غصن التواضع النقي في صدره ... يجب قبلا ان يكون المرء ويصبح حقا وفعلاً مايبشر به فلا الاتصال مع الشعب بسر الاشفاق ، ولا اكتفاء الوجدان بتدين مليء بالايمان ، يتحققان مباشرة في النفس على غرار احتكاك كهربائي بسيط ... ان ارتداء قميص الفلاح ، وشرب الكفاس ، وحصاد الحقول ، وسائر هذه الاشكال الخارجية للمساواة ، مهما تحققت بسهولة لعبة من ألعاب الاطفال (وهذا نفسه في اتجاه مضاعف) ، فان الفكر لا يستسلم للبلادة قط ، كما ان بصيرة الانسان لاتتردى بصورة اعتباطية ، مثلما يمكن ان تخفض شعلة القنديل مثلا على هوانا .. ان قوة الفكر المشعة ووضوحه المضيء يظلان ابداً المقياس الاصيل غير المتبدل لسائر الافراد على حد سواء ، ولا يبرحان دوماً جمال كل فرد ومصيره ايضاً . تلك قوة تتجاوز الارادة وتتخطاها ، فهي بالتالي تقع فيما وراء حدود ارادتنا هذه ... بل انها لتتأجج بعنف اشد وجموح اعظم كلما وجدت نفسها مهددة في واجبها الرئيسي ، واجب اليقظة البصيرة ، اذ مثلما نعجز ـ بواسطة تمارين روحانية ـ ان نتجاوز ، ولو درجة واحدة ، مقياس المعرفة الاصيلة فينا ، وان نرتفع

الى علم اعلى و معرفة أرفع ، كذلك يظل الذكاء عاجزاً ، بواسطة فعل مباغت تقوم الارادة به ، ان يعود فينزل ـ ولو درجة وحيدة ـ حتى البساطة .

ويستحيل ألا يكون تولستوي ، هذا الفكر المجبول من المعرفة والبصيرة الواسعة ، قد ادرك سريعاً ان الارادة ـ وان تكن في قوة ارادته وعنفها ـ لن تستطيع في ليلة واحدة ان ترجع تعقيدها الفكري الى بساطة النيتشفو(١) ... وان انساناً سواه لم يتفوه بهذه الفكرة الرائعة (وان لم يقلها إلا فيما بعد فقط) : « ان العمل في صنف ضد الفكر ، ذلك اشبه بالسعي الى التقاط اشعة الشمس ، اذ مهما تكن الوسيلة التي يراد تغطية هذه الاشعة بها ، فإنها ابداً تعود الى مافوقها » ... ولم يعد يراوده الوهم ، مع مرور الزمن ، في عجز فكره العنيد ، المحب للقتال والتسلط ، فكر سيد يريد دوماً ان يكون على حق ، عن الاحساس بعاطفة التواضع الساذج الثابت . وكذلك فان الفلاحين لم يعتبروه قط واحداً منهم ، وان اتخذ ثيابهم وشاركهم عاداتهم خارجياً ، كما ان العالم لم يرَ قط في هذا العمل إلا تنكراً فقط ، ولم يرى فيه تحولا تاماً مطلقاً ابداً .

وان اقرباءه ، وزوجته ، وابناءه ، والبابوشكا (٢)، واصدقاءه الحقيقيين (انهم ليسوا بالتولستويين المتهنين) هم بالضبط الذين يراقبون منذ البدء ، في ريبة واستياء عظيمين ، هذه الحيا المختلجة التي يريد بها « الشاعر الكبير للشعب الروسي » (هكذا يدعوه تورجنيف في رسالة كتبها له وهو على فراش موته يناشده فيها ان يترك التبشير كي يعود الى احضان الفن) ان ينزل الى بيئة من اللاثقافة تتنافى طبيعته

---

(١) كلمة روسية معناها : لاشيء .. وقد اصبحت تشير فيما بعد الى اسلوب حياة جماهير واسعة من الشعب الروسي ايام القيصرية ، هذه الجماهير التي جعلت من تلك الكلمة كل فلسفتها في الحياة .

(٢) تصغير بالروسية لنداء الجدة .

وتناقضها . وتقول له عندئذ زوجته ـ تلك الضحية البائسة لأزماته النفسية ـ هذه الكلمة الحاسمة : « فيما مضي كنت تقول انك قلق لانك لاتملك الايمان ... فما بالك لاتجد السعادة الآن ، ادمت تقول انك تملكه ؟ » ... بالحجة البسيطة كل البساطة ، والدامغة حتى الدرجة القصوى ! وفي الحقيقة ان شيئاً لايشير عند تولستوي ، بعد اهتدائه الى إله الشعب ، انه قد وجد في هذا الايمان سلام النفس ، والراحة في الله ، والاكتفاء والرضى .. بل ان المرء ليشعر على العكس ، منذ ان يأخذ تولستوي بالحديث عن عقيدته ، انه يسعى الى تقنيع الشك المختلج في نفسه بهجمات عنيفة ، وتاثيم عدم اليقين في ايمانه بتأكيدات صارخة جوفاء .. ان سائر افعال تولستوي وكلماته ، في هذه المرحلة من الاهتداء بالضبط ، تتميز بعنف مستقبح ، بشيء ما من التيه والادعاء والجلبة والخصام والهوس . ان مسيحيته تزمر بالبوق ، فكأنه في عرض عسكري ، وتواضعه يتخطر مزهواً كالطاووس ، واذا كان المرء يتمتع بأذنين حساستين فإنه يستطيع ان يكتشف ـ في مبالغته باذلال نفسه بالضبط ـ شيئاً من صلف تولستوي القديم ، صلف قد امسى اليوم كبرياء مقلوبة يوحي بها ذلك التواضع بالذات ويغذيها .

ويكفي ان نقرأ ذلك المقطع الشهير من اعترافه حيث يريد ان « يثبت » اهتداءه ، وهو يبصق الاهانات بصقاً ويسكبها سكباً على حياته الماضية : « لقد قتلت اناساً في الحرب ، وتقاتلت في مبارزات عديدة ، وبذرت في لعب القمار الاموال المبتزة من الفلاحين وعاقبتهم بصورة وحشية ، وزنيت مع نسوة عاهرات كما خدعت ازواجاً عديدين ... الكذب والسرقة والزنا والعربدة والقسوة من شتى الانواع ، لقد ارتكبت كل هذه الافعال المخجلة ، ولم يبق جرم غريب عني قط » . وكي لايعذره انسان ، كفنان ، على هذه الجرائم التي يدعي انه ارتكبها ، فإنه يتابع اعترافه الطنان العلني : « ولقد اخذت في ذلك الحين اشتغل بالأدب ، غروراً مني ، ورغبة في الربح والزهو .. لقد اضطررت ، كي ابلغ الى المجد والثراء ،

ان اخنق في نفسي ما يكمن فيها من عواطف صالحة ، وأن اتدهور حتى الخطيئة »...

هذه ، بكل تأكيد ، كلمات موحية ومؤثرة في ارهاقها الاخلاقي بصورة مخيفة حقاً .. ولكن فلنعترف مع ذلك ، ويدنا على قلبنا ، بأنه لم يوجد قط انسان قد احتقر تولستوي وازدراه ، مستنداً الى هذه الاتهامات التي يوجهها تولستوي الى نفسه ، معتبراً إياه « انساناً سافلاً مجرماً » ، او داعياً اياه « قملة » كما يسمي هو نفسه في عطشه المجنون الى الاذلال ، وذلك لانه قام - اثناء الحرب - بخدمة بطاريته كما يفرض واجبه عليه ، او لانه - وهو ذو المزاج الملتهب جداً - قد ارتكب حماقات بشباب عندما كان اعزب بعد ... أفلسنا نشعر هنا بالاحرى ، على العكس ، الصخب غير مستحب ؟ افلسنا نشعر هنا باننا في حضور وجدان مهتاج للغاية يسعى ، بفرط التوبة ، وبغرور مصنوع من التواضع ومجبول منه ، ان يغطي نفسه بالخطايا بأي ثمن كان؟ فلا يوجدهنا ، كما في ذلك الخادم الذي يكمن في « راسكولنيكوف » (١) والذي يريدان يجعل من نفسه - بصورة مغلوطة - قاتلاً ومجرماً ، نفس سكرى بالاعتراف ، تبتدع جرائم لم ترتكبها ، كي تحمل نفسها ثقل الصليب » (٢) ، كي « تثبت » مسيحيتها وتواضعها ؟ أفلا تثبت هذه الرغبة في الشهادة على نفسه ، وهذا التواضع المختلج ، المفجع الصارخ ، هذا التواضع وتلك الرغبة اللذان يفرضها تولستوي على نفسه ، ان التواضع السلمي الهادىء لايوجد - أو لايوجد بعد - في هذه النفس المتزعزعة ، بل ربما كان ههنا ايضاً غرور مقلوب يتضمن خطراً فادحاً ؟ أفلا يمكن ان يكون تولستوي الاذلال «الجديد » هذا هو نفس الرجل ، لكن في اتجاه معاكس ، الذي كان « المجد امام البشر » غايته العظمى في ماضي الزمان؟ ... وعلى اية حال ، فان هذا التواضع لايتصرف **بتواضع** ، بل اننا لانستطيع ، على العكس ، ان نتصور شيئاً اكثر حمية والتهاباً من هذا النضال النسكي ضد الهوى ، هذا النضال

«١» بطل قصة دستويفسكي الشهيرة : الجريمة والعقاب .

«٢» يقول يسوع : من اراد منكم ان يتبعني ، فليترك أباه وأمه ، وليحمل صليبه ويتبعني.

الذي لاهوادة فيه ابداً .

ان هذا المتسرع العديم الصبر لايكاد يحس في نفسه شرارة ضئيلة ، غير ثابتة بعد ، من الايمان ، حتى يندفع في التو واللحظة يريد ان يلهب بها الانسانية بأسرها، اشبه مايكون بأولئك الامراء الجرمانيين البرابرة الذين لم يكد رأسهم يبتل بمياه المعمودية حتى تناولوا الفأس يريدون ان يقطعوا تلك الاشجار من الحور التي كانت مقدسة بالنسبة اليهم حتى ذلـــك الحين ، وان يحملوا الحريق والقتل حتى الشعوب المجاورة التي لم تعتنق الدين الجديد بعد ... ان تولستوي ينطلق ، بقفزات عملاق ، وارادة إله جبار ، في هجوم صاعق على الايمان،ولكن شيئاً لايثبت انه قد استولى عليه حقاً وبلغ اليه ... واذا كان الايمـــان راحة في الله ، واذا كانت المسيحية تقوم في العيش في الطمأنينة والصبر ، فإن هذاالمتسرع الذي لايعرف الصبر لم يكن اذن - في يوم من الايام - مؤمناً ، وهذا الملتهب الذي لايعرف سبيلا الى الرضى لم يصبح قط مسيحياً حقاً ... ان هذاالباحث عن الله ، هذاالمضطرب الابدي،لايمكن ان يعد بين المتواضعين الا اذا كنا نسمي حنيناً عظيما الى الشعور الديني باسم الدين، والا اذا كانت رغبة لاهبة في الله تكفي لان تجعل الانسان كائناً مسيحياً حقاً .

ولكن الازمة التي مر تولستوي بها لاتتخذ قيمة رمزية وتتجاوز مرتبـــة الحوادث الفردية الا لان هذا النجاح قد ظل بالضبط ناقصاً ، ولان القناعة الدينية التي توصل اليها يعوزها اليقين ، بحيث تصبح تلك الازمة مثالاً لاينسى على مر الدهر، يبرهن انه لايمكن - حتى للانسان الذي وهبته الطبيعة الارادة الاشد عنفاً وقوة - ان يقضي على الشكل البـــدئي لشخصيته ويبدل - بفعل ارادي متسلط - الشخصية الخاصة به بشخصية معاكسة . ان شكل الحياة الذي تميزنا به يقبل بدون ريب بعض التحسينات ، وشيئاً من الصقل والتنقية ، كما ان العاطفة الاخلاقية تستطيع - بكل تأكيد - ان تنمي فينا ، بفضل عمل واعٍ مستمر ، ماتتمتع به من صفات مناقبية جيدة ... ولكنها لن تستطيع قط ان تمحي الخطوط الاساسية لشخصيتنا ، ولا ان

تنظم فكرنا وجسدنا حسب شكل هندسي آخر غير الذي جبلنا عليه ...

عندما يعلن تولستوي ان الانسان يستطيع « ان يتخلص من الانانية مثلما يتخلص من عادة التدخين » ، او انه يستطيع ان « يغزو » موهبة المحبة و « يكتسب الايمان عنوة » ، فان نتيجة متواضعة للغاية تكذب ، عنده بالذات ، جهداً عملاقياً قد اصبح جنوناً تاماً تقريبا ... ذلك ان شيئاً لا يثبت ان تولستوي ، المراقب الجبار ، القاسي ، العدمي في جوهره ، الانسان الصفراوي الذي « تلقي عيناه الشرر منذ اللحظة التي يعارضه احد فيها اقل معارضة » قد اصبح مباشرة ، في اثر اهتدائه المسبب عن محاولة عنيفة مبذولة من قبله ، مسيحياً ، مسالماً ، لطيفاً ، عذباً ، طيباً ، « وخادماً لله » ، و « اخاً لاخوته » ... ان « تبدله » قد بدل حقاً افكاره وآراءه وكلماته ، ولكن ليس طبيعته الصحيحة (وكما يقول جوته : ان الناموس الذي تلقيته عند ولادتك ، سوف تسير عليه بالضرورة ، ولن تستطيع ان تفلت منه قط) . ان نفس القلق ونفس التعطش الى العذابات ، قبل « اليقظة » وبعدها ، يعكران نفسه القلقة ويلقيان الاضطراب فيها ... ان تولستوي لم يولد كي يبلغ الرضى ، والله لم « يعطه » بسبب هذا التسرع وفراغ الصبر بالضبط ، الايمان مباشرة .. بل كان لابد له ان يناضل دون كلل طوال ثلاثين عاماً اخرى ، حتى آخر ساعات حياته ... انه لن يجتاز طريقه الى دمشق (١) في ليلة واحدة ، ولا في سنة واحدة ، ولن يقنع بأي جواب حتى تنطفىء نفسه ، ولن يرضيه ايمان قط . بل ان الحياة ستظل – حتى لحظة الحياة الاخيرة – لغزاً مغلقاً في نظره لا سبيل الى حل رموزه ..

وهكذا ليس من جواب على السؤال الذي يطرحه تولستوي عن « معنى

---

(١) ان بولس الرسول قد اعتنق المسيحية وهو في طريقه الى دمشق كي يضطهد المسيحيين فيها .

الحياة » ، وسلام الايمان لم يعط» اقلقه الديني ، وانطلاقه نحو الله ، القوي المتعطش ، لاينتهي الى اية نتيجة مطلقاً .. ولكن الفنان يملك ينبوعاً ثرياً أبـــداً في كل مرة لايستطيع ان يتغلب فيها على نزاع مايمزق نفسه : انه يستطيع ان يسقط حزنه الى الخارج ، وان ينشره على الانسانية باسرها ، وان يجعل من المشكلة التي تشغل نفسه مشكلة عمومية ... وهكذا فان تولستوي ؛ هو الآخر ، يضاعف من شدة الصيحة ، الطافحة ذعراً أنانياً ، المنطلقة من أزمته الفردية : « إلامَ سأصير ؟ » فيجعل منها هـــذه الصيحة الاشد والاعنف : « الامَ سنصير ؟ » ... لايستطيـــع ان يقنع فكره ، فكره العنيد الصلب المراس ، فانه يجرب ان يقنع الآخرين ... واذ لايستطيع ان يغير نفسه ، فانه يسعى الى تغيير الانسانية بأسرها ... ان ســـائر أديان مختلف الازمنة والعصور قد نشأت على هذا الغرار ، كما ان سائر تطورات العالم (وان نيتشه ، اكثر الناس نفوذا الى لب الاشيـــاء ، ليعرف ذلك جيداً) منشؤها « الهرب من الذات » ، هرب انسان وحيد مهدد في نفسه يريد ان يحول عن صدره الخاص السؤال المحتوم فيلقي به وسط الجميع ، عملاً هكـــذا قلق الفرد قلقاً عمومياً .

ولم يصبح ، انه لم يصبح ابداً ، مسيحياً تقياً ، فرنسيسكاني الروح ، هـــذا الانسان ذو الاهواء العظيمة ، والعينين اللتين لايمكن خداعهما ، هو الذي يسكن الشك في قلبه القاسي الملتهب ... ولكنه اقدم على اكثر محاولات العصور الحديثة جنوناً ، مدعياً ـ لانه يعرف بالضبط العذاب الذي يثيره غياب الايمان ـ انقـــاذ العالم من بؤس العدمية ، وجعله اكثر ايماناً مما كان عليه هو نفسه . « ان الوسيلة الوحيدة للخلاص من يأس الحياة هي اسقاط الأنا في الكون بأسره » ... وان هذه الأنا المعذبة المعطشة الى الحكمة ، هذه الأنا التي تخص تولستوي ، تبسط عندئذ امام كل الانسانية ، كهتاف يتضمن معنى التحذير والانذار وكعقيدة في الوقت نفسه ، السؤال المرعب الذي هاجمها بصورة خاصة وضيق عليها الخناق .

عقيدة تولستوي والضلال الذي فيها

« لقد راودتني فكرة عظيمة استطيع ان اضحي
في سبيل تحقيقها بحياتي كلها ... هذه الفكرة هي
تأسيس دين جديد ، دين المسيح نفسه ، لكن
خالصاً مما فيه من عقائد ومعجزات »

تولستوي

« مـذكرات الفتوة » : آذار ١٨٥٥

تولستوي ، في اساس عقيدته ، اساس « رسالته » الى الانسانية ، كلمة الانجيل : « لاتقاوموا الشر » ، ويفسرها على هذه الصورة الخصبة التالية : « لاتقاوم الشر بالعنف » .

يضع

هذه الجملة تتضمن سائر مبادىء تولستوي الاخلاقية في حالة الكمون : ان المقاتل العظيم قد ألقى بعنف شديد ، على جدار العصر ، حجارة هذا المقلاع ، القاها بكل الحمية الخطابية والاخلاقية التي يتميز بها وجدانه المرتعش ألماً وعذاباً ، حتى ليحس المرء ، اليوم ايضا ، بذلك التزعزع الشديد في الصقل نصف المتحطم . ويستحيل ان نقيس الأثر الاخلاقي لهذا الهجوم في كل فعاليته ومداه البعيد : ان القاء الروسيين لاسلحتهم برضاهم وارادتهم بعد معاهدة بريست ليتوفسك ، و « عدم المقاومة » الذي يبشر غاندي به . ونداء رومان رولان الداعي للسلام في معمعان الحرب الصاخبة ، والمقاومة البطولية التي ابداها عدد وفير من الافراد الذين لانعرف حتى مجرد اسمائهم تجاه العنف المطبق على وجدانهم ، والنضال ضد حكم الاعدام ، وسائر الافعال المماثلة التي حدثت مع القرن الوليد ، والتي تبدو في الظاهر منعزلة عن بعضها البعض دون رباط يصل فيما بينها ، لمدينة جميعاً لرسالة ليون تولستوي بانطلاقها العنيف وتيارها الاتي . حيثما اعلنت الحرب اليوم على العنف ، ان في اعتباره وسيلة او سلاحاً او حقاً ، وان في اعتباره مؤسسة إلهية فيما يدعون معدة للدفاع ، ومهما تكن الذريعة التي يريدون ان يبرروا العنف بها ، أكانت الامم تلك الذريعة ، ام الاديان ، ام الجنس ، ام الملكية ؛ حيثما يرفض الحس الاخلاقي ، الموجه نحو الانسانية بأسرها ، ان يهرق الدم ، وان يقبل بجريمة الحرب ، ويرفض ان يعترف - اذ يعود القهقرى حتى « حق القوة » الذي كان يسيطر في العصور الوسطى - بأي انتصار حربي كتعبير عن العدالة الالهية ، في كل مكان ، حتى في هذه الايام ، يجد كل ثوري اخلاقي في سلطة تولستوي وحميته تأكيد قوة اخوية وعضدها .

حيثما يخوّل وجدان مستقل العاطفة الأخوية الانسانية فقط ، باعتبارها القاضي

الأخلاقي الوحيد ، حق اصدار القرار الاعظم ، بـــدلاً من ان يمنح ذلك الحق الى الصيغ الكنسية الباردة او الى ادعاءات الدولة الطموحة ، او الى عدالة صدئة لم تعد تعمل الا بصورة صورية فقط ، حيثما يتصرف وجدان مستقل على هذا الغرار ، فانه يستطيع ان ينتسب الى ذلك العمل المثالي الذي قام تولستوي به ـ وهو نظير لوثر في هذا المضمار ـ عندما انكر بصورة مطلقة على هذه البابوية الحديثة التي هي سلطة الدولة ، هذه الدولة التي تدعي العصمة لنفسها ، كل حق على نفس الانســـان الفرد ، منادياً كل ماعند البشر من انساني كي لايدين احد منهم قط ويصدر احكامه إلا « بقلبه » وحده .

ولكن ماهو هذا « الشر » الذي يريدنا تولستوي ان نحاربه دون اللجوء الى العنف ؟ انه العنف نفسه بكل بســـاطة ، العنف الجوهري الذاتي ، حتى إن اخفى عضلاته وخبأها تحت ثياب الاقتصاد السياسي المؤثرة ، او ثياب الازدهار القومي ، والطموحات الشعبية ، والتوسع الاستعماري ، وحتى انزور ، بكل الحذق والمهارة الممكنين ، غريزة القوة والغريزة الدموية عند الانسان كي يجعل منها مثلاً اعلى فلسفياً ووطنياً ... يجب ألا ننخدع قط .. ان العنف ، حتى في تصعيداته الاكثر اغراء ، يعمل دوماً ليس على جعل البشر اكثر اخوة وقرباً من بعضهم البعض ، بل عـلى مضاعفة سلطة فريق وحيد وتزمته ، وهو بذلك يبقي عـــدم المساواة الموجود في العالم ويخلده . وفي الحقيقة ان العنف يهـدف الى التملك ، الى الحصول على خيرات مادية ومضاعفة هذه الخيرات باستمرار . ولذا فان كل عـدم مساواة ، بالنسبة الى تولستوي ، يبدأ مع الملكية . لاريب ان النبيل الشاب لم يمض عبثاً ساعات وساعات برفقة برودون عندما كان مقيماً في بروكسل ، لابل انه يطرح ـ هو الذي كان يومذاك اكثر الاشتراكيين جذرية ـ مع ماركس نفسه البديهية التالية : « ان الملكية هي أصل كل شر وكل ألم ، وهناك خطر نزاع عتيد بين الذين يملكون فائضاً من الخيرات وبين الذين لايملكون شيئاً منها » . ذلك ان الملكية ، كي تحافظ على وجودها ، مضطرة

بالضرورة الى الدفاع ، بله الى العدوان ايضاً . فالعنف ضروري اذن لاكتساب الملكية ، وهو ضروري في سبيل انمائها ، وهو ضروري كذلك في سبيل الدفاع عنها . ولذا فان الملكية تخلق ، من اجل الدفاع عنها ، الدولة التي تخلق بدورها ، كي تؤمن وجودها ، الاشكال المنظمة للسلطة الارضية : الجيش ، والعدالة ، و« كل هذا النظام من الارهاب الذي لايعمل إلا على حماية الملكية فقط » ، والذي يخضع الدولة وينصاع لها ويعترف بها ، ويسلم نفسه لهذا المبدأ من القوة كل التسليم . لا بل ان الناس المستقلين حسب ظواهر الاشياء — اي المفكرين — يعملون ، حسب مفهوم تولستوي ، في الدولة الحديثة — دون ان يدركوا ذلك — على ابقاء خيرات عدد ضئيل من اصحاب الامتيازات في حوزتهم وملكيتهم ؛ بله كنيسة المسيح نفسها (التي « تناهض الدولة في مغزى الكنيسة الحقيقي ») تنحرف « بعقائد كاذبة » عن واجبها الرئيسي والأولي ، وذلك حين تبارك الاسلحة ، وتوفر الحجج لدعم النظام القائم — الذي هو ظلم في جوهره — ، فهي بالتالي تتجسد في صيغ متيبسة ، وتتفسخ الى عادات وامور اتفاقية . اما الفنانون ، هؤلاء الذين هم ابناء الحرية ، الذين ولدوا محامين للوجدان ومدافعين عن الحق البشري ، فيكتفون من جهتهم بنقش ابراجهم العاجية الحقيرة ، و « يخدرون الوجدان » بمثل هذا العمل الذي ينصرفون اليه بكليتهم . اما الاشتراكية فانها تسعى ، هي الاخرى ، الى شفاء ما لايمكن شفاؤه ، بينما الثوريون ، وهم الوحيدون الذين يريدون ، بفهم صحيح للأشياء ، ان يدمروا نظام العالم المغلوط من اسسه وجذوره ، يرتكبون خطيئة استعمالهم ، هم ايضاً ، وسيلة خصومهم المظلمة فيخلدون بذلك الظلم على الارض ، اذ لايقضون على مبدإ « الشر » ، يعني العنف ، بل يقدسونه بالاحرى .

وبالنتيجة فان اساس الدولة والعلاقة القائمة حالياً بين البشر على سطح هذه البسيطة ، هما مغلوطان ومتعفنان في مفهوم هذه المطالب الفوضوية . ولذا فان تولستوي يرفض في حمية وعنف على اعتبارها عديمة الجدوى وغير كافية — كل التحسينات

المدخلة على شكل الحكم ، والتي يقترحها الديموقراطيون ، والمتفائلون ، والمسالمون، والثوريون على حد سواء . وفي الحقيقة انه ليس من دوما (١) ، وليس من مجلس نيابي (وليس من ثورة بالأحرى) تستطيع ان تخلص الامة من « شر » العنف .. انه ليستحيل ان يوطد المرء اركان منزل مبني على تربة غير ثابتة ، بل هو لايستطيع إلا هجره وبناء بيت آخر يقطن فيه . ولكن الدولة الحديثة تقوم على مبدأ القوة ، وليس على مبدأ الاخوة ... ونتيجة ذلك بالنسبة الى تولستوي ان هذه الدولة محكوم عليها بالانهيار بصورة لامرد لها ، ولن تنفع سائر ترقيعات الاشتراكيـــة والليبرالية الا اطالة احتضارها فقط ، فما يجب تبديله ليس العلاقة السياسية القائمة بين الشعب والحكومة ، بل البشر انفسهم ... ان رباطاً اخلاقياً داخلياً من الاخوة وحدها يجب ان يرص كل تجمع من البشر ويمتنه، بدلاً من ذلك العنف المطبق عليهم من عل من قبل الدولة . وما دامت تلك الاخوة الدينية والاخلاقية لم تأخذ مكان الشكل الراهن من الارهاب الذي يرهق المواطنين ، فان تولستوي يعلن على رؤوس الاشهاد ان حياة اخلاقية حقة تستحيل إلا خارج الدولة ، خـــارج الاحزاب ، في الفراغ السري والخفي الذي يوجد في الوجدان الفردي وحده . وما دامت الدولة توحد نفسها مع العنف ، فان انساناً تلهمه الاخلاق يجب ألا يوحد نفسه مع الدولة مطلقاً . ان مايلزم هو ثورة دينية ، تحرير كل انسان ذي وجدان من سلاسل جماعية مؤسسة على قـــاعدة من العنف . ولذا فان تولستوي يضع نفسه، بقرار مفاجيء عنيف ، خارج اشكال الدولة ، ويعلن نفسه مستقلاً اخلاقياً عن ســـائر الواجبات التي لايمليها عليه ذات وجدانه فقط . انه يرفض ان يعترف بانه «يشكل جزءاً من شعب ومن دولة دون سواهما ، او انه رعية لأيـــة حكومة كانت » . وينفصل بملء ارادته عن الكنيسة الارثوذكسية ، ويقلع ، مبدئياً ، عن التوجه الى

(١) طراز من البرلمان الروسي في عهد القياصرة .

اية عدالة او اية مؤسسة اقامها المجتمع الحالي ، حتى لاتكون له اية علاقة مع هذا الشيطان الذي هو الدولة القائمة على اساس من العنف . وبالنتيجة يجب ألا نخدع ، بفعل الوداعة الانجيلية التي يتحلى بها تبشيره عن الاخوة ، وصبغة التواضع المسيحي التي تكسو اقواله ، والتجائه الى الانجيل عموماً ، يجب ألا نخدع بالصفة المناهضة كلياً للدولة التي تميز نقده الاجتماعي ، وللطاقة المتدفقة والحزم الواعي الذي يعلن بهما تولستوي ، وهو اكثر فوضويي العصر جرأة ، واكثر فوضوييه جذرية ، الحرب بصورة علنية على القيصر ، والكنيسة ، وسائر الالزامات التي تفرضها الدولة على الجماعية . ان عقيدته عن الدولة هي اكثر العقائد المناهضة للدولة فوضوية ، والانفصال الاكثر كمالاً ، منذ لوثر ، الذي يحققه فرد عن هذه البابوية الجديدة التي هي مفهوم عصمة الملكية .

حتى لينين وتروتسكي لم يقوما ، نظرياً ، بخطورة تتجاوز شعار « كل شيء يجب ان يتبدل » الذي ينادي تولستوي به . ومثلما كان جان جاك روسو ، « صديق البشر » يهيء بكتاباته اروقة الالغام التي نسفت بها الثورة الفرنسية الملكية فيما بعد ، كذلك ليس من روسي قد زعزع ، بمثل هذه القوة ، القلاع والحصون الاساسية للنظام القيصري والرأسمالي ، بتهيئة الهجوم عليها ، كهذا الثوري الجذري الذي نعتبره عندنا ، وقد خدعنا بلحيته البطريركية ، وبشيء من الطلاوة والليونة في عقيدته ، رسولاً للوداعة ليس غير . ومثلما كان روسو يستاء لو شاهد اعمال « جنود الثورة » ، كان تولستوي دون ادنى ريب يستاء ايضاً من الاسلوب الذي لجأت اليه البلشفية ، لانه كان يكره الاحزاب (انه يقول في كتاباته بصورة نبوئية حقاً : « مهما يكن الحزب الذي سينتصر ، فلسوف يحتاج ، كي يحفظ سلطته ، ليس الى استعمال سائر اساليب العنف الموجودة فحسب ، بل الى ابتداع اساليب جديدة ايضاً ») . ولكن مفهوماً مخلصاً اميناً عن التاريخ سوف يبرهن يوماً ان تولستوي كان افضل سابق لهذه البلشفية ، وان سائر قنابل الثوريين والغامهم لم تنسف السلطة في روسيا وتزعزعها

بمقدار ما فعلت ثورة هذا الفرد ـ وهو اعظم الافراد على الاطلاق ـ العلمية عـلى السلطات التي لا يمكن قهرها فيما يبدو ، والمتحكمة في وطنه : القيصر ، والكنيسة ، والملكية . ومنذ ان اكتشف ، هو اكثر المشخصين عبقرية ، عيب البناء الذي ينخر في اسس حضارتنا ، الا وهو قيام عمارة دولتنا ليس على قاعدة الانسانية ، قاعدة الجماعية البشرية ، بل على القسوة والتسلط والسيطرة ، فقد استخدم كل عنفه الجدلي ، ومجموع قوته الاخلاقية الهائلة ، طوال ثلاثين عاماً ، في هجمات متجددة ابداً ضد النظام القائم في المجتمع الروسي ... لقد كان ، دون ارادة منه ، ونكار لسيد الثورة ، ومتفجرات اجتماعية ، وقوة بدئية واساسية للتهديم والقلب ، وبذلك كان يحقق ، دون وعي ، ولكن بصورة كاملة ، الرسالة الواقعة على عاتق العبقريـة الروسية . ذلك ان كل فكر روسي لابد له ، بصورة محتومة مقدرة ، من ان يدمر قبلا ، بصورة جذرية وفي الاصول ، قبل ان يعمد الى البـناء ، وليست الصدفة وحدها التي تجبر كلاً من الفنانين الروسيين على الانغماس قبلا في اشد طبقات العدمية القاتمة الشائكة حلكة وسواداً ، كي يحصل فيما بعد ، في يأس متأرث عظيم الاشراق ، ايماناً جديداً حامي الوطيس متأجج النيران . ان المفكر والشاعر وانسان العمل لا يتقدمون عند الروسيين مثلهم عندنا نحن الاوروبيين ، بتحسينات خجولة واحتياطات مليئة بالتقوى والحياء . بل انهم ، على العكس من ذلك تماماً ، يواجهون القضـايا بمثل العنف الذي ينهـال به الحطاب على الخشب ، وبمثل تلك الجرأة المدمرة التي تغذي التجارب المحفوفة بالاخطار . ان روستوبشين (١) لا يتردد ، في سبيل احراز النصر ، في حرق موسكو ، هذه المدينة المدهشة الرائعة ، حتى عتبات دورها . وكذلك فإن تولستوي (وهو نظير سافونارولا في ذلك) لا يتردد في القاء سائر خيرات الانسانية المتمدنة ـ بما فيها الفن والعلم ـ الى المحرقة ، كي يبرر هكذا نظرية جديدة

« ١ » سياسي روسي ، وحاكم مدينة موسكو عام ١٨١٢ ، وهو الذي احرقها عند دخول جيوش نابليون اليها .

افضل ليس غير . لعل الحاكم الديني الذي هو تولستوي لم يدرك قط النتائج العملية التي تنشأ عن مثل هذا الهجوم العنيف الذي يشنه ؛ وهو لم يجرؤ ، بكل تأكيد ، ان يحسب كم من الحيوات الارضية ستلحق بالانهيار المفاجيء لمثل هذا البناء الجبار . لقد اكتفى بأن يزعزع ، بكل قوى روحه وعناد ايمانه ، اعمدة بناء الدولة الاجتماعي... وان شمشون مثل هذا ، عندما يمد قبضتيه ، فان اعظم سطح ينحني تحت ضغطها ويتهاوى .

ولذا فان سائر المناقشات ذات الطابع الرجعي ، المستهدفة معرفة الى اية درجة كان تولستوي يؤيد او يناهض الثورة البلشفية ، ان سائر هذه المناقشات تظل عديمة الجدوى في حضور هذا الحادث الاكيد الثابت الذي لايتطرق الشك اليه مطلقاً ، ألا وهو ان شيئاً لم يساعد الثورة الروسية فكرياً بمقدار ماساعدتها الحرب المهووسة التي اعلنها تولستوي على الخير الفائض وعلى الملكية ، وبنسبة ماقدمت اليها المعونة صواريخ مقالاته وقنابل كراساته . ليس احد من نقاد عصرنـــا ، حتى ولا نيتشه الذي لم يكن يهدف ، على اعتباره المانياً ، إلا الناس المثقفين من دون سواهم ، والذي كان اسلوبه الديونزيوسي الشعري يجرد نفسه من كل تأثير في الجماهير ، ليس ناقد في عصرنا اذن قد القى الاضطراب في النفوس ، ونسف ايمان الجماعات الشعبية مثلما فعل تولستوي . ان تمثاله ينتصب ، بالرغم من رغبته وبالرغم من ارادته ، الى أبد الدهور في البانتيون الخفي عن الانظار ، هذا الذي يضم كبار الثوريين ومدمري السلطات ومبدلي وجه العالم .

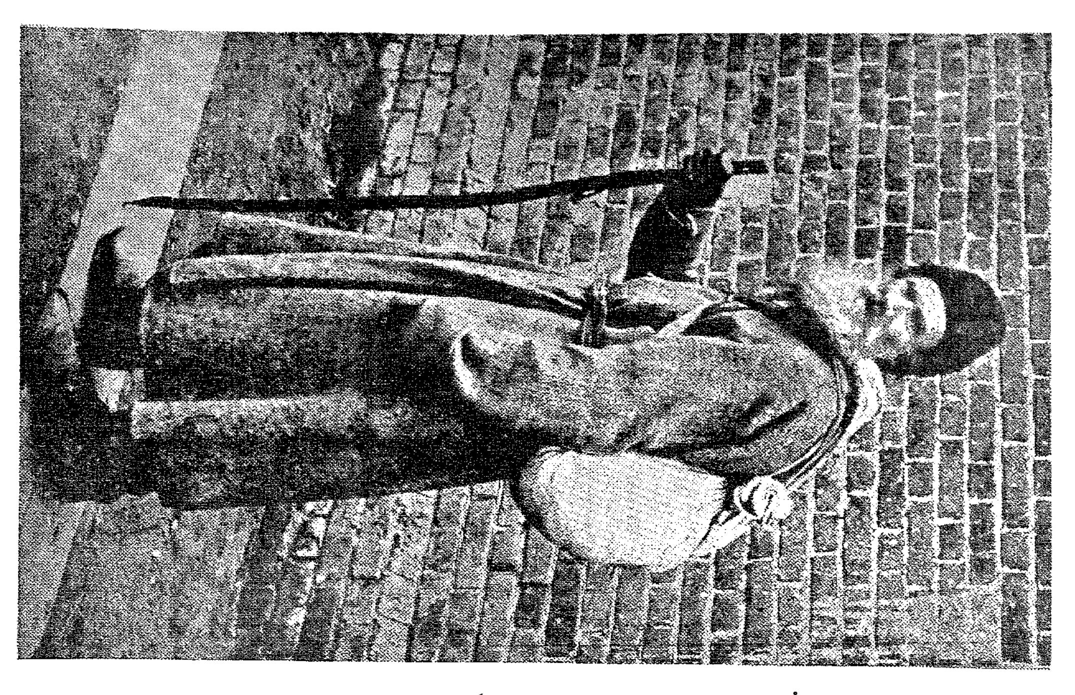
نقول بالرغم من رغبته وبالرغم من ارادته ، لان تولستوي قد ميز بجلاء تام ثورته الفردية والمسيحية ، ميز فوضويته عن مفهوم الدولة ، عن كل ثورة اخرى تتحقق بالافعال والعنف جميعاً . انه يكتب في « السنابل الناضجة » : « عندما نلتقي ببعض الثوريين ، فاننا كثيراً مانقع فريسة الاوهام عندما نعتقد اننـــا لانفعل وايام الا واحداً . انهم ينادون ، مثلنا : لادولة ، لاملكية ، لافوارق ! وبكثير من الاشياء

الاخرى المماثلة ، ولكن هناك فرقاً كبيراً بالرغم من ذلك بينهم وبيننا : ان الدولة لاتوجد بالنسبة الى المسيحي ، اما هم فيريدون على العكس ان يبيدوا الدولة ؛ ان الملكية لا توجد بالنسبة الى المسيحي ، اما هم فيريدون ان يقضوا عليها ؛ ان سائر البشر متساوون بالنسبة الى المسيحي ، اما هم فيريدون ان يدمروا عدم المساواة . ان الثوريين يحاربون الحكومة من الخارج ، اما المسيحية ، فهي لاتحاوب ، بل تهدم اسس الدولة في الداخل » . وهكذا نرى ان تولستوي كان يريد ، لا ان يدمر الدولة عن طريق العنف ، بل ان ينتزع منها الذرة بعد الذرة ، الفرد في اثر الفرد ، حتى تنحل عضوية الدولة من تلقاء ذاتها ، لان القوة اصبحت تعوزها وتنقصها . وعلى اية حال ، فان النتيجة النهائية تظل هي نفسها لاتتبدل : تحطيم كل سلطة ودمارها ... ولقد خدم تولستوي هذه القضية ، بكل حمية ، طوال حياة كاملة . صحيح انه كان يطلب ، في الوقت ذاته ، نظاماً جديداً ، كنيسة تكون هي الدولة ، وان يجابه الرباط الاجتماعي والايجابي للدولة الحاضرة برباط ديني آخر ، وصحيح انه كان يريد ان يؤسس ديناً للحياة ، اكثر انسانية واكثر اخوة ، ان يحقق الانجيل ، القديم والجديد في وقت واحد ، انجيل المسيحيين الاولين وانجيل المسيحية التولستوية معاً ؛ ولكن (ولتكن الامانة رائدنا الاول) لابد من ان نعمد ، كي نقدر عمله في البناء الروحي الجديد حق قدره ، الى تمييز واضح جلي بين النقد العبقري للحضارة ، هذه العبقرية البصرية والارضية التي في تولستوي ، وبين الاخلاقي المتردد ، الناقص ، المتقلب الاهواء والمتناقض الذي نجده في تولستوي الذي صار مفكراً ، هو الذي يريد ، في نوبة من علم التربية ، ليس ان يدرّس ابناء فلاحي ياسنايا بوليانا مثله قبلا فحسب ، بل ان يعلم ، في مقدار مخيف من الطيش الفلسفي ، اوروبا باسرهــا الابجدية العظيمة للحياة الوحيدة « العادلة » . ليس من احترام يستطيع ان ينحني كما يليق به امام تولستوي مارح هذا الاخير ، الذي ولد دون اجنحة ، يشرّح في عالم الحواس بنية الانسانية باعضائه العبقرية . ولكنه لايكاد يزمع ان ينطلق حراً في

ميدان ماوراء الطبيعة ، حيث لاتستطيع حواسه ان تطبق على اي شيء كان ، أو تراه او تمتصه ، حيث يتلمس باحساساته الفراغ عبثاً ، لايكاد يزمع ذلك حتى يلقي بسخفه الفكري الذعر في القلوب بكل معنى الكلمة . كلا ، اننا لانستطيع ان نشدد على هذه النقطة بما يكفي من القوة : ان تولستوي ، بصفته فيلسوفاً نظرياً ومنهاجياً ، قد ضل الطريق بصوره مفجعة ، مثله مثل نيتشه ـ هذا الند لعبقريته، بصفته مؤلفاً موسيقياً . وكما ان موسيقية نيتشه ، الخصبة بصورة رائعة حقاً في حضن لحن الكلمات وعذوبتها ، قد فشلت بصورة بائسة تقريبا في نطاق الاصوات الموسيقية ، يعني في التأليف الموسيقي ، هكذا ينكشف فكر تولستوي الجبار مباشرة ، عندما يخرج من ميدان النقد الحواسي ، ويغامر في ميدان النظرية والمجرد . واننا نستطيع ان نتحقق من هذا الفارق في مؤلف واحد ، مثلاً في كراسه الاجتماعي : « ماذا يجب ان نفعل ؟ » ، الذي يصف قسمه الاول ، بصورة موضوعية وحسب التجربة الحسية ، احياء موسكو البائسة ، يصفها باتقان يجعل القارىء يلهث طوال الوقت مسحوراً بها مأخوذاً بدقتها . ان النقد الاجتماعي لم يتظاهر ابداً على حاجة ارضية اكثر عبقرية وروعة منه في وصف هذه الاكواخ الحقيرة ، وهذه الانسانية الذبيح . ولكن الطوباوي الذي في تولستوي لايكاد ينتقل ، في القسم الثاني من الكتاب ، من التشخيص الى المداواة ، ويدعي انه يقدم ، بصورة عليمة، اقتراحات تهدف الى تحسين تلك الاحوال البائسة ، حتى يصبح كل مفهوم سديمي البنية ، وتختلط الحدود والاستدارات ، وتتزاحم الافكار متسارعة عجلى تدوس على بعضها البعض وان هذا الاضطراب ليتفاقم ، من مشكلة الى مشكلة ، بمقدار ماتزداد جرأة تولستوي ، والله يعلم الى اية درجة تصل جرأته . انه يشن هجماته في مباحثه دون اية تربية فلسفية ، وبفقد للاحترام المطلق ، على كل المشاكل التي مابرحت دون حل منذ الازل ، معلقة في اللانهاية بسلاسل من الكواكب ، ويعتقد انه قد جعلها « محلولة » مثل الهلام .

وكما ان هذا الفكر الذي لايعرف معنى الصبر ابداً قد اراد ، في تسرع وعجالة اثناء ازمته ، ان ينعطف « ايماناً » فكأن الايمان منعطف من الفرو ليس غير ، ويصبح بذلك مسيحياً ومتواضعاً في ليلة واحدة فقط ؛ هذا هو حالياً يريد ، في كتاباته التي تدعي تثقيف العالم ، « ان ينبت غابة كاملة باشارة واحدة من يده ! وهكذا فان ذلك الذي هتف ، في ١٨٧٨ ، يائساً ملتاعاً : « ان كل حياتنا الارضية عبث غير معقول » ، يقدم لنا ، بعد ثلاث سنوات فقط ، لاهوته العمومي ، جاهزاً حاضراً كي نستفيد منه ، متضمناً حلول سائر الغاز هذا العالم ومشكلاته . وطبيعي ان كل تناقض ، في هذه المهارة العجلى ، سيلقي كثيراً من الاضطراب في نفس مثل هـــذا المفكر « العجول » ، ولذا فان تولستوي يعلم واذناه مغلقتان دوماً ، متجاوزاً كل تناقض ، مانحاً نفسه ــ في سرعة مشبوهة مثيرة للشكوك ـ الحل المطلق لجميع القضايا دون تفريق . اي ايمان غير ثابت هو ذلك الايمان الذي يحس ، في كل لحظة ، ضرورة « الاثبات » ! اي فكر غير منطقي تعوزه القوة هو ذلك الفكر الذي تتقدم اليه ، كلما اعوزته الحجج ، كلمة من الانجيل لها القرار الاخير ، والقول الفصل ، والسلطة العليا الوحيدة التي لا يمكن دحضها كما لا تمكن مناقشتها ! كلا ، كلا ، كلا ، اننا لا نستطيع ان نعلن ذلك بما يكفي من العنف : ان مباحث تولستوي العقائدية (بالرغم من بعض التفاصيل التي تتحلى ــ وهذا امر محتوم لامناص منه ــ بميزة عبقرية) ، لهي من عداد مؤلفات الهوس الاكثر قباحة التي يعرفها الادب العالمي ... انها امثلة بغيضة عن فكر متسرع مضطرب ، متكبر واعتباطي ، بل (وذلك مشهد مؤثر عنـد رجل الحقيقة الذي هو تولستوي) غير شريف ايضاً .

ذلك ان اكثر الفنانين اخلاصاً ، الرسول النبيل والمثالي للأخلاق الذي هو تولستوي ، هذا الرجل العظيم الذي يكاد ان يبلغ القداسة ، يلعب بكل تأكيد ، بصفته مفكراً نظرياً ، لعباً رديئاً ومغلوطاً . انه يبدأ ، كي يدفع في حقيبته الفلسفية الكون اللامتناهي للفكر بأسره ، بحيلة فظة من الشعوذة تقوم في تبسيط سائر



تولستوي على الطريق بين موسكو وياسنايا بوليانا

القضايا اولاً ، بحيث تصبح رقيقة بمثابة كورق اللعب .. وهكذا فانه يشرع في المحل الاول ، ببساطة محفوفة بالأخطار ، مفهوم « الـ » إنسان ، ومن ثم مفهوم « الـ »خير ، و « الـ » شر ، و « الـ » خطيئة ، و « الـ » شهوانية ، و « الـ » أخوة ، و « الـ » إيمان . ومن ثم فهو يخلط الورق في إقدام وشجاعة ، ويرفع « الـ » حب فوق رأسه ويلوح به كالورقة الرابحة دوماً ، وهذا هو - تصوروا ! - يربح . إن مشكلة الكون بأسرها ، هذه المشكلة اللامتناهية وغير المحلولة التي درستها ملايين من الأجيال البشرية ، تجد حلها ، في ساعة قصيرة واحدة ، على مائدة الكتابة في ياسنايابوليانا . . . وإن الرجل العجوز ليدهش لذلك كل الدهشة حقاً ، فعيناه صافيتان مثل عيني طفل صغير ، وشفتاه الرماديتان تبتسمان سعادة وفرحاً : انه مذهول ، مذهول كثيراً ، اذ يرى « ما ابسط كل شيء مع ذلك ! » . كيف السبيل بعد هذا إلى تفسير الظاهرة التالية ، ألا وهي ان سائر الفلاسفة ، سائر المفكرين الذين يضطجعون ، منذ الف عام ، في الف ضريح في الف بلد ، قد عذبوا فكرهم بكل هذا الألم وهذا التعقيد ، بدلاً من ان يلاحظوا ان « الحقيقة بأسرها محتواة ، منذ زمن سحيق ، في الانجيل ، واضحة كوضوح الشمس » بشرط ان يفعلوا كما فعل هو ، ليون نيقولايفيتش ، في سنة الرب ١٨٧٨ ، « فيفهمونها كما يجب للمرة الاولى منذ ثماني عشرة مائة من السنوات » ، وينظفون أخيراً الرسالة الالهية من « الجبس الذي طليت به » ؟ (بلى ، انه يقول ، حرفياً ، مثل هذه الكلمات الكافرة !)

بعد الآن اذن قد انقضت كل الآلام وسائر العذابات ، بعد الآن سوف يضطر البشر إلى الاعتراف كم يسهل ان تعاش الحياة : ما عليك الا ان ترمي بكل ما يضايقك تحت المائدة بكل بساطة ، وان تحذف الدولة ، والدين ، والفن ، والثقافة ، والملكية ، والزواج . وهكذا نصفي الى الابد « الـ » شر و « الـ » خطيئة ، فاذا ما

قام كل انسان بحراثة ارضه ، وعجن خبزه ، واصلاح حذائه ، لايعود هناك دولة ، ولا يعود هناك أديان ، بل لايبقى الا مملكة الله الخالصة على الارض . وعندئذ وإن الله هو المحبة ، والمحبة هي غاية الحياة » . اذن فلنبعد عنا سائر الكتب : لا فكر ولا عمل فكر بعد اليوم ! ان « الله » محبة تكفي ، ويمكن ان تتحقق منذ الغد ، « بشرط ان يريدها البشر » .

ويلوح للوهلة الاولى اننا نبالغ كثيراً عندما نعرض محتوى اللاهوت التولستوي الشامل هكذا ، مثلما هو في جوهره وحقيقته . ولكن من المؤسف ان تولستوي هو الذي يبالغ على هذه الصورة المفجعة ، في حمية المهتدي الحديث ، فيتردى بالتالي ، ساعياً الى الافلات من تربة حججه المتقلقلة غير الثابتة ، في عنف مثل هذا الايمان . حقاً ما أبدع الفكرة الاساسية لحياته « إنجيل عدم استعمال العنف » وما اكثر وضوحها واشد ثباتها ! ان تولستوي يريد منا جميعاً ان نكون عطوفين ، متسامحين ومتواضعين روحياً . وهو يدعونا ، كي نتجنب النزاع المحتوم الذي سيثيره عدم المساواة المتفاقم ابداً بين الطبقات الاجتماعية ، **ان نستبق الثورة القادمة من الاسفل بان نبدأها** ، **بملء ارادتنا ، من الاعلى** ، وان نضع العنف خارج الميدان بوداعة ملائمة ، خليقـــة بالمسيحية البدائية . يجب على الغني ان يضحي بثرائه ، وعلى المفكر ان يضحي بغروره ، وعلى الفنانين ان يهجروا بروجهم العاجية ويقتربوا من الشعب ويتفهموه . ونحن جميعاً ، يجب ان نروض اهواءنا ، ان نروض « فرديتنا الحيوانية » ، ونطور فينا ، بدلاً من الرغبة في الاخذ ، الموهبة المقدسة على العطاء . وتلك مطـــالب سامية بكل تأكيد ، قد نادت بها ، منذ الدهور السحيقة ، سائر أناجيل العالم ، مطالب ابدية ، لانه يجب حتى الآن ان نجددها كي تستطيع الانسانية ان تتابع صعودها نحو الاعالي . ولكن فراغ الصبر غير المحدود الذي يميز تولستوي لا يكتفي ، مثل تلك الطبائع الدينية ، بأن يرى في هذه المطالب مجرد بديهية بسيطة ، بديهية ارفع مثل اعلى يمكن للفردان يعتنقه ، بل يطالب ، في فراغ صبره المتساقط ، وبحنق عظيم في الوقت نفسه ، ان

لتحقق وداعة الروح هذه في التو واللحظة دون ادنى تأخير ، وعند سائر البشر دون اي استثناء مطلقاً . وهكذا تستسلم عبقريته الملتهبة ، سعياً وراء الاسراع في اقناعنا، الى اكثر المبالغات هوساً ونقمة . . انه يطلب ان نتنازل جميعاً ، تلبية لوصيته الدينية، عن كل شيء حالاً ودون تأخير ، ان نهجر ونضحي في التو واللحظة بكل مايربطنا شعورنا به ؛ انه يطلب (هو الذي بلغ الستين من عمره) الزهد من الشبان (هذا الزهد الذي لم يمارسه هو نفسه ابداً في نضوجه الرجولي) ؛ انه يطلب من المفكرين اللامبالاة ، بله الازدراء ، تجاه الفن وسائر امور الفكر (وهي التي وقف نفسه عليها طوال حياته) . ولكي يقنعنا حالاً ، بسرعة البرق ان صح التعبير ، بتفاهة الغرور الذي تضيع كل ثقافتنا فيه وتتلاشى ، فانه يهدم بلكمات غضبي يكيلها بكلتا يديه كل عالمنا الفكري ؛ ولكي يجعل النسك التام اكثر اغراء بالنسبة الينا فقط ، فانه يلعن بصورة علنية كل ثقافتنا المعاصرة ، وسائر فنانينا وشعرائنا ، ويجمل تكنيكنا وعلمنا ، ولا يتورع عن اللجوء الى اكثر المبالغات والمغالطات فظاظة في سبيل ذلك. وهو في ذلك كله يكيل الاهانات لنفسه ويذل شخصه في المحل الاول دوماً ، كي تكون له الحرية التامة بعد ذلك على مهاجمة الآخرين وإهانتهم.

انه يعرض اكثر النوايا الاخلاقية نبلاً الى الخطر بثرثرة متوحشة يضيق عنها كل افراط ، ولا يستطيع اي وصف ان يبلغ الى فظاظتها المبالغ فيها . أم عسانا نعتقد حقاً ان ليون تولستوي الذي كان طبيب خاص يفحصه يومياً ولا يفارقه لحظة واحدة، يعتبر الاطباء والطب « اشياء عديمة النفع » ، ويرى ان الحياة « خطيئة » فادحة ، وان الملكية « زينة تافهة » لاحاجة اليها ؟ هل قضى حقاً ، هو الذي تملأ مؤلفاته رفاً من المكتبة كاملاً ، حياته بأسرها « كطفيلي عديم الفائدة » ، « كبرغوث » لاجدوى من وجوده ؟ هل قضى هذه الحياة حقاً بالطريقة التي يصفها هو نفسه بصورة شعرية المبالغة : «اني اطعم ، واثرثر ، واستمع الى الاخرين ، ومن ثم اطعم من جديد ، واكتب واقرأ ، يعني اني اتحدث واستمع من جديد ، ومن ثم اطعم ايضاً ،وألعب،

وأطعم واتحدث مرة اخرى ، ومن بعد أطعم ايضاً واغدو الى فراشي » ؟ أحق ان « الحرب والسلم » و « آنا كارنينا » قد ولدا إلى الوجود هكذا ؟ أحق ان الموسيقى بالنسبة اليه ، هو الذي يذرف الدموع السخينة اذا ما أصغى الى عزف سوناتا لشوبان، ليست الا ماهي بالنسبة الى أولئك « المرتجفين (١) ضيقي التفكير ، ليست الا ناياً ينفخ الشيطان فيه ؟ أيعتبر بيتهوفن حقاً « غاوياً شهوانياً » ، ومآسي شكسبير « عبثاً مطلقاً » ، ومؤلفات نيتشه « ثرثرة فظة ، سخيفة وغير معقولة » ؟ أيعتقد حقـــاً ان مؤلفات بوشكين لا تصلح ، هي الاخرى ، « إلا كي توفر للشعب ورقاً للفائفه » ؟ والفن الذي خدمه بصورة اروع واعظم مما فعله اي انسان آخر ، أهو حقاً مجرد « زينة اناس عاطلين » ليس غير ؟ وهل الخياط جريشا ، والحذاء بيوتر ، هما حقاً بالنسبة اليه حكم استيطيكي اسمى من اي حكم اصدره تورجنيف او دستويفسكي مثلا في ذلك المضمار ؟ أيعتقد حقاً ، هو الذي « كان في شبابه زانيـــاً لا يكل ولا يتعب » ، والذي أنجب فيما بعد ، في سرير الزوجية ، ثلاثة عشر ولداً ، أيعتقد حقاً ان سائر الشبان سوف يصبحون نماذج للعفة ، ويشوهون انفسهم مثـــل المخصيين متأثرين بنداءاته ، راغبين في الزهد حسب وصاياه ؟

من الواضح ان تولستوي يبالغ مثلما يفعل رجل مهتاج حانق. ولا ريب ان السبب في هذه المبالغة ، منطقياً ، هو مايعانيه من تأنيب الضمير ، او لعله يريد من ذلك ألا يلاحظ اي انسان كان كيف فاز هو نفسه بنصيب الاسد من « براهينه ».

«١» تعريب كلمة quakers الانكليزية ، وهم فريق ديني تشكل في القرن السابع عشر ، كانوا يجتمعون في قاعات عـــارية وينتظرون في صمت حلول الروح القدس ، فاذا احس به احدهم - وذلك يتضح بارتجافه - قام وخطب في الآخرين الذين يصغون اليه بانتبـــاه عظيم. والمرتجفون لايعترفون بالاسرار ، ولا يقسمون الايمان في المحاكم ، ولا يمسكون السلاح قط ، ويعتبرون الحرب صراعاً بين اخوة ، ولا يعترفون بالرتب الكهنوتية ، ولا يكشفون عن رؤوسهم حتى امام الملك.

وفي الحقيقة ان الاحساس الذي يراوده احياناً بكون هذا العبث الصاخب ينهـــار بذات المبالغة التي يتضمنها يخترق اعمق اعماق وجدانه النقدي كالبريق الخاطف ، حتى لقد كتب ذات يوم: « ان املي ضئيل في ان يقبل الناس براهيني ، او حتى في ان يناقشوها بصورة جدية ! «وانه محق في ذلك بصورة رهيبة حقـــاً ! اذ مثلما كان يستحيل مناقشة هذا الفكر ، الذي يدعي التسامح ، اثناء حياته (ان امرأته تتنهد وتقول : «يستحيل اقناعه ابداً ». وتقول أفضل صديقـــاته ايضاً :« ان محبته لذاته لاتسمح له ابداً بالاعتراف بخطيئة واحدة ارتكبها ») ، كذلك لايعقل الدفاع عن بيتهوفن او شكسبير ضد تولستوي . يحسن بمن يحب تولستوي ان يغمض عينيه حيث يظهر الرجل العجوز بصورة واضحة جداً صنف منطقه، ويتعامى عنه . والحقيقة ان ليس انسان يتمتع ببعض الاعتبار قد فكر لحظة واحدة ،تجاه هذه الانفجارات اللاهوتية الصادرة عن تولستوي ، ان ينكر بصورة مباغتة الفي سنة من النضال في في سبيل السمو بالحياة الى مراتب الروح ، كما يفعل المرء مثلا حين يغلق صنبور الغاز في داره،وان يلقي بين الاقذار قيمنا الاكثر قداسة دفعة واحدة . ذلك ان اوروبا ـ وقد ولد لها في ذلك الحين بالضبط مفكر مثل نيتشه يرى ان افراح الفكر وحدها هي التي تجعل ارضنا الثقيلة قابلة للسكنى حقاً ـ لم تخامرها ادنى رغبة قط ـ والله يعلم ذلك ـ في ان تخشوشن ،وتتبلد ، وتعيش حياة منغولية ، تلبية لوصية اخلاقية بسيطة ساذجة ، فتنزلق في خضوع تحت الكيبيتكا وتنكر ـ على اعتباره خطيئة « مجرمة »ـ ماضياً فكرياً عظيم الروعة والبهاء !

لقد كانت اوروبا ،وستظل دوماً ، عميقة الاحترام حتى لاتخلط بين الاخلاقي الامثل ورائد الوجدان البطولي الذي في تولستوي ، وبين هذه المحاولات اليائسة في سبيل تحويل الأزمة العصبية التي انتـــابته الى فلسفة عمومية ، والعذاب الحرج المشوب بالقلق الذي طغى عليه الى اقتصاد سياسي قائم بذاته . ولسوف نميز دوماً

بين الدوافع الاخلاقية العظيمة التي نشأت عن حياة هذا الفنان البطولية ، وبين ذلك التطهير للثقافة الذي اراده هذا العجوز الغضوب كالفلاح الفظ - المعتصم في قلاع النظرية المحضة - ان يمارسه ويخرجه الى حيز التحقيق . ان خطورة تولستوي ورزانته قد زادا وجدان جيلنا عمقاً بصورة لامثيل لها ، ولكن نظرياته المتداعية تشكل اعتداء منقطع النظير على فرحة الحياة ، ميلاً قميناً براهب نسكي يريد ان يرجع القهقرى بثقافتنا حتى مسيحية بدئية يستحيل تحقيقها ، مسيحية قد تخيلها شخص ليس هو بالمسيحي ، وبالتالي فهو فكر قد تجاوز مرحلة المسيحية وتخطاها .

كلا ، اننا لانعتقد ان « الزهد يسير الحياة بأسرها » ، وان من واجبنا ان نحيل هوى الامور الدنيوية هزيلاً جداً في نفوسنا ، فلا نحملها الا واجبات واحكاما مستقاة من التوراة . اننا لانثق بدليل لايعرف شيئاً من قوة الفرح الخلاقة المحيية ، ولا يهدف الا الى تضييق الخناق على ألعاب حواسنا الحرة وعرقلتها ، بما فيها اكثرها سمواً وجمالاً على الاطلاق : الفن ! اننا لانريد ان نهمل شيئاً من فتوحـــات العلم والتكنيك ، لانريد ان نهجر شيئاً من تراثنا الغربي ، لاشيء على الاطلاق ، لا كتبنا وآثارنا الفنية ، ومدننا ، وعلمنا ، ولا اصبعاً ، ولا « حبة واحدة » من واقعنا الحسي والمرئي ، وذلك في سبيل لست ادري اية جملة فلسفية ، واقل من ذلك ايضاً في سبيل جملة رجعية ومتداعية ستعود بنا القهقرى الى حيـــاة السهب والى البلادة الفكرية . اننا نرفض ان نستبدل ، مقابل غبطة سماوية ، الثراء المدهش لحياتنا الراهنة ببساطة ضيقة لست ادري ماهيتها ... اننا نفضل ان نملك الجرأة على أن نكون « خطاة » بالاحرى من ان نكون بدائيين ، ان نكون متأرثين هوى من ان نكون حمقى وصالحين حسب التوراة . وهـــذا هو السبب في ان اوروبا قد ألقت

بتجمعات نظريات تولستوي الاجتماعية في خزانة القراطيس الادبية بكل بساطة ، فعلت ذلك وهي مليئة حقاً بالاحترام نحو تلك الارادة الاخلاقية بصورة مثلى ، ولكن ليس دون ان تضعها جانباً بالرغم من ذلك ، اليوم والى الابد . ذلك ان التأخر والرجعية ، حتى في اكثر اشكالهما ارتفاعاً وسمواً ، وحتى اذا قدمتهما عبقرية رائعة كعبقرية تولستوي ، لايمكن ابداً ان يصبحا خلاقين ، كما ان ماينشأ عن اضطراب النفس الفردي لايمكن قط ان يوضح اضطراب النفس العمومية ويبينه . فلنكرر ذلك مرة اخرى وبصورة نهائية : ان اقوى منقب نقدي في عصرنا ، تولستوي ، لم يزرع حبة واحدة في ارض مستقبلنا الاوروبي ، وهو بذلك روسي في الصميم ، من عبقرية جنسه وجيله حقاً وفعلا .

وفي الحقيقة ان مغزى القرن الاخير ورسالته كانا يقومان ، بالنسبة الى الروسيا ، في نبش سائر الاعماق الاخلاقية ، وحفر سائر المشاكل الاجتماعية ، وتعريتها حتى جذورها الأصلية ، وكل ذلك في قلق مقدس وعاطفة لاتقف عند حد ابداً . وان احترامنا لينحني كثيراً في النهاية امام النتاج الجماعي لفنانيها العباقرة ، فنحن اذا كنا نحس كثيراً من القضايا بصورة اعمق من ذي قبل ، واذا كنا نعرف قضايا اخرى بصورة اكثر ثباتاً ويقيناً من ذي قبل ، واذا كانت قضايا الزمان والقضايا الابدية التي تعرضت الانسانية لها تتقدم الينا بصورة اشد قسوة وإيلاماً وأقل شفقة ورحمة من ذي قبل ، فاننا مدينون بذلك الى الروسيا والى الادب الروسي في الدرجة الاولى . واننا مدينون الى هذا الاخير ايضاً بذلك القلق الخلاق الذي يمكننا ، بتجاوز الحقائق القديمة ، من بلوغ حقائق جديدة والارتقاء اليها . ان التفكير الروسي بأسره هو اختبار روحي ، قوة مرنة ومتفجرة ، ولكنه ليس بايضاح للفكر ابداً .

انه يشترك ، مثل تفكير سبينوزا ، ومونتين ، وبعض الألمانيين ، في توسيع المدى الفكري للكون بصورة رائعة ، بل ليس اي فنان معاصر قد نبش روحنا مثلما فعل تولستوي ودستويفسكي . ولكن اياً منهما لم يساعدنا على خلق نظام جديد ، بل اننا نرفض حلولهما ، حيث يحاولان ان يستخرجا ، من فوضاهما الخاصة ، من فوضى نفسهما اللامتناهية ، رد فعل يعطينا معنى لهذا الكون ومغزاه . ذلك ان كلاهما ، تولستوي ودستويفسكي على حد سواء ، يرتميان في رد فعل ديني بدافع قلق بدئي ، يسعيان الى الافلات من ربقة الذعر الذي تبعثه فيهما العدمية المفتوحة امامهما كالهاوية السحيقة ... وان كلاهما يتعلقان ، كي لا يسقطا في قعر هاويتهما الداخلية ، بالصليب المسيحي في عبودية ، ويغمران العالم الروسي بالسحب في ذات الوقت الذي كانت صواعق نيتشه المطهرة تحطم فيه سائر آلهة الذعر العتيق إربا اربا ، وتضع بين يدي الأوروبي ، مثل مطرقة مقدسة ، الايمان بقوته وحريته .

يالمشهد الخيالي الغريب ! ان تولستوي ودستويفسكي ، وكلاهما أقوى فكرين أنجبهما الوطن الأم ، يرتجفان فرقاً على حين غرة ... ان ارتعاشاً ترسله الرؤى في اوصالهما يجتاحهما في ملء عملهما ، فيرفع كلاهما عندئذ ، الى الامام منه ، الصليب نفسه، الصليب الروسي ، ويدعوان المسيح معاً ، مسيحاً يختلف حسب كل منهما كمخاص ومفتدٍ للعالم الذي ينهار .

هذان هما ينتصبان ، كل في كرسيه ، مثل راهبين حانقين من رهبان القرون الوسطى ، متعارضين ان في فكرهما او في حياتهما ايضاً : دستويفسكي رجعي مغرق في رجعيته ، مدافع عن الحكم المطلق ، مبشر بالحرب والارهاب ، مستسلم في جنون وحميا الى نشوة القوة التي تتسلط على كل شيء وتسيطر عليه ، اجير للقيصر

الذي ألقي به في الزنزانات ، عابد لخلاص استعماري يغزو الكون ويجتاحه ؛ امـــا تولستوي فينتصب في وجهه ، ساخراً ، بذات الهوس المجنون ، بكل مايجده الآخر ، فوضوياً بصورة صوفية يتدارك ماعليه الآخر من الذل والعبودية بصورة صوفية أيضاً ، مسمراً الى عمود الاعدام القيصر كقاتل مجرم ، والكنيسة والدولة كسارقين مذنبين ، لاعناً الحرب ، حاملا المسيح كذلك في شفتيه والانجيل في يديه ؛ ولكن كلاهما يرفضان العالم في انطواء من التواضع والبلادة ، بفعل رعب عجيب يملأ نفسهما المتزعزعة . لابد ان هذين الفكرين يملكان لست ادري اي تأله نبوئي كي ينشرا على شعبهما ، بمثل هـــذه الصورة العاتية ، خشيتهما الرؤوية ، يملكان حدساً عن نهاية العالم والدينونة الأخيرة ، علم الملهم الذي يحس الأرض الروسية تحت قدميه وقد امتلأت باكثر الانقلابات هولاً ، اذ إلام تصير وظيفة الشاعر ورسالته ، ان لم تقوما في الاحساس السابـق النبوئي بالحميا التي تولد في جو العصر ، والرعد الذي يتأهب في السحب العالية ؛ إن لم تقوما في سيطرة اضطراب مخاض عصر جديد عليه وتملكه لروحه ؟ انهما ينتصبان – وكلاهما مبشران بالتوبة ، وكلاهما نبيان للغضب نشوانان بالمحبة ، مستضيئين بصورة مفجعة على عتبة عالم يموت ، يحاولان دوماً ان يمنعـا الكارثة التي أخـــذت اهتزازاتها تشمل الجو منذ الآن ، اشبه مايكونان بوجهين عملاقين من وجوه العهد القديم لم يرَ عصرنا مثيلاً لهما قط .

ولكنهما لايستطيعان إلا التنبؤ بما سيحدث ، دون ان يستطيعا تبديلاً لمجرى الامور . ان دستويفسكي يسخر من الثورة ، ولكن هـذه القنبلة التي قضت على القيصر تنفجر ، في اثر مأتمه تماماً . ان تولستوي يجلد الحرب جلداً ، وينادي بالمحبة على هذه الارض ، ولكن التربة لم تكد ترتدي الخضرة اربع مرات فوق نعشه ،

حتى دنست العالم ابشع جرائم التذابح الاخوي التي عرفهـا التاريخ . إن شخصياته ـ التي كان هو نفسه يحتقرها ـ وفنه قد عاشت جميعاً ، ولكن النسمة الاولى من الريح قد أطاحت بعقيدته ، فكأنها فقاعة من الصابون ليس غير . انه لم يشاهد انهيـار ملكوت الله ، لم يحضر الفشل المطلق التام الذي منيت به عقيدته عن الحب ، ولكنه قد احس ذلك دون ريب لان خادمه قـد حمل اليه ، وهو جالس في طمأنينة بين اصدقائه في السنـة الاخيرة من حياته ، رسالة فضها وقرأ فيها :

« كلا ، ياليون نيقولايفيتش ، لست استطيع ان افكر ، مثلك ، ان العلاقات بين الناس يمكن ان تتحسن بواسطة الحب وحده . ان الناس ذوي التربية الحسنة والذين يأكلون حتى شبعهم يستطيعون وحدهم ان يتكلموا هذه اللغة . ولكن ماذا تقول لاولئك الذين يتضورون جوعـاً ، منـذ طفولتهم ، والذين ينحنون طوال حياتهم تحت نير الطغاة ؟ انهم سيناضلون وسيجربون ان يخرجوا من العبودية . واني اقول لك ذلك ، في عشية موتك ياليون نيقولايفيتش : ان العالم سوف يختنق بعد تحت امواج الدماء المهرقة ، ولسوف يقتل ويمزق ارباً ارباً اكثر من مرة اخرى ، ليس الاسياد وحدهم دون تفريق في الجنس فحسب ، بل اولادهم ايضاً ، حتى لايعود هناك ماتخشاه الارض من جانب هؤلاء . واني لآسف انك لن تكـون عندئذ على قيد الحياة ، كي تكون شاهداً عيانيـاً على خطيئتك . اني اتمنى لك موتاً هادئاً » .

ان احـداً لايدري من الذي كتب هذه الرسالة الشبيهة بالاعصار . أهو تروتسكي ، ام لينين ، ام احد الثورويين الذين يتعفنون في قلعة شلوسلبورغ ؟ اننا

لن نعرف ذلك قط ، ولكن لعل تولستوي قد ادرك منذ تلك اللحظة ان عقيدته ليست الا دخاناً ، وإلا باطلاً في وجه الواقع ؛ وان الهوى المتوحش المتبلبل سوف يكون اقوى دوماً بين البشر من المحبة الاخوية . ويحدثنا الشهود ان سيماء وجهه قد اكتست عندئذ بطابع الخطورة ، وانه تناول الرسالة وانسحب الى غرفته مستغرقاً في التفكير ، وكأنما جناح التنبؤ الجليدي قد احتف برأسه الذي كبر وشاخ .



النضال في سبيل التحقيق

« لأسهل ان يكتب المرء مجلدات عديدة في الفلسفة ، من ان يضع مبـــدأ واحداً في حيز التطبيق » .

تولستوي

« المذكرات » ١٨٤٧

ان تولستوي لم يقرأ دون انفعال، في الانجيل الذي كان يتصفحه في ذلك الحين بحمياعظيمة، هذه الكلمات النبوئية : «ان من يزرع الريح يحصد العاصفة»، لأن ذلك هو المصير الذي تحقق حالياً في حياته . ليستحيل على اي فرد كان ، وعلى فكر عنيف أقل من اي كائن آخر ايضاً ، ان يلقي في العالم بقلقه الروحي دون ان يضطر بالضرورة الى التكفير عن ذلك : تلك الثورة سوف تنعكس اذن على صدره الخاص وتتدفق بعنف عظيم ، في الف شكل وشـــكل ، تجتاح كل شيء في اعصارها الجبار ..ونحن لانستطيع اليوم ، بعد ان خفت حدة المناقشة منذ زمن طويل ، ان نقدر بصورة تامة عظم الرجاء المجنون الذي اشعلته رسالة تولستوي منذ ندائها الاول في الروسيا ، وأبعد من ذلك أيضاً في العالم بأسره: تلك كانت ثورة للنفوس دون ادنى ريب ، يقظة جبارة لوجدان شعب كامل . وعبثاً منعت الحكومة التي ذعرت لنتائج مثل هذا الانقلاب كتابات تولستوي الجدلية ؛ فهي تمر من يد الى يد منسوخة على الآلة الكاتبة ، او تعبر الحدود خفية بعد ان طبعت في الخارج ، وقلب الانسانية المفتوح لكل رسالة خلاصية يستدير في تهلل نحو صاحبها بمقدار ما يشدد هذا الاخير هجومه الجريء على عناصر النظام القائم : الدولة ، والقيصر ، والكنيسة ، وبمقدار ما يطالب في حماسة عظيمة بنظام اجتماعي أفضل بالنسبة الى قريبه الانسان . ذلك ان عالمنا الروحي قد احتفظ تماماً ، بالرغم من الخطوط الحديدية والبرق واللاسلكي ، بالرغم من المجهر ومن كل سحر التكنيك المتقدم ، بذات التوقع المسياني الذي يستدير نحو حال أخلاقية أسمى ، هذا التوقع الذي كان يتصف به ايام المسيح ، ومحمد ، وبوذا . إن طموحاً متجدداً دوماً الى دليل ومعلم يحيا ويهتز ، بصورة خفية ، في نفس الجماعات البشرية المتعطشة أبدياً الى المعجزات . وذلك هو السبب في ان الانســـــان يمس العصب الحساس

لهذا العطش الى الايمان في كل مرة يتوجه فيها الى الانسانية ، ممنياً اياهـا ببعض الوعود ، وأن مؤونة لامتناهية من الاستعداد للتضحية تستقبل في كل مرة ذلك الذي يجد الجرأة على النهوض ، ويجد الشجاعة على ان يتفوه بهذه الكلمة ، الثقيلة بالمسؤولية اكثر من اية كلمة اخرى : « اني اعرف الحقيقة ».

ولذا فان ملايين الانظار الطافحة بالنفوس تلتفت في نهاية القرن ، من كل حدب وصوب في الروسيا، الى تولستوي منذ اللحظة الاولى التي يعلن فيها عن رسالته الرسولية . ان « الاعترافات » التي لم تعد بالنسبة الينا ، منذ زمن طويل ، الا وثيقة نفسانية ، تسكر الشبيبة المؤمنة مثل بشارة الهية منزلة من السماء ، فيهتفون في نشوتهم العظيمة : هذا اخيراً انسان قوي ، حر ، والاكثر من ذلك انه اعظم شعراء الروسيا ، يعبر كي يجعل منه حقاً مشروعاً عما لم يك حتى ذلك الحين الا موضوع شكاوى المحرومين في الأرض ، عما كان البشر نصف الأرقاء وحدهم يهمسون به بصورة خفية ، ألا وهو ان النظام الراهن في العالم نظام ظالم ، غير اخلاقي ، وبالنتيجة غير قابل للدفاع عنه ، وانه يجب بالضرورة التفتيش عن شكل جديد وأفضل لهذا النظام .

وهكذا فان انطلاقاً لم يكن في الحسبان يشمل بغتة سائر المستائين ، ولا يصدر عن فيه احد اولئك المنمقين المتمنين لحديث التقدم ، بل عن فيه فكر حر عصي على الفساد لايجرؤ اي انسان ان يرتاب في سلطته وإخلاصه . ويسمع هؤلاء المستاؤون ان ذلك الرجل يريد ان يبين الطريق بمثال حياته الخاصة ، بكل فعل من افعال وجوده ، فيتنازل عن ميزاته ككونت نبيل ، ويتنازل عن املاكه كرجل ثري ، ويريد ـ هو اول عظماء هذا العالم وملاكيه ـ ان يأخذ مكانه ،

متجاهلاً كل الفروق ، بين جماعة الشعب الذي يكد جسدياً ويكدح ، حتى تتظاهر أخيراً على هذه الأرض الاخوة الدينيةبدلاً من طغيان الدولة ، وملكوت الحب الالهي بدلاً من قيصرية العنف والارهاب . وان رسالة هذاالفادي الجديد للمحرومين تبلغ حتى غير المثقفين من الناس ، حتى الفلاحين والاميين انفسهم ... وما اسرع مايتجمع التلامذةالاولون ، ويأخذ فريق التولستويين بتحقيق كلمة المعلم بصورةحرفية، بينماتسهر من ورائهم وتنتظر كتلة المضطهدين الذين لا يحصى لهم عدد، يريدون ان يعرفوا ان لم يكن هذا الانسان المخلص قدوجد عوناً لهم ، قد عثر على رجاء يقدمه لهم ، هم الذين طالما خابت آمالهم وتحطمت في هذا العالم القاسي . وهكذافان ملايين القلوب ، ملايين الانظار تتطلع الى الامام من تولستوي صاحب البشارة الجديدة ، وتراقب في نهم كل فعل وكل حدث من حياته التي اتخذت حالياً اهمية عمومية شاملة : وذلك ان هذاالرجل قد تعلم شيئا، ولسوف يعلمنا ».

ولكن تولستوي ـ وذلك امر غريب حقاً ـ لا يبدو انه ادرك ، منذ البدء ، اية مسؤولية عظيمة قد القاها على عاتقه عند ما جرفي محيط حياته الخاصة هذا التيار غير المنتظر من ملايين الأفراد الذين اخذوه على حين غرة . ان له من البصيرة مايكفي بكل تأكيد كي يدرك ان مثل هذه العقيدة عن الحياة لا يمكن ان تظل أحرف باردة على الورق فقط بالنسبة الى من ينادي بها ويبشر ، بل لابد من انجازها بصورة مثالية في وجوده الخاص . ولكنه يحسب (وتلك هي الخطيئة التي يرتكبها في البدء) انه قد فعل الكثير ما دام قد بين بصورة رمزية ، بتطبيق سطحي على شخصه ، كيف يمكن تحقيق تعاليمه الاجتماعية والاخلاقية الجديدة ، ووهبها من حين لآخر ، في سلوكه العام ، اعتناقاً مبدئياً . وهكذا فهو يرتدي ثياب الفلاحين ، كي لا يظل هناك

اي فارق بين السيد وخدمه ، ويشتغل في الحقل بالمنجل والمحراث ، ويطلب من «رجبيين» ان يرسمه في هذا المشهد كي يعرف الناس جميعاً ويتحققوا بواسطة هذا البرهان الموضوعي ان تولستوي لايعتبر عمل الحقل ، العمل الفظ والشريف الذي ينجزه المرء كي يكسب خبزه ، امراً مخجلاً ابداً ، وكي لايخجل احد بعد الآن من هذا العمل ، مادام هو نفسه ، ليون تولستوي ، الذي لاحاجة به الى ذلك السلوك كما يعرف الجميع حق المعرفة ، والذي قد اعفته عبقريته تماماً من هذا الالزام ، يقبل بذلك العمل في فرح ويقبل عليه عن طيبة خاطر . وانه ينقل سائر خيراته ، كل ما يملكه (وكانت املاكه تبلغ في ذلك الحين قرابة نصف مليون من الروبلات) الى زوجته وعائلته ، كي لايدنس ابداً نفسه بعد الآن « بخطيئة » الملكية ، ويرفض من الآن فصاعداً ان يتناول مالاً على مؤلفاته أو أية قيمة اخرى تعوض عن اتعابه فيها . وانه يقوم بأعمال البر والصدقة ، فيعطي وقته لاكثر البشر الذين يتوجهون اليه تواضعاً وشهرة مغمورة ، فيستقبلهم في داره ، او يكتب اليهم ، ويهتم بكل ظلامة وكل اثم على الارض بمحبة ومساعدة اخويتين مجردتين . ولكن ما اسرع مايضطر الى الاعتراف بأن الناس يطلبون منه اكثر من ذلك ، لأن الاغلبية العظمى من هؤلاء المؤمنين — هذا « الشعب » بالضبط الذي يفتش عنه بكل حواس نفسه ، لايرضى بهذه الرموز عن التواضع التي لا تملك إلا مغزى روحياً فقط ؛ انه يطلب اكثر من ذلك من ليون تولستوي : انه يطلب الاملاق التام ، والاقتسام المطلق لبؤسه وشقائه . ان الشهادة وحدها تستطيع ان تخلق مؤمنين حقيقيين ومقتنعين حقيقيين (ولذا فان هناك دوماً ، في مبدإ كل دين ، انساناً يضحي بنفسه كلياً) . اما موقف يكتفي بالتوجيهات والوعود فيعجز عن ذلك دوماً . غير

ان كل مافعله تولستوي حتى ذلك الحين ، كي يوطد عقيدته في امكانية تحقيقها ، لم يكن اكثر من اشارة بسيطة تدل على التواضع ، لم يكن الا فعلاً رمزياً عن ارادة دينية طيبة ، فعلا يمكن تشبيهه مثلاً بذلك الفعل الذي تفرضه الكنيسة الكاثوليكية على البابا والملوك الذين يحسون احياناً عندما يغسلون اقدام اثني عشر شيخاً يوم الخميس المقدس ، اي مرة واحدة في كل عام ، بحيث يرى الشعب ويفهم ان اكثر الأعمال تواضعاً ليليق حتى بعظماء الارض وكبرائها . ولكن كان البابا اوامبراطور النمسا او ملك اسبانيا لايتجردون ، بهذا العمل السنوي الدال على التوبة ، عن قوتهم ، ولا يصبحون ابداً مستخدمين في حمام عام ، كذلك لايصبح الشاعر العظيم الذي هو تولستوي اسكافياً ، لانه ينكب ساعة من الزمان فوق القالب والمخرز ، ولا يصير فلاحاً قط لأنه يشتغل ساعتين في الحقل ، ولا يمسي مستعطياً حقيقياً لأنه قد نقل ثروته إلى عائلته . ان تولستوي لم يفعل في البدء الا تبيان امكان ممارسة عقيدته ، ولكنه لم يمارسها قط بصورة حقيقية . ولكن الشعب الذي (بغريزة عميقة) لايكفيه الرمز ، ولا يمكن ان يقنعه إلا كمال التضحية وحده ، هذا الشعب قد انتظر بالضبط من تولستوي ان يمارس عقيدته بنفسه ، لأن تلامذته قد فسروا دوماً بصورة اشد دقة وحرفية وقوة من معلمهم ، عقيدة هذا الأخير وفلسفته .

ومن هنا تنشأ تلك الخيبة المفاجئة التي يحسونها عندما يضطرون الى التحقق ، اذ يجيئون الى قرب نبي الفقر الارادي ، ان فلاحي ياسنايابوليانا مابرحوا ، مثلهم في اراضي النبلاء الاخرى ، يتعفنون في البؤس ويفنون ، بينا هو نفسه ، ليون تولستوي ، يستقبل ضيوفه ، مثله قبلاً ، كسيد عظيم في مسكنه الفخم ، بحيث يشكل دوماً واحداً من « طبقة النـــاس الذين يسلبون ، بمختلف الأحابيل ، الشعب ويحرمونه من الضروري » . ان نقل تلك الأملاك الذي اعلن

عنه تولستوي في صخب عظيم لايبدو لهم تنازلاً حقيقياً ، كما ان زهده لايبدو لهم فقراً صحيحاً ، ما داموا يرون ان الشاعر ما برح يتمتع بكل ما في العيش من رغد ورفاهية مثله قبلاً ، لا بل إن تلك الساعة التي يخصصها للزراعة او لصنع الأحذية لا يمكن ان تقنعهم ايضاً . ويزمجر فلاح عجوز في نقمة واستياء : « اي نوع من الرجال هو هذا الذي يبشر بشيء ويصنع نقيضه تماما ؟ » بينما الطلاب والشيوعيون الحقيقيون يعلقون بصورة اقسى على هذا التناقض الملتبس القائم بين العقيدة وبين السلوك . ولا تلبث الخيبة التي يثيرها موقف تولستوي المبهم ان تشمل شيئاً فشيئاً اكثر انصار نظرياته رسوخاً بالضبط ، فإذا رسائل كثيرة ، بله هجمات رعاعية في بعض الأحيان ، تدعوه بشدة متعاظمة دوماً إما الى افكار عقيدته ، وإما الى ممارستها أخيراً بصورة حرفية ، وليس بشكل امثلة رمزية ومؤقتة فقط .

ويعترف تولستوي أخيراً ، وقد اذعرته هذه الدعوة ، بعظم المطالب التي ثارها ... انه يعترف بان الافعال وحدها ، وليس الكلمات ، أن التبديل التام لوجوده ، وليس امثلة الدعاية فقط ، يمكن ان تمنح الحياة لرسالته . ان ذلك الذي ينتصب خطيباً وصانعاً للوعود على منصة عامة ـ على ارفع منصة في القرن التاسع عشر ـ يضيئه النور الشديد الذي ترسله مصابيح مجده ، وتراقبه ملايين الأزواج من العيون ، لامناص له في النهاية من التنازل عن كل حياة خاصة ومتساهلة ، كما لا يكفيه ان يظهر رأيه برموز اتفاقية ، بل هو في حاجة الى تضحية تامة وحقيقية تكون من شهادة ذات قيمة . وهكذا يجد تولستوي نفسه ملزماً ، في حياته الشخصية ، بواجبات لم تخطر في حسبانه قط عندما القى الى العالم بنداءاته : « لابد للمرء كي يسمعه العالم ، من سقي الحقيقة بالعذاب ، بل أفضل من ذلك بالموت ايضاً » .

وهكذا يأخذ تولستوي على عاتقه، وهو مرتجف الأوصال، طافح بالاضطراب، مرتاب في قوته، متألم حتى اعمق اعماق نفسه، الصليب الذي تحمله عقيدته اياه، والذي يقوم في الشهادة لمعتقداته بكل من افعال حياته دون اي تردد او حذر، وفي الصيرورة خادماً لعقيدته الدينية مليئاً بالقداسة، في قلب عالم عظيم السخرية، كثير الثرثرة.

الخادم المليء « بالقداسة »: ان الكلمة قد قيلت، بالرغم من سائر ابتسامات السخرية والاستهزاء. ذلك ان القديس يبدو، بكل تأكيد، غير معقول ومستحيلاً تماماً للوهلة الاولى في عصرنا الموضوعي، وكأنه خطيئة زمنية افلتت من العصور الوسطى التي انقضت واندثرت الى الأبد. ولكن رموز كل نموذج روحي وشكله الخارجي هي وحدها التي تزول وتفنى، اما النموذج نفسه فانه يعود دوماً بصورة اجبارية ومنطقية، اذا ما دخل مرة في دائرة الأشياء الارضية، الى دائرة اللعب اللامتناهي الذي يشمل العلاقات التي نطلق عليها عادة اسم التاريخ. ان بعض الناس، دوماً وفي كل عصر من العصور، سوف يجبرون على الطموح الى القداسة، لأن الشعور الديني الذي تتميز الانسانية به يحتاج دون انقطاع الى هذا الشكل الروحي الأمثل، فهو يسعى بالتالي الى خلقه وايجاده. لكن تحقيقه المادي يختلف دوماً بالضرورة، حسب التبدلات البشرية المتعاقبة. ان مفهومنا عن تقديس الوجود لم يعد له ادنى علاقة بهوس وجوه الاسطورة المذهبة الذين كانوا يدفنون أنفسهم في القبور، ولا بصلابة آباء الصحراء العموديين (١)، لأننا قد خلصنا منذ زمن طويل صورة القديس وحررناها من كل صلة بتعاريف مجامع اللاهوتيين ومجالس

(١) بعض المسيحيين الناسكين في القرن الرابع، الذين كانوا يقضون ايامهم على قمة عمود خاص بنوه خصيصاً. وأشهرهم سمعان العمودي، الذي ما برحت وسيلة نسكه قائمة حتى الآن في شمال سوريا.

اليابوية . ان يكون المرء قديساً ، ذلك يعني بالنسبة الينا في هذه الايام ان يكون المرء بطلاً ليس غير ، بمعنى امتثال مطلق لوجوده الى فكرة يحياها دينياً بكل كينونته . إن الاشراق الفكري ، تلك الوحدة « المنكرة للعالم » التي عاشها قاتل الآلهة في سيلس - مازيا (١) ، او ايضاً ذينك الزهد والتقتير اللذين فرضهما على نفسه قاطع الماس في امستردام (٢) ، لاتبدو في اعيننا ادنى ابداً من اشراق اولئك المهووسين الذين يجلدون أنفسهم كي يكسبوا القداسة ويحصلوها . ان قديس الفكر مابرح ممكناً في ايامنا الحاضرة ايضاً ، فيما وراء منطقة المعجزات، في عصر الآلة الكاتبة والنور الكهربائي ، في وسط مدننا ذات الزوايا المربعة ، المغمورة بالضياء ، التي تجتازها جموع من البشر لاحصر لها . ان قديس الروح مابرح ممكناً اذن كشاهد حي ، ذي لحم ودم ، للضمير والوجدان . الا انه لم تعد بنا حاجة الى اعتبار هذه الكائنات الرائعة والنادرة ككائنات معصومة إلهياً ، واقعة خارج حدود كل زوال ارضي ، بل اننا - على النقيض من ذلك تماماً - نحب هؤلاء « المجربين » العظماء ، هولاء الارواح المجربة بصورة محفوفة بالأخطار ، في ازماتهم ونضالاتهم بالضبط ، وحيث نحبهم اكثر من اي مكان آخر ، لانحبهم بالرغم من تعرضهم للضلال والخطأ دوماً ، بل بسبب هذا التعرض بالضبط ، فجيلنا لايريد بعد الآن ان يجل قديسيه كمرسلين من الله قادمين من عالم آخر فوق أرضي ، بل يريد ان يجلهم على اعتبارهم اكثر الانسانيين أرضية على وجه الدقة .

ولذا فان مايؤثر فينا اكثر من كل شيء آخر في محاولة تولستوي الجبارة كي يعطي حياته شكلاً أمثل ، هو شكوكه من دون سواها . . . ان فشله

«١» يعني نيتشه.

«٢» يعني سبينوزا.

الاجباري ليلوح لنا اكثر تأثيراً من كل قداسة . وحتى ان كنا كافرين كل الكفر بعقيدته، فان العذابات التي قاساها بسبب هذه العقيدة تقنعنا بارتفـاع مصائره العظيم وسموها الرائع.

وهكذا فان حياة تولستوي تصبح بالضرورة ، في اللحظة التي يقبل فيها على المحاولة البطولية التي يريد بها ان يتنازل عن اشكال الحياة الزمنية والاتفاقية ، كي يحقق اشكال وجدانه الأبدية فقط ، ان حياته تصبح مشهداً مفجعاً ، اعظم من سائر المشاهد التي رأيناها منذ ثورة نيتشه وسقوطه . ذلك ان مثل هـذا الفصم العنيف لسائر الروابط الاعتيادية التي تتميز بها العائلة ، ونبل المحتد ، والملكيـة ، وقوانين العصر جميعاً ، لايمكن ان يتم دون ان يمزق تلك الشبكة العصبية ذات الألف عروة، دون ان يجرح إن صاحب العمل او اقرباءه ، وبالصورة الاشد ايلاماً وتعذيباً . ولكن تولستوي لايخشى الالم ، بل انه ـ على العكس من ذلك ، كروسي حقيقي، يعني كمتطرف حتى الدرجة القصوى ـ لايستسلم عن طيبة خاطر الى كل من التجارب التي يتعرض لها فحسب ، بل انه متعطش أيضاً الى العذابات الحقيقية التي ستكون البرهـــان المرئي عن اخلاصه وصدقه . لقد تعب منذ زمن طويل وكل من الحياة الخاملة التي يعيشها ، فالسعادة العائلية المسطحة ، ومجد آثاره ، واعتبـار معاصريه له وإجلالهم اياه ، جميعها امور تنفر وتبعث الاشمئزاز في نفسه ـ ان الانسان الخالق فيه ليتوق ، بالرغم منه ، الى مصير اشد توتراً واكثر تنوعاً ، يتوق الى الاقتراب اكثر فأكثر من القوى الاساسية للانسانيـة ، من الفقر ، والبؤس والعذاب ، التي يتعرف على مغزاها الخلاق للمرة الاولى منذ ازمته . وكي يثبت بصورة علنية طهارة عزمه على التواضع ونقاوته ، فانه يريد ان يعيش حيـــاة انسان من ادنى الطبقات، لايملك بيتاً ، ولا مالاً، ولا عائلة، حياة انسان ملطخ بالهباب والاقذار، مصاب بداء القمل ، محتقر من الناس ، مضطهد من الدولة ، محروم من الكنيسة . انه

يريد ان يعيش في جسده الخاص ، في عظامه وفي دماغه ، مـا قد وصفه في كتبه على اعتباره أهم اشـكال الانسان الحقيقي : والشكل الوحيد الذي يتحلى بالخصب الروحي بالاضافة الى ذلك . يعني حياة ذلك الذي لاوطن له ، الذي لايملك شيئاً ، والذي تطرده الريح امامها مثل ورقة خريفية . ان تولستوي (وهنا يبني من جديد ذلك الفنان العظيم الذي هو التاريخ احدى تناقضاتـه العبقرية والساخرة معاً) يريد ، بكل قوى ارادته ومن اعمق اعماقها ، ان يكون له مصير دستويفسكي - نقيضه - بالضبط ، المصير الذي تحقق بالرغم من ارادة هذا الاخير . ذلك ان دستويفسكي قـد عانى كل العـذابات المرئية ، كل وحشية وصلابة المصير الذي يريد تولستوي في حمية ، بدافع مبدإ تربوي ، وبفعل رغبة في الشهادة عاتية جبارة ، ان يعانيه ويقاسي اهواله . ان الفقر الحقيقي ، المعـذب ، المحرق ، الذي يلتهم كل فرح ويأتي عليه ، هو بالنسبة الى دستويفسكي رداء قنطورس (١) . انه يضرب على وجهه ، دون وطن ، عبر سائر بلدان الارض ، يقرض الداء جسده ، ويجره جنود القيصر حتى عمود الاعدام ، ويلقونه في سجون سيبيريا الرهيبة ، قد اعطي له بـكل حرية كل مايجده تولستوي ضرورياً كي يبرهن عقيدته ، ويحقق مثله الاعلى الاجتماعي ، بينما لم تمس قطرة واحدة من هذا الكأس شفتي تولستوي المتعطش الى العذابات بصورة مادية مرئية .

والحقيقة ان ارادة العذاب التي يحسها تولستوي لم تستطع قط ان تتوطـد وتتحقق بصورة مرئية بافعال حسية : ان قضاء ساخراً مستهزئاً يقطـع عليه سبيل

« ١ » قنطورس (كائن اسطوري نصفه انسان ونصفه حصان) اراد ان يختطف ديجانيرا ، امرأة هرقل ، ولكنه اصيب بسهم مسموم رماه البطل به ، وبينما هو يموت اعطى رداءه الى ديجانيرا كطلسم يعيد اليها زوجها عندما يخونها .

الشهادة في كل مكان . انه يريد ان يكون معدماً ، ان يمنح ثروته الى الانسانية ، ألا يكسب بعد الآن مالاً من كتاباته ومن مؤلفاته ، ولكن عائلته لاتسمح له ان يكون فقيراً ، بل ان ثروته الكبيرة تنمو باضطراد ، بالرغم من ارادته ، بين ايدي ذويه ؛ انه يريد ان يكون وحيداً منعزلاً عن النـــاس ، والكن مجده يغرق داره بالصحفيين والفضوليين الذين لاينقطعون عن القدوم اليه لحظة واحدة ؛ انه يريد ان يكون محتقراً ، ولكنه بمقدار مايكيل الاهانات لنفسه ويحط من قدرها ويحقر اثاره الخاصة ويرتاب في اخلاصه ، بمقدار مايتعاظم الاحترام الذي يكنه البشر ويظهرونه له ؛ انه يريد ان يعيش حياة فلاح في كوخ واطيء ، داخن ، مجهول من الجميع ، لايعرفه اي انسان قط ، او ان يتيه في الطرقات مثل حاج أو مستعطٍ معدم ، ولكن عائلته تغمره بالعناية ، وتدخل حتى الى ذات غرفته تسهيلات التكنيك الحديث التي يهاجمها بصورة علنية عنيفة ؛ انه يريد ان يكون مضطهداً ، سجيناً ، مجلوداً بالسياط (« ماأشد مايصعب علي ان اعيش في حرية » ، كما كتب ذات مرة) ، ولكن السلطات تتنحى عن طريقه مخملية الاطراف ، وتكتفي بان تجلد تلاميذه وتنفيهم الى سيبيريا .

ولذا فانه يذهب الى اقصى الطريق ، وينتهي بأن يوجه الاهانات الى القيصر نفسه ، كي يقتص منه أخيراً ، ولو مرة واحدة ، فينفى ، ويدان ، ويكفر علنياً عن ثورة ايمانه وتمرده . ولكن نيقولا الثاني يرد على الوزير الذي يقدم اليه الشكوى: « ارجو ألا يمس ليون تولستوي بأذى ، فأنا لاأنوي ان اجعل منه شهيداً » . ولكن هذا هو بالضبط ما كان يريده تولستوي في سنواته الأخيرة ، ان يصبح شهيداً ، كي يثبت للبشر صدق عقيدته واخلاصها ، وهذا هو بالضبط مايرفض القدر ان يمنحه اياه ، هذا القـــدر الذي يذهب حتى درجه حماية هذا الانسان المتعطش الى العـــذابات ، فيغمره بعناية تكاد ان تكون خبيثة نوعاً ما حتى لايصيبه ادنى سوء على الاطلاق : وهكذا يضطرب تولستوي ، كالمجنون الذي يرمي بنفسه على جدران زنزانته المصنوعة

من المطاط ، في سجن غير مرئي من مجده ، يبصق على ذات اسمه ، ويكشر في وجه الدولة ، والكنيسة،وسائر السلطات ، ولكن الجميع يصغون اليه في احترام عظيم،وقد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم، وامسكوها بين ايديهم في إجلال ، ويروحون يداورونه مثل مجنون عريق الأصل لايخشى اذاه . انه لم ينجح قط في تحقيق ذلك العمل البين، البرهان الأكيد ، الشهادة العلانية ، لان الشيطـــان قد وضع الجد فيما بين ارادة الاخلاص عنده وبين الواقع ، كي يخفف من شدة سائر الضربات التي يمكن ان يكيلها القضاء له ، ويمنع العذاب من البلوغ اليه .

ولكن تشكك سائر انصاره يسأل في صبر فارغ ، مثلما تسأل سخرية خصومه في استهزاء ايضاً : ولكن لماذا لايضع ليون تولستوي في عزم حداً نهائياً لهـــذا التناقض المؤلم ؟ لمَ لايطرد من داره الصحفيين والمصورين ؟ لم ينفذ دوماً ،بدلاً من ارادته الخاصة ، ارادة المحيطين به الذين يعلنون بصورة مقتنعة في احتقار تام لتعاليمه ان الثراء والرفاهية هما اعظم خيرات الارض على الاطلاق ؟ لماذا يتصرف أخيراً بوضوح ودون تناقض ،حسب مايأمره وجدانه به ؟ ان تولستوي لم يجب قط عـــلى هذا السؤال الرهيب الذي يطرحه البشر عليه ، كما لم يعتذر عن ذلك قط . بل ان الأمر على النقيض من ذلك تماماً ، اذ ليس اي من اولئك الثرثارين العـاطلين الذين يظهرون باصبعهم القذرة التناقض البين القائم بين ارادة تولستوي والواقع قد ادان ذلك الالتباس بمثل القسوة التي ادانه بها تولستوي نفسه . لقد كتب في « مذكراته» في عام ١٩٠٨ : « لو سمعت الناس يقولون عني ، وكأن الأمر يتعلق بانسان غريب: هذا رجل يعيش في البذخ ، يسلب الفلاحين كل مايستطيع ان يسلبهم اياه ، ويزج بهم في السجون . وهو يؤمن بالمسيحية ويبشر بها في الوقت نفسه ، ويعطي صدقات لاتزيد عن خمس كوبيكات ، ويختبىء في سائر افعاله القبيحة خلف زوجته العزيزة ، فلن اتردد لحظة في نعت مثل هـــذا الشخص بالخبيث واللص . وذلك هو بالضبط

مايجب ان يقال لي « حتى انتزع نفسي من غرور العالم ، فلا اعود احيـــا إلا بحياة النفس وحدها » . كلا ، لاحاجة لاي انسان كي ينير اتولستوي التنـاقض القائم بين ارادته وسلوكه ، فقد كان هذا التناقض يمزق نفسه يومياً دون انقطاع . وعندما اخترق هذا السؤال ، في « مذكراته » ، وجدانه مثل حديد احمر مشتعل : « قل، باليون تولستوي ، هل تعيش حسب مبادىء عقيدتك ؟ »، أجاب في حنق يائس : « كلا ، اني اموت من الخجل والعار ، فأنا مذنب ، واستحق الاحتقار » .

كان يدرك بكل وضوح انه لم يعد امامه ، منطقياً وأخلاقياً ، بعـــد اعلان دستور ايمانه على رؤوس الاشهاد ، الا طريقة واحدة ممكنة للحياة : ان يهجر منزله ويتنـــازل عن القاب نبله ، ويهمل فنه و « يذهب مثل احد الحجاج في طرقات الروسيا ». ولكنه ، هو الرسول ، لم يستطع قط ان يحمل نفسه على اتخاذ مثل هذا القرار الأمثل ، والضروري للغاية ، لانه القرار المقنع الوحيد . ولكن سر ضعفه الأخير ذلك بالضبط ، هذا العجز في نفسه عن تحقيق الايمان الذي وضع مبادءه، يعني بالنسبة الى جمال تولستوي الأسمى . ذلك ان الكمال مستحيل دوماً إلا فيما وراء الامور البشرية : فالقديس ، حتى ان كان رسول الوداعة ، يجب ان يقدر على ان يكون قاسياً ، يجب ان يقدر على ان يطلب من تلامذته هذا الشيء الذي يكاد ان يكون فوق انساني وغير انساني ، ألا وهو هجر الاب والام والزوجة والابناء ، في لا مبالاة وعدم اكتراث ، كي يبلغوا الى القداسة . ان حياة كاملة ومنطقية بصورة مطلقة لا يمكن ان تتحقق إلا في الفراغ العاري لفردية منعزلة ، منقطعة كل الانقطاع عن كل رابطة او علاقة مع الغير : وذلـــك هو السبب في ان درب القديس ، في مختلف العصور ، تقوده الى الصحراء دوماً ، فكأن الصحراء هي المسكن الوحيد والدار الوحيدة اللائقان به . وهكذا فان تولستوي أيضاً ، اذا كان يريد ان يحقق

بالافعال النتائج القصوى لعقيدته ، يتوجب عليه اذن ان يتحرر ليس من روابط الكنيسة والدولة فحسب ، بل ايضاً من تلك الدائرة الأضيق ، والأحر ، والأثقل ، دائرة العائلة ... لكن القوى قد اعوزته ، طوال ثلاثين عاماً ، في سبيل تحقيق هذا الفعل من العنف الخالص . لقد هرب مرتين ، ولكنه عاد ادراجه في كلتا المرتين ، لأن مجرد التفكير في ان زوجته التي سيحطمها هذا القرار قمينة بأن تنتحر كان يشل فيه كل طاقة متوحشة . انه لايستطيع ان يحزم امره (وههنا خطيئته الروحية وجماله الاخلاقي في وقت واحد !) على التضحية بكائن انساني واحد في سبيل افكاره المجردة . وهكذا فإنه يتحمل في صبر ، وهو يزمجر ، سقفاً جماعية جسدية فقط تثقل عليه وتضطهده ، بالأحرى من ان يثير حنق ابنائه وغضبهم ، ويدفـــع بزوجته الى الانتحار . انه يستسلم دوماً في القضايا الحاسمة ، كقضيتي وصيته وبيع كتبه مثلاً ، وهو يناضل في يأس طوال الوقت ، وان ظل بالرغم من ذلك اكثر انسانية من ان يجرح شعور عائلته بأفعال يمليها العنف عليه ، ويفضل ان يتعذب شخصياً من ان يجعل الآخرين يتألمون . انه يكتفي ، في ألم شديد ، بأن يكون انساناً ناقصاً ، من ان يكون قديساً صلداً كالصخر الأصم .

وهكذا فان الخطيئة القائمة في كونه فاتر الحرارة يعوزه الاخلاص تقـــع على عاتقه ، وعلى عاتقه فقط ، في اعين الناس . انه يعرف ان كل صبي صغير يملك الحق بعد الآن في السخرية منه ، وان كل انسان مخلص يملك الحق في الارتياب به ، وان كلاً من انصاره يملك الحق في ادانته ، ولكن مايشكل بالضبط ، اكثر من كل شيء آخر ، صبره العظيم طوال هذه السنوات القاتمة ، هو قبوله هذا الاتهام بعدم الاخلاص ، مطبق الشفتين متقلصهما ، دون ان يعتذر مرة واحدة . وانه ليكتب متمهلا ، في عام ١٨٥٨ ، في « مذكراته » هذه الكلمات : « ان مركزي محفوظ امام النـــاس ، ولعله من

الضروري ان يكون كذلك » . ويأخذ شيئاً فشيئاً بالتعرف على المغزى الخاص الذي تتصف به التجربة التي يخضع لها ، ألا وهو ان شهادته المجردة عن الظفر ، ان طريقته في التألم من الظلم الواقع عليه دون ان يدافع عن نفسه او يعتذر ، تشكل فعلًا اشد ايلاما واكثر اهمية مما يمكن ان يكون في الشهادة في ساحة عامة من ألم واهمية ـ هذه الشهادة الأخرى المسرحية التي طلبها لمصيره طوال سنوات عديدة: «لقد رجوت كثيراً ان اتعذب واتحمل الاضطهاد ، ولكن هذا يعني اني كنت جبانا رعديداً ، واني كنت اريد ان اجعل الغير يعمل في مكاني ، بمعنى انه كان يعذبني ، بينما لايبقى لي انا سوى ان اتعذب بكل بساطة » . ان اكثر البشر فراغ صبر ، ذلك الذي كان يغطس بكل طيبة خاطر ، وبقفزة واحدة ليس غير ، في جوف العذابات ، والذي كان يقبل بلذة فائقة تقريباً ان يحترق على مذبح عقيدته وايمانه ، ليعترف بأن تجربة اقسى «الا يقـــاس قد فرضت عليه ، ألا وهي هذا الاحتراق البطيء على نار تضطرم ، وازدراء اولئك الذين لايعرفونه ، وقلق وجدانه الابدي ، هذا الوجدان الذي يعرف مع ذلك واقع الأمر وحقيقته .

انه مجبر في كل لحظة على الاعتراف بتردده وتناقضه مع نفسه ، وعلى ادانة نفسه والاقتصاص منها لاهمالها ، واحتقارها لغرورها الخـــاص ، وان كان يحس في الوقت ذاته ان هـــذا القلق ضروري له ، فيكتشف فيه بالضبط ـ هو الذي ولد عزيزاً متكبراً ـ ضعفه وعيبه الخاصين . انه مضطر دون انقطاع الى الاعتراف بانه عاجز عن إملاء رسالته المثلى ، القائمة في ان يحيا وجوداً امثل ، وانه عاجز عن تحقيق اكثر رغباته سرية وعمقاً ، الكامنة في ان يعيش حياة مقدسة ومتفقة مع مبادئه . انه ملزم على الاعتراف ، في خجل لاحدود له ، بأنه عاجز عن تكميل مايطلبه من الانسانية جمعاء في حياته الخاصة . وان هذا العذاب الخفي الذي يفرضه باطنياً يجعل

سنوات ليون تولستوي الاخيرة اشد أسى من كل بطولة خارجية ، ومن منطق عقيدته وتطبيقها الحرفي اللذين كان يمكن ان يحققها في اسلوب حياته ، بحيث تبدو لنا ارادة هذا الاخلاقي الكبير متضاعفة العظمة والتأثير ، بالضبط لأنـــه لايرضي، لايستطيع ان يرضي مطالبه الاخلاقية الخاصة التي ينادي بها ويبشر .

ولكن تولستوي ، هذه العبقرية العديمةالرأفة الموجهـــة نحو استكشاف الأنا ـ وهو اقسى على نفسه من أي انسان آخر يقسو عليه ـ ليذهب في احــــدى الساعات السرية الىمالا نهاية، حتى درجة الارتياب في اخلاص ارادته نفسها . ان ما كان خصومه يهمسون به في الخفاء احياناً ، الا وهو انه قـد اتخذ الدور العاطفي لخلاص العالم ورسول الانسانية العلني ، ليس بروح الاخلاص والامانة ، بل بدافـع من الارضاء المسرحي تجاه أناه الخاصة ، بدافع من المجد الباطل والغرور الرديء ، ان هذا الارتياب الرهيب قد صاغه تولستوي ضد نفسه بصورة لاتعرف للرحمة معنى ولا الى الشفقة سبيلاً ، وذلك في ساعة من ساعات الوحدة الـتي يقوم فيهـا بفحص روحي لشخصه وأناه . ان من يريد ان يعرف حتى اية اعماق قد عذب تولستوي وجدانه كي يبلغ الى الاخلاص الامثل ، لا يلزمه الا ان يقرأ هـذه القصة التي وجدت بين أوراقه بعد وفاته ، والتي تحمل عنوان « الاب سيربيج » . ومثله مثل القديسة تيريزا المذعورة من رؤاها ، التي تسأل معرفها في قلق واضطراب ان كانت هذه البشائر قد ارسلت اليها من قبل الله حقاً ، وليس من قبل نقيض هذا الاخير ، ربما ، الشيطان ، في سبيل امتحان كبريائها ، هكذا يتساءل تولستـوي في قصته هذه إن كانت اصول عقيدته وسلوكه امام البشر الهية حقاً ، يعني أخلاقية وجيدة ،

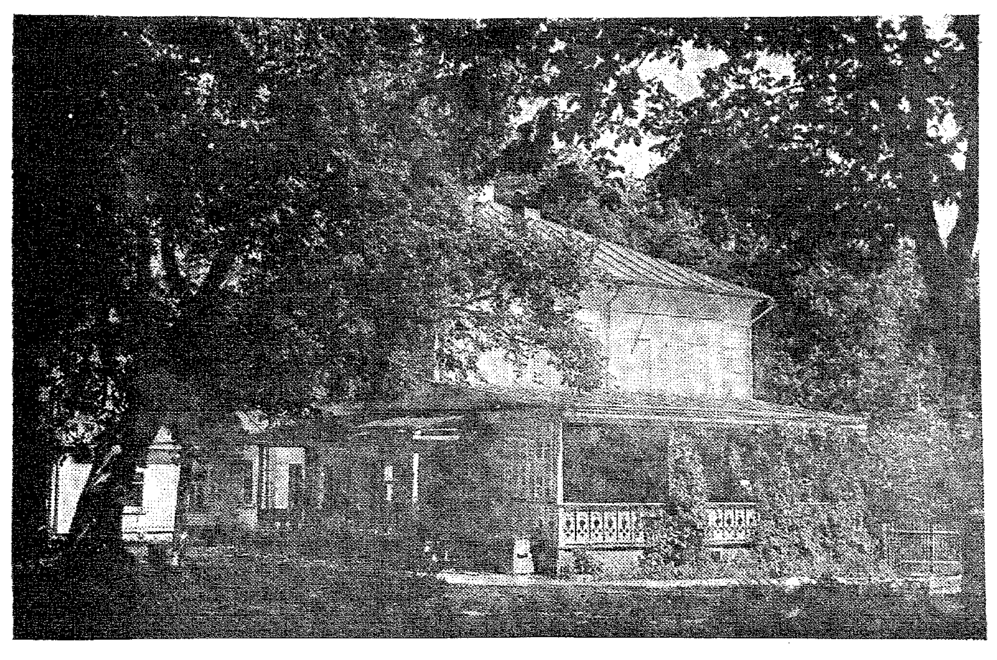
فهي لاتصدر اذن عن شيطان الغرور وحبه المجد والبخور . وانه ليصف ، في هذا القديس ، تحت ستار شفاف جداً ، مركزه في ياسنايا بوليانا : ان التائبين والمعجبين يأتون الى قرب هذا الراهب صانع المعجزات ، مثلما يأتي الى قربه ، هو تولستوي المؤمنون ، والفضوليون ، وحجاج الاعجاب . ولكن هذه الصورة طبق الأصل عن وجدانه لتتساءل ، مثل تولستوي نفسه ، في ملء الضوضاء التي يثيرها انصاره ، ان كان يملك ، هو الذي يجله جميع الناس كقديس كبير ، قلب قديس حقاً ؛ انه يتساءل : « حتى اية درجة اصنع ما اصنعه محبة في الله . وحتى اية درجة اصنعه محبة في الناس فقط ؟ » . ويجيب تولستوي على سؤاله ، بلسان الاب سيرج ، بصورة ساحقة مرهقة :

« كان يحس في اعماق نفسه ان الشيطان قد وضع مكان جهوده الموجهة نحو الله محركاً آخر للسلوك توحي به الرغبة في المجد البشري وحدها ؛ كان يحس ذلك ، لأنه ، مثلما كان يغتبط فيما مضى عندما لايأتي احد يعكر عليه صفو عزلته ، فان هذه العزلة قد اصبحت الآن عذاباً مضنياً بالنسبة اليه . كان يحس ان الزائرين يضايقونه ، وانهم يتعبونه ويرهقون قواه ، ولكنه يغتبط في اعماق قلبه ، بالرغم من كل شيء ، اذ يراهم ، ويتهلل عندما يسمع كلمات المديح التي يغمرونه بها . وكان ينقصه دوماً الوقت اللازم لتربيته الروحية وصلواته ، فيخيل اليه احياناً انه اشبه مايكون بمكان قد انبثق ينبوع منه ، ينبوع صغير من الماء الحي ، صادر عن احشائه ، متدفق بفضله ، لكن الماء لم يعد يستطيع الآن ان يتجمع عندما يتأهص المارون العطاشى على ضفافه ويتدافعون بالمناكب . لقد داسوا على كل شيء ، فلم يبق بعد الآن الا الطين وحده ... الآن لم يعد في صدره حب ،

ولا تواضع ، ولا طهارة ايضاً »

ولقد رفض تولستوي دوماً ، بمثل هذا الثبات ، وبمثل هذه الشدة على نفسه ، ان يصدق ان تأليهه بصورة قديس امر ممكن : انه لم يعتبر نفسه قط الا كائناً يبحث ويتحسس ، انساناً يجهد بصعوبة عظيمة ، وفي وسط عيوب ونواقص لا حصر لها ، ان يذهب نحو الله . وانه ليتساءل ، في قلق واضطراب عظيمين ، بلسان صورته : « ولكن أفلم يكن هناك ارادة في خدمة الله ؟ » وبالرغم من ان الجواب يأتي محطماً كل ابواب القداسة ، في وضوح لا يرحم وشدة لا تلين ، متردداً في هذه الكلمات العنيفة : « بلى ، لقد كانت هذه الارادة موجودة ، ولكن المجد قد افسد كل شيء ودنسه . ان الله لا يوجد بالنسبة إلى من عاش ، مثلي ، في سبيل المجد البشري » ، فان بريقاً من الرجاء يرتجف في حياء ، كما في قعر منجم من المتفجرات قد انهدم : « ولكني اريد ان ابحث عنه » .

« اريد ان ابحث عنه » . ان هذه الكلمات تحوي ارادة تولستوي الاكثر اخلاصاً ، وتضم مصيره الذي ليس هو العثور على الله ، بل البحث عنه ، الذي ليس هو صياغة الجواب الذي تتوق الانسانية اليه ، بل مساعدة هذه الانسانية على طرح اسئلة جديدة ، وعلى اثارة مشاكل جديدة في اخلاص أكثر ، وبصورة اشد قسوة مما فعله اي انسان من قبل . ان تولستوي لم يصبح قديساً ، لم يصبح نبياً مقتدياً للعالم ، بل انه لم يستطع حتى اعطاء حياته شكلاً واضحاً وشريفاً بصورة تامة ومطلقة : لقد بقي دوماً انساناً مثل الاخرين ، مليئاً بالعظمة في بعض الأحايين ، ومن ثم ، بعد برهة وجيزة مباشرة ، مسكيناً وغارقاً في الكذب ، انساناً لا يبرأ من الضعف ، والنواقص ، والتناقضات ، والالتباسات ، لكن واعياً



احد مشاهد ياسنايا بوليانا : « شجرة الفقراء » الى الايسر من الصورة

دوماً لاخطائه في التو واللحظة ، مجرباً في اندفاع لا مثيل له أن يسير نحو الكمال .

انه لم يك قديساً، لكن ارادة قديسة ؛ لم يك مؤمناً ، لكن ايماناً عملاقاً ؛ لم يك صورة عن الالهي ، هادئة ، مطمئنة ، ومنطوية على نفسها في كمالها الخاص ، بل رمز انسانية لن تقف قط في دربها ، لانها لن ترضى او تقنع قط ، فهي ابداً في نضال دائم، في كل يوم وفي كل ساعة ، كي تبلغ الى شكل اكثر طهارة ونقاء مما كانت عليه .



يوم من حياة تولستوي

« لست مرتاحاً في عائلتي ، لاني لا استطيع ان اقاسم اهلي عواطفهم . ان كل ما يبهجهم ، الامتحانات المدرسية ، والنجاحات الدنيـــوية ، والمشتريات ، كل هذا اعتبره بؤساً وشراً بالنسبة اليهم ، ولكني لا استطيع ان اصرح به . وفي الحقيقة اني استطيعه وافعله أيضاً . ولكن احداً لا يفهم كلماتي قط » .

تولستوي

« المذكرات »

كيف اتصور ، بفضل شهادات اصدقائه واعترافاته الخاصة ، **اليلم** يوماً من ايام ليون تولستوي ، مأخوذاً من عداد ألف من الأيام المشابهة .

ان النعاس يسيل ، منذ الصباح الباكر ، رويداً رويداً من اجفان الرجل العجوز ، فيستيقظ ، ويتطلع حواليه: ان ضياء الفجر يلون منذ الآن زجاج النوافذ... ان النهار يبدأ . وينبثق التفكير من الأعماق المظلمة ، فاذا الشعور الاول الذي ينتابه هو شعور دهشة سعيدة : « اني ما برحت احيا » . لقد تمدد في العشية ، مثلما يفعل في سائر الليالي على الاطلاق، في تواضع استسلام مطلق يقبل عدم النهوض في الصباح ، فخط مرة اخرى في « مذكراته » ، تحت نور المصباح المتأرجح، هذه الأحرف الى جانب تاريخ الغداة : إ . ب . ح . (اذا بقيت حياً) . ياعجباً ! ان هبة الوجود قد منحت له مرة اخرى : انه يعيش ، انه يتنفس ، انه في صحة جيدة ! انه يستنشق ، مثل تحية مرسلة من الله ، الهواء والنور ملء رئتيه ، وبكل نهم عينيه الرماديتين ! ياعجباً ، انه مازال يحيا ، انه ما برح في صحة جيدة !

وينهض الرجل العجوز ، وهو يطفح امتناناً ، ويتجرد من ثيابه جميعاً، فيلون تدفق الماء المتجلد بالحمرة الصحية جسده المتين دوماً : ويروح يطوي قامته ويقومها، في فرحة الرياضي المحترف حتى تئن الرئتان ، وتطقطق المفاصل ، ومن ثم يرتدي قميصه ورداءه المنزلي ؛ ويلف بها جلده المفروك حتى الاحمرار ، ثم يفتح النوافذ بعد ذلك ، ويكنس غرفته بنفسه ، ويرمي في النار بقطع الخشب التي تصرخ في اللهيب وتطقطق في حيوية ... هكذا يخدم نفسه ، دون معونة احد قط .

ومن ثم يهبط كي يتناول إفطاره ، حيث تنتظره صوفيا أندرييفنا ، وبناته ، وامين سره ، وبعض الاصدقاء . ان الشاي يغني في السماور ، وامين سره يحمل اليه ، في صينية خاصة ، الكوم المتنوع للرسائل ، والمجلات ، والكتب الواردة اليه ، والمزينة بطوابع صادرة عن زوايا العالم الاربع . وينظر تولستوي في استياء شديد الى هذا البرج من الورق ، ويفكر في صمت :

ـ قلق وإضجار ، واقلاق راحة على اية حال . يجب ان يكون المرء اكثر وحدة مع نفسه ومع الله ، وألا يلعب دوماً بسرة الكون . يجب ان يبعد عنه كل مايدفعه الى الاضطراب والشرود ، كل مايدفعه الى التكبر ، والغرور ، والانسياق وراء المجد الزائف وعدم الاخلاص . يفضل ان ارمي بكل هذه الاشياء في المدفأة ، كيلا ابعثر نفسي وادخل اليها خطيئة الكبرياء .

ولكن الفضول يتغلب عليه ، فينبش بأصابعه سريعة اللمس هذه الكومة المضطربة من التوسلات ، والاتهامات ، وطلبات الصدقة ، واقتراحات الأعمال ، واعلانات الزيارة ، والثرثرات المضطربة الفارغة . هذا براهماني يكتب من الهند انه قد فهم بوذا بصورة سيئة ، وهذا مجرم حكم عليه بالاشغال الشاقة يروي قصة حياته ويسأل النصح ، وهؤلاء فتيان يتوجهون اليه في مشاكلهم ، وشحاذون يلتفتون اليه في بؤسهم ، والجميع يستديرون نحوه في تواضع على اعتباره ـ حسبما يقولون ـ الانسان الوحيد الذي يستطيع ان يساعدهم ، على اعتباره وجدان هذا العالم بأسره . وتتحفر غضون جبينه اشد عمقاً منها قبل لحظات .

ويتساءل :

ـ من استطيع ان امد له يد المعونة ، انا الذي لا أعرف كيف امد يد المعونة لنفسي ؟ إني أتيه من يوم لآخر ، وافتش عن معنى جديد كي اتحمل هذه الحياة التي

لايسبر غورها ، واتحدث في خيلاء عن الحقيقة كي اوهم نفسي واضللها . فأي عجب اذن ان جاء سائر هؤلاء القوم وراحوا يهتفون : « ياليون نيقولايفيتش ، علمنا الحياة !»؟ ان ماأصنعه ليس إلا كذباً ، وادعاء ، وبهلوانية . وفي الحقيقة اني تعبت منذ فترة طويلة ، لاني ابذل نفسي وابعثرها في ألوف وألوف من البشر ، بدلاً من ان أنطوي على ذاتي ، لاني اتكلم ، واتكلم ، واتكلم ، بدلاً من ان اعتصم بالصمت وأصغي في سكون الى صوت الحقيقة الداخلي . ولكني لا أستطيع ان اخيب رجاء البشر في ثقتهم ... يجب ان اجيبهم .

ويمسك برسالة فترة أطول من بقية الرسائل ، ويقرؤهـا مرتين ، بله ثلاث مرات : انها واردة من طالب يهينه بصورة حانقة لأنه يبشر باستعمال الماء ، وهو نفسه يشرب النبيذ دوماً . لقد حان الوقت اخيراً كي يغادر بيته ، ويعطي خيراته للفلاحين ، ويصبح تائهاً في طرقات الله الواسعة .

ويفكر تولستوي :

ـ انه على حق . انه يتحدث مثل وجداني ، ولكن كيف افسر مالا أستطيع ان أفسره لنفسي ؟ كيف ادافع عن نفسي ، مادام يهاجمني ويتهمني بنفس اسمي ؟

ويتناول الرسالة وينهض نحو غرفة عمله كي يجيب عليهـا في التو واللحظة ، فيتقدم اليه امين سره قرب الباب ، ويذكره ان مراسل « التايمس » سيحضر عند الظهيرة من اجل المقابلة : هل يجب استقباله ؟ .. ويظلم محيا تولستوي :

ـ دوماً هذه المضايقات ؟ ماعساهم يريدون مني ؟ ان يلقوا فقط على وجودي نظرات البلهاء . ان كل الذي من الاقوال موجود في كتاباتي ، وسائر من يعرفون القراءة يستطيعون ان يفهموها .

ولكن بعض الضعف المجبول من الغرور سريعا مايحمله ، بالرغم من كل شيء، على الموافقة والرضوخ .

ويقول :

ـ فليكن ! ولكن سأمنحه نصف ساعة فقط .

ولا يكاد يجتاز عتبة غرفة العمل ، حتى يروح ضميره يزجر :

ـ لمَ رضخت مرة اخرى ؟ اني انصرف دوماً ، وقد شاب شعري واصبحت على قاب قوسين او ادنى من الموت ، كمغرور متباهٍ ، واستسلم الى ثرثرة البشر البلهاء . اني اضعف دوماً ، كلما طلبوا مني شيئاً بصورة متملقة . متى اتعلم أخيراً ان اختبىء ، ان اصمت ؟ ساعدني يارب ، ساعدني اذن .

هذا هو ، أخيراً ، وحيد مع نفسه في غرفـــة عمله . ان منجلا ، ومجرفة ، وفاسا ، قد علقت جميعاً على الجدران العارية ، بينما ثبت كرسي ضخم في الأرض اللامعة كثيراً امام المائدة العارية ، أشبه بالأرومة منه بالمقعـد . . تلك غرفة نصف رهبانية ، نصف فلاحية . ان عمل البارحة ، ولما ينتهِ بعد ، مابرح مستريحاً عـــلى المائدة : « افكار عن الحياة » . انه يعيد قراءة نفس كلماته ، ويمحو منها شيئاً ، ويبدل شيئاً ، ويكتب شيئاً جديداً . ان خطه مايزال دوماً سريعاً ، كبيراً جداً مثل خط ولد صغير . وسرعان مايتوقف عن الكتابة :

ـ اني سطحي كثيراً ، متسرع جداً . كيف استطيع ان اتحدث عن الله مادامت مفاهيمي في هذا الشأن لم تتضح بعد ، مادمت انا نفسي لاأملك اليقين حتى الآن ، وما دامت افكاري تترنح من يوم لآخر ؟ كيف استطيع ان اكون دقيقاً ومفهوماً من سائر البشر عندما اتحدث عن الله ، الذي لايمكن التعبير عنه ، وعن

الحياة التي تظل على الدوام ممتنعة عن الادراك ؟ان ماأقدم عليه ههنا ليتجاوز قواي . ياربي ، كم كنت اسير ، فيما مضى ، بثبات ويقين عندما كنت اكتب مؤلفات ادبية ، واقدم الى البشر الحياة كما جعلها الله امــــام اعيننا ، وليس كما ارغب انا ، الرجل العجوز المضطرب القلق ، ان تكون في الواقع ! انا لست بالقديس ، كلا .. انا لست قديساً ، ويجب علي ألا أعلم البشر ... انا لست الا رجلاً قد وهبه الله ، كي يرى الكون الذي خلقه ، عينين اكثر استنارة ، وحواساً افضل مما وهبه لآلاف من الآخرين . ولربما كنت يومئذ ، عندما كنت لاأفعل سوى خدمــــة الفن ، أصدق وأفضل مني الآن حين ألعن ذلك الفن بصورة غير معقولة .

ويتوقف ، ويتطلع فيما حوله بالرغم منه ، فكأن احداً يتجسس عليه ، ومن ثم يغدو الى درج سري ويتناول منه الروايات التي يعمل فيها حالياً في الخفاء (لأنه قد احتقر الفن علناً وأذله ، على اعتباره « تفاهة » و« خطيئة ») . هذان هما المؤلفان المكتوبان سراً والمخبآن عن عيون الناس : « حجي مراد » و « الورقة المفقودة .. » . انه يتصفحهما ، ويقرأ بعض صفحاتهما ، فتشرق عينه من جديد :

ويشعر في صميم نفسه :

ـ بلى ، ان هذا لمكتوب جيداً . ان هذا لجيد ! ان الله قد دعاني كي اصف عالمه فقط ، وليس كي اخمن افكاره . ماأروع الفن ، وما أشد طهارة الابداع الفني ، وما اكثر ايلام الفكر الفلسفي ! ماأشد ما كانت سعادتي يومئــــذ ، عندما كنت اكتب هذه الاوراق ! كنت انا نفسي اذرف الدموع عندما كنت اصف الصباح الربيعي في « السعادة الزوجية » ، بله ان صوفيا أندرييفنا كانت تـــأتي الي ، حتى في الليل ، متأرثة العينين وتقبلني .. وبينما كانت تنسخ كتاباتي ، كانت تحس نفسها مجبرة على التوقف عن ذلك كي تشكرني ، وكنا نقضي الليل بطوله سعيدين هانئين ـ كنا نقضي العمر بأسره . ولكني الآن لاأستطيع ابداً ان اعود القهقرى . ليس يحق

لي ان اخدع الناس واخيب رجاءهم ، بل لابد لي من الاستمرار في التقـــدم في الدرب التي بدأتها ، لان البشر يأملون مني ، في بؤس نفوسهم ، المساعدة والمعونة. يجب علي ألا اتوقف ، لأن ايامي قد اصبحت معدودة .

ويصعد تنهدة عميقة ، ومن ثم يعيد الاوراق الى مكانها من الدرج السري ، ويتابع الكتابة في ابحاثه الفلسفية مثل كاتب مأجور ، أخرس ، سيء المزاج ، وقد احتفرت الغضون جبينه ، وانخفضت ذقنه كثيراً حتى ان لحيته البيضاء تروح ، هي الاخرى ، تحك الورق مثل ريشته ، مثيرة تلك الضوضاء التي تصدر عـــادة عن الاشياء التي تتجعد .

هذه الظهيرة أخيراً ! كفى عملاً هذا النهار ! انه يرمي الريشة بعيـــداً عنه ، وينهض بقفزة واحدة ، ويهبط السلم بخطواته القصيرة الخفيفة وهو يدوم في رشاقة اثناء ذلك . ان السائس يمسك « دلير » ، فرسه المفضلة ، جاهزة مهيأة للركـوب ، فيعتلي تولستوي السرج بقفزة واحدة ، فاذا القامة التي كانت منحنية اثناء الكتابة تنتصب منذ الآن ، فيبدو صاحبها اكبر منه قبلاً ، وأقوى ، واكثر حيوية ، بينا هو يندفع نحو الغابة ، مستقيم العود ، رشيقاً حراً مثل قوزاقي فتي على صهوة الحصان ذي الحوافر الضيقة ، وتتموج لحيته البيضاء ، وتسبح في الريح ، وهو يفتح شفتيه واسعتين في لذة فائقة ، كي يبتلع الى باطنه ذفرة الحقول حتى اقصى درجة ممكنة ، وكي يحس الحياة ، الحياة الحية ، في جسده الذي يشيخ ، فاذا لذة الدماء التي تزعزت تزمجر بحرارة وعذوبة في اوردته حتى اطراف اصابعه ، وحتى قوقعة اذنه الصماء .

وفي اللحظة التي يهم فيها بدخول الغابة الفتية ، يتوقف بغتة كي يرى ، كي يرى مرة اخرى كيف تفتحت الازرار الدبقة من جديد ، تحت تـــأثير شمس التجدد، وراحت ترفع نحو السماء اخضراراً دقيقاً مرتجفاً ، ناعماً مثل تطريز رائع جميل . ويحث الحصان ، بضغط عنيف من فخذيه ، صوب اشجار السندر ، وعيناه الحادتان

كعيني العقاب تلاحظان في انفعال عظيم كيف يتنزه النمل على الانحاء ، الواحدة منه في اثر الاخرى ، سالكا الاتجاهين معاً ، مشكلا مسبحة مجهرية فائقة البهاء ، وبعض افراده يحملون منذ الآن ببطن ضخم ، بينما الآخرون يحاولون ان يمسكوا طحين الشجرة بفكوكهم الصغيرة الخيطية . ويظل هناك البطريرك الاشيب طوال بضعة دقائق ، جامداً في اعجابه ، يتطلع الى هذا المشهد العظيم في صغره ، ودموع حارة تسيل مدرارة في لحيته .

ماأشد روعتها ، هذه المرآة الالهية عن الطبيعة ، التي تحوي دوماً ، منذ سبعين عاماً ، عجائب جديدة ، الخرساء والبليغة في وقت واحد ، الطافحة ابدياً بالصور ، النابضة بالحياة دوماً ، والاكثر حكمة في صمتها من سائر الافكار ومختلف الاسئلة! وتنفخ الفرس تحته وقد فرغ صبرها ، فيستيقظ تولستوي من تأمله العميق ، ويضم عطفي الفرس بشدة بين ركبتيه كي يحس منذ الآن ، في صفير الريح ، ليس الاشياء الصغيرة الدقيقة فحسب ، بل حميا الحواس اللاهبة وهواها الجامح أيضاً . ويخب ، ويخب ، ويخب ، سعيداً مجرداً عن كل فكرة ، ويجتاز هكذا عشرين فرسخاً ، حتى يغطي عرق لامع عطفي الفرس بزبد ابيض ، وعندئذ يوجهها نحو الدار في عدو هادىء . ان عينيه نور بكاملهما ، ونفسه قد ارتاحت وانبسطت ، وهو سعيد طروب مثله يوم كان يمر خلال هذه الغابات ، وهو مابرح طفلا بعد ، في هذه الدرب ذاتها المألوفة لديه منذ سبعين عاماً ، هو الذي اصبح الآن عجوزاً ، اصبح انسانا عجوزاً جداً .

ولكن محياه المشرق يظلم على حين غرة عندما يشارف على القرية . ان عينه العارفة قد تفحصت الحقول : ههنا ، في قلب اراضيه ، بقعة من الارض مهملة لم يحسن الاعتناء بها ، قد تعفن سياجها وزال نصفه وتلاشى كي يشعل ناراً بكل تأكيد ، بينما التربة قد ظلت دون حراثة على الاطلاق . ويجتاحه الحنق ، فيتقدم على جواده

يسأل ايضاحا ، فتخرج اليه من الباب امرأة مشحرة الوجه ، عارية القدمين ، شعثاء الشعر ، منخفضة النظر ، قد تعلق بثوبها الممزق طفلان او ثلاثة اطفال نصف عراة يتملكهم ذعر شديد ، وطفل رابع يصرخ ايضاً فيما وراءهـــا ، في داخل الكوخ الواطيء الداخن ويسأل ، مرتفع الحاجبين ، السبب في هذا الاهمــال ، فتبكي المرأة كلمات لاتتابع فيها : ان زوجها في السجن منذ ستة اسابيع ، وقد اعتقل لأنه سرق حطباً . كيف تستطيع ان تعني بالارض من دونه ، هو الرجل القوي الدؤوب على العمل ؟ أما هو فلم يسرق الحطب الا عندما دفعه الجوع الى ذلك وأرغمه عليه . ان سيدي الكونت يعرف هو نفسه معنى الموسم السيء ، وارتفاع الضرائب ، وأجرة الارض بالاضافة . وعندما يرى الاطفال الى امهم تبكي ، يأخذون هم الآخرون بالصياح ، فيمد تولستوي يده سريعاً الى جيبه ، ويناول المرأة قطعة من الفضـة كي يضع حـداً لكل ايضاح لاحق ، ومن ثم يولي الادبار بأقصى سرعة ممكنة فكأنه هارب من السجن . لقد اظلم محياه ، وتلاشت فرحته .

ـ هذا اذن مايجري على ارضي ـ كلا ، بل على الارض التي أعطيتها لزوجتي وابنائي . ولكن لماذا اخفي دوماً ذنبي وخطيئتي وراء زوجتي ؟ ان نقل املاكي اليهم لم يكن الا مهزلة مثلت في سبيل خدع العالم ، ولم يكن شيئاً آخر قط ، اذ مثلما تغذيت انا بعناء الفلاحين ، فان اهلي يمتصون الان اموالهم ويتركونهم في مثل هذا البؤس الشديد . اني اعرف ذلك حق المعرفة : ان كل آجرة استعملت في بنـاء المسكن الذي اقطن فيه قد صنعت بعرق هؤلاء العبيد . . . انهـــا جسدهم وتعبهم مجبولين . كيف امكن ان أعطي زوجتي واولادي ما لا يخصني ، ارض هؤلاء الفلاحين التي يحرثونها ويستثمرونها ؟ يجب ان اخجل امام الذي ابشر باسمه . اني ابشر ، انا ليون تولستوي ، بالعدالة ، بينما اتفرج يومياً ، من نافذتي ، على مشهـد بؤس الاخرين وشقائهم .

لقد اصبح محياه غضباً بأسره ، وازدادظلمة اكثر فاكثر عندما دخل ، بعد ان مر امام الأعمدة الحجرية ، الى حصن الدار الفخمة ، فاندفع الخادم في لباسه الرسمي والسائس الذى ينتظر عودته ، وخرجا من الباب بسرعة عظيمة كي يساعداه على النزول عن صهوة جواده . ويهتف حانقاً في وليجة نفسه ، وقد اجتاحه ذل عظيم يدفعه الى اتهام نفسه : « عبيدي ».

ان المائدة الطويلة تنتظره منذ الآن في قاعة الطعام ، وقد ازدهرت بالبياض الناصع واكتست بالاوعية الفضية المتلألئة . ههنا توجد زوجته ، وبناته ، وابناؤه ، وامين سره ، والطبيب الخاص ، والفتاة الفرنسية ، والفتاة الانكليزية ، وبعض الجيران ، وطالب ثوري ينهض بأعباء وظيفة المدرس ، ومن ثم الصحافي الانكليزي: ان هذا الخليط البشري يغلي في فرح واغتباط عظيمين في اضطرابه وتراكمه الغامضين . ولكن الضوضاء تنقطع عندما يدخل على حين غرة ، دلالة على الاحترام والاجلال ، فيحيي تولستوي الضيوف في رزانة وادب نبيل ، ومن ثم يجلس الى المائدة دون ان يتفوه بكلمة واحدة . وعندما يقدم له الان الخادم الذي يرتدي لباساً رسمياً اطعمته المنتخبة من النباتات فقط (هليون مستورد من الخارج ومهيء على ادق صورة وألذها) ، فانه يفكر بالرغم منه في المرأة المهلهلة الثياب ، في الفلاحة التي اعطاها عشر كوبيكات . هذا هو يجلس هناك ، قاتم الوجه ، وهو يسبر اغوار نفسه:

ـ لو يفهمون اخيراً اني لا استطيع ولا اريد ان اعيش هكذا ، محاطاً بالخدم ، وغدائي الذي يتشكل من اربع اصناف يقدم الي في اوعية من الفضة ، غارقاً في مختلف انواع التفاهات ، بينما الاخرون لا يجدون حتى اشد ما يحتاجون اليه ضرورة! وإنهم ليعرفون جميعاً مع ذلك اني لا اسألهم سوى هذه التضحية ، هذه التضحية الوحيدة ، ان يتنازلوا عن هذه الأبهة ، هذه الخطيئة ضد المساواة التي يريدها الله ان تحكم بين الناس جميعاً بالعدل والقسطاط . ولكن هذه زوجتي التي يجب ان تقاسمني

أفكاري مثلما تقاسمني فراشي وحياتي ، تنتصب أمامي عدوة لافكاري . انها تتعلق بعنقي مثل رحى الطاحون ، انها ثقل يئيد على وجداني ، ويجرني الى حياة مغلوطة كاذبة . كان يجب ان اقطع الربط التي يقيدونني بها منذ زمن طويل . ماعلاقتي بهم بعد الان ؟ انهم يعكرون صفو حياتي ، وانا اصنع الامر نفسه بحياتهم ايضاً . اني زائد ههنا ، أثقل على نفسي وعلى سائر الناس .

ويدير عيني غضبه بالرغم منه ، حانقاً ، ويتطلع اليها ، هي صوفيا أندرييفنا ، زوجته . يا إلهي ، لشدما شاخت ولشدما ابيضت ! ان الغضون تحتفر جبينها ، هي الاخرى ، وان الحزن قد لوى فمها الهرم ، هي الاخرى ايضاً . واذا موجة من الوداعة تملأ بغتة قلب الرجل .

انه يفكر :

— يا الهي . كم هي قاتمة ، ولشدما تبدو كئيبة ، هي التي ادخلتها الى حياة فتاة ضاحكة بريئة ! لقدمضى حتى الان عمر رجل كامل ، اربعون او خمس واربعون سنة ونحن نعيش معاً ! لقد اخذتها فتاة صبية ، انا الذي كنت يومذاك رجلا نصف مهترىء ، ولقد منحتني ثلاثة عشر سليلا ، وساعدتني في تأليف كتبي ، وارضعت ابنائي . وانا ، ماذا فعلت منهـــا ؟ امرأة يائسة ، تكاد ان تكون مجنونة ، مرهقة الاعصاب دوماً ، يجب ان نخفي عنها المخدرات كي لاتنتزع حياتهـــا بنفسها ، لشدة ماجعلتها شقية تاعسة ! اما ابنائي ، فاني اعرف انهم لايحبونني . اما بناتي ، اللائي يقعدن ههنا الان ، فقد قرضت شبابهن قرضاً . بينما امناء سري يقيـدون كل كلمة ألفظها ، وينقرون كل ماأقوله مثلما تنقر العصافير الدورية روث الجياد . وهم قد هيأوا منذ الان ، في علبة خاصة ، المراهم والدهون اللازمة كي يحتفظوا بمومياءئي في متحف الانسانيـة . وهـذا الابله الانكليزي ايضاً ينتظر ، ودفتره في يده ، ان اوضح له « الحياة » . خطيئة ضد الله وضد الحقيقة ، ذلك هو واقع هذه المائدة ، وهذه الدار

المليئة بالاسرار المقيتة ، والمجردة عن كل طهارة . وانا ابقى جالساً بالرغم من ذلك في هـذا الجو ، اجدنفسي دافئاً مرتاحاً ، بدلاً من ان اقفز الى الخارج وانطلق في حال سبيلي . كان يفضل بالنسبة الي ،كان يفضل بالنسبة اليهم ، لو اني كنت ميتاً . اني اعيش طويلا ، ولا اعيش كفاية في الحقيقة ، لقد حانت ساعتي منذ زمن طويل في الحقيقة .

ويقدم الخادم له اطعمة اخرى ، وثماراً محلاة ، محاطة بزبد حليبي ، ومبردة بالجليد . ولكنه يدفع الصحن الفضي بحركة حانقة من يده .

وتسأل صوفيا أندرييفنا ــ ماأشد سذاجتها ! ــ في قلق :

ــ أليس الطعام جيداً ، أهو ثقيل جداً بالنسبة اليك ؟

ولكن تولستوي يكتفي بأن يجيب في مرارة :

ــ ان ماهو ثقيل بالضبط بالنسبة الي ، هو كونه جيداً جداً .

ويتطلع الابناء اليه ، مغتاظين ، وتنظر المرأة صوبه في دهشة ، ويستدير الصحفي بناظريه نحوه في جهد : ان المرء يستطيع ان يرى انه يحاول حفظ هذه الحكمة .

وينتهي الغـــداء اخيراً ، فينهض الجميع ويدلفون الى قاعة الجلوس ، حيث يدخل تولستوي في نقاش حامٍ مع الثوروي الفتي الذي يرد عليه ، بالرغم من كل احترامه ، في جرأة وحمية . ان عين تولستوي ترسل بروقاً حادة ، وهو يتحدث في عنف بكلمات سريعة متلاحقة ، بل يكاد ان يصرخ صراخاً ، فالمناقشة مابرحت حتى الان تطبق عليه في هوى لايمكن ترويضه او اخضاعه مثلما كان الصيـــد والتنس يفعلان به في غابر الزمان . ولكنــه يضبط نفسه ، بغتة ، في الجرم المشهود نهبـاً للهياج والحنق ، فيجبر نفسه على التواضع ، ويخفف من حدة صوته ، في جهـــد ، وهو يقول :

ــ ولكن لعلني اخطىء فيما اذهب اليه . ان الله قد بعثر افكاره بين الناس ،

وليس انسان يدري ان كان مايعبر عنه هو الافكار الالهية ام افكاره الخاصة أليس غير .

وكي يبدل الموضوع ،يتوجه الى الاخرين بهذه الدعوة :

— فلنخرج الى الباحة في نزهة قصيرة .

ولكن لابد من وقفة قصيرة قبلا : ان الزائرين من الطبقات الشعبية ،المستعطين والمتشيعين ، هؤلاء « المظلمين » جميعاً ينتظرون تولستوي تحت شجرة الدردار العتيقة جداً ، مقابل عتبة الدار عند « شجرة الفقراء » الشهيرة . لقد جاؤوا عن بعد عشرين فرسخاً يحجون الى دار المعلم ، كي يسألوا نصيحة او يطلبوا قليلاً من المال ، وهؤلاء هم وقوفاً هناك ، تحرقهم الشمس اللاهبة ، ويرهقهم التعب والاعياء الشديدان ، وقد اغبرت احذيتهم حتى اصبحت بيضاوية اللون .

وعندما يتقدم « السيد » ، « الاقطاعي » ،منهم ، ينحني بعضهم حتى الارض على الطريقة الروسية ،بينما يذهب تولستوي اليهم بخطى سريعة متأرجحة :

— ألديكم طلبات تقدمونها ؟

— اني اود ، ياسيدي ...

فيقول تولستوي معنفاً :

— انا لست « ياسيدي » . ليس احد « ياسيدي » سوى الله .

ويروح الفلاح الصغير يفتل في فرق طاقيته بين يديه ، وأخيراً يتمتم ببعض الاسئلة المضطربة المرتبكة ، يريد ان يعرف ما اذا كانت الارض ستصبح الان حقاً ملكاً للفلاحين ، ومتى سينال هو حصته منها . ويرد تولستوي عليه في صبر فارغ ، اذ ان كل غموض يثيره ويبعث الحنق في نفسه ، ومن ثم يلتفت الى غفير الغابة الذي يطرح عليه اسئلة عديدة تتعلق بالله ، فيسأله تولستوي ان كان يجيد القراءة ، فيجيبه الاخر بالايجاب ، وعندئذ يرسل في طلب المؤلف الذي عنوانه : « ماذا يجب ان



احمد مشاهر یاسنایا پولیانا

نفعل ؟ » ويصرف الرجل به . وحينئذ يقترب بعض المستعطين الواحد في إثر الآخر ، فيصرفهم تولستوي بسرعة ، وقد فرغ صبره منذ الآن ، وهو يعطي كلا منهم خمس كوبيكات . واذ يلتفت ، يلاحظ ان الصحفي قد التقط صورته وهو يقوم بالصدقة على هذا المنوال ، فيظلم محياه من جديد .

ـ هكذا يمثلونني ، اناتولستوي ، الكريم ، قرب الفلاحين ، انا الرجل المحسن ، الانسان النبيل الذي امد يد المعونة الى الجميع ! ولكن لو انهم كانو يستطيعون ان يروا الى داخل قلبي لعرفوا اني لم اكن قط طيباً ، واني قد حاولت فقط ان اصبح كذلك. ان أناي هي الشيء الوحيد الذي شغلني بصورة فعلية ، وأنا لم اكن محسناً في يوم من الايام ، لأني لم اعط الفقراء طوال حياتي نصف ما كنت اخسره فيما مضى ، في موسكو ، في ليلة واحدة في لعب الورق. ابداً لم يخطر لي على بال ان ارسل الى دستويفسكي ، الذي يشكو الجوع فيما اعلم ، المائتي روبلا التي كانت تنقذه شهراً كاملا وربما تنقذه الى مدى الحياة . ومع ذلك فاني اسمح بأن يمجدني الناس وان يحبوني كأنبل البشر على الاطلاق ، بينما اعلم حق العلم اني مابرحت حتى الان في بداية البداية !

انه في عجلة من امره ، يريد ان يقوم بنزهة في الحديقة ، فهو ـ هـذا الشيخ الصغير الرشيق ذو اللحية المتموجة ـ يركض في فراغ صبر عظيم حتى ان الآخرين لايستطيعون اللحاق به الا بصعوبة عظيمة . كلا ، لم تعد القضية بعد الان تقوم في الاكثار من الحديث . بل كل مايريده هو ان يحس عضلاته بكل بساطة ، وان يشعر بمرونة اوتاره ، وان يلقي نظرة على بنـــاته اللواتي يلعبن التنس ، نظرة على براءة اللعب الحكمي ورشاقته . انه يلاحق كل حركة باهتمام فائق ويضحك فخوراً

لدى كل ضربة ناجحة ، ومن ثم يتابع طريقه ـ وقد ارتاحت حواسه واغتبطت ـ عبر الطحلب ذي العبيق اللذيذ . ولكنه يعود بعد ذلك الى غرفة عمله يقرأ قليلا ، ويرتاح قليلا : انه يحس في بعض الاحايين تعباً شديداً ، ويشعر بان ساقيه ثقيلتان جداً . وبينا هو يضطجع هكذا وحيداً على الديوان المشمع الجلد ، مغلق العينين ، يحس التعب والشيخوخة ، يروح يفكر في سكون :

ـ ومع ذلك فإن الامور تسير على مايرام : اين هي تلك الفترة ، تلك الفترة الرهيبة التي كنت ارهب الموت فيها ، مثلما ارهب شبحاً مفزعاً ؟ اين هي الفترة التي كنت اريد فيها ان اختبأ من وجه الموت وان انكر نفسي ؟ اما الآن، أما الآن فليس بي ادنى خشية على الاطلاق ؛ بل اني لأشعر بالارتياح قرب الموت ايضاً .

وينهض ، وتروح افكاره تتنقل في السكون . ويخط في بعض الاحايين كلمة سريعة بالقلم ، ومن ثم يتطلع طويلا وفي جد عظيم الى الامام منه . وانه لجميل عندئذ محيا الرجل العجوز المتعب الذي يرين عليه التأمل والحلم ، وهو وحيد مع نفسه ومع افكاره .

ويهبط مساء الى حلقة الحديث مرة اخرى : بلى ، ان العمل قد تحقق . ويسأل الصديق غولدنويزر ، العازف على البيان ، ان كان يستطيع ان يعزف شيئاً ما .

ـ بكل طيبة خاطر ، بكل طيبة خاطر .

ويستند تولستوي الى البيان ، ويداه تخفيان على وجهه كي لا يرى احد كيف يجتاحه سحر الاصوات المتناسقة . انه يرهف سمعه ، مغلق الجفنين ، وهو يأخذ انفاساً عميقة جداً . ياعجباً ، ان الموسيقى التي طالما هاجمها بعنف شديد لتغني في اذنيه بصورة مدهشة ، توقظ فيه كل ما في قلبه من حنان وعطف : انها تعيد الى نفسه ، بعد سائر تلك الافكار الصارمة القاسية ، الوداعة والطيبة جميعاً .

ويفكر في وليجة نفسه في سكون :

ـ كيف امكنني ان اهين الفن واحتقره ؟ اين يمكن ان يجـد المرء العزاء الا في الفن ؟ ان كل فكر يثقل على الروح ، وكل عـلم يعكر صفوها ويبعث الاضطراب فيها ، فأين نستطيع ان نحس بكل وضوح حضور الله ان لم يكن في صورة الفنان وكلمته؟ إيه يا بيتهوفن ويا شوبان ، انكما اخواي ! اني اشعر بنظراتكما تتاح في كليا الآن ، وان قلب الانسانية ينبض في قلبي . اصفحا عني ، ياأخوي ، لأني اسأت اليكما .

وتنتهي الموسيقى بمقطع رنان ، فيصفق الجميع ، وكذلك يفعل تولستوي بعد تردد قصير : لقد شفي كل قلق كان يثقل عليه . وينضم الى الجماعة المتأصصة هناك وعلى شفتيه ابتسامة عذبة ، ويتمتع بلذات الحديث . واخيراً فإن شيئاً كالغبطـة والسكون يسبح فيما حوله : ليبدو ان اليوم ذا المظاهر المتعددة قد انتهى .

ولكنه يذهب مرة اخرى ، قبل ان يسعى الى فراشه ، الى غرفة عمله . ان تولستوي سيقاضي نفسه مرة اخرى قبل ان ينتهي النهار ، وسيحـاسب نفسه ، مثله دوماً ، عن كل ساعة كما سيحاسبها عن حياته بكاملها . ويفتح « مذكراته » : ان هذه الاوراق البيض لأشبه ماتكون بعين الوجدان التي تراقبه . ويفكر تولستوي في كل ساعة من النهار المنصرم ويحكم عليها . انه يفكر في الفلاحين ، وفي البؤس الذي هو سببه ، والذي مر من امامه حينما خلال نزهته على صهوة فرسه دون ان يقدم اليه اية معونة ، اللهم الا تلك القطعة الصغيرة من المال . ويتذكر انه كان فارغ الصبر مع المستعطين ، وان افكاراً قاسية وخبيثة قد راودته فيما يخص زوجته ، انه يسجل سائر الخطايا في كتابه ، كتاب الاتهام ، ويخط بقلم حانق هذا الحكم :

« لقــد كنت متوانياً مرة اخرى ، وكانت نفسي جبـانة رعديدة . اني لم اصنع مايكفي من الخير ، ولم اتعلم بعد ، كي احقق الفعل الصعب ، كيف احب البشر الذين هم حولي ، بدلاً من احب الانسانية .. مد لي يد المعونة يا الهي ، مد لي يد المعونة ».

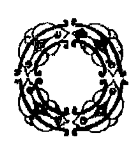
ومن ثم تاريخ الغداة ، وتلك الاحرف الغامضة السرية : « إ . ب . ح . » (اذا بقيت حياً) . لقد تم انجاز العمل الآن وهذا يوم آخر قد انتهى ، فهو يغدو ـ الرجل العجوز ـ ، وقد انحنى كتفاه ، الى الغرفة المجاورة ، ويخلع قميصه وحذائيه الثقيلين ويمدد جسده ، جسده الثقيل ، في الفراش ويروح يفكر ، مثله دوماً ، في الموت اولا . ان الافكار ، هذه الفراشات الملونة ، تحوم مرة اخرى في اضطراب فوقه ولكنها تأخذ بالضياع شيئاً فشيئاً كما تضيع الفراشات في الغابة التي تزداد ظلمتها اكثر فاكثر باستمرار . لقد أخذ النوم يلفه بظله القريب ...

ولكن هذا هو ينتفض ذعراً على حين غرة . أفلم يسمع لتوه صدى خطوات؟ ... بلى ، ان شخصاً ما يسير في الغرفة المجاورة ، غرفة عمله ، بهدوء وخطى سريعة . وسرعان مايقفز من سريره نصف عريان ، دون ان يثير اية ضوضاء ، ويلصق عينيه اللاهبتين في ثقب المزلاج . بلى ، ان هناك نوراً في الغرفة المجاورة التي دلف اليها شخص ما يحمل مفتاحاً في يده ، وهو الان ينقب في مكتبه ، ويتصفح «مذكراته» السرية جداً ، كي يقرأ كلمات وجدانه وأحاديثه : هذا الشخص ، انها صوفيا أندرييفنا ، زوجته . انها تتجسس عليه حتى في اكثر اسراره خصوصية ، وهؤلاء الذين يحيطون به لايتركونه وحيداً ، حتى مع الله . انه محاط في كل مكان ، في كل مكان على الاطلاق ، في داره في حياته ، في نفسه ، بطموح البشر وفضولهم . وترتعش يداه غضباً وحنقاً ، ويمسك

بالمزلاج يريد ان يفتح الباب بصورة مباغتة ، وان يهجم على زوجته التي خانته . ولكنه يتغلب على غضبه في اللحظة الاخيرة :

ـ لعل هذا ايضاً تجربة قد فرضت علي .

وحينئذ يجر نفسه حتى فراشه ، أخرس ، منقطع الانفاس ، متطلعاً في اعماق نفسه مثلما يتطلع في قعر نبع قد نضب معينه وجف . وهكذا يظل يقظاً فترة طويلة بعد ذلك ، هو ، ليون نيقولايفيتش تولستوي ، اعظم رجال عصره واقوامهم ، مخدوعاً في ذات منزله ، معذباً بالقلق المرهق ، متجمداً بالوحدة القاسية .



العزم والتجلي

« كي يؤمن الانسان بالخلود ، لابد له ان يعيش
على هذه الارض حياة خالدة » .

تولستوي

« المذكرات » : ٦ آذار ١٨٩٦

ليون تولستوي ، في عام ١٩٠٠ ، عتبة القرن الجديد وله من العمر اثنتان وسبعون سنة . ان العجوز البطولي متيقظ الفكر دوماً ، يسير قدماً نحو الكمال وقد اضحى منذ الآن شخصية اسطورية . ان محيا هذا التائه الشيخ الذي يجوب ارجاء الكون العظيم ليشرق أكثر وداعة منه قبلاً تحت لحيته الثلجية . اما جلده ، المصفر شيئاً فشيئاً ، فقد اصبح اشبه برق شفـــاف تغطيه غضون واخاديد لاعد لها . وكثيراً ما تعشش الآن ابتسامة صبورة مستسلمة حول شفته المرتاحة التي هدأت واستكانت . اما الغضب فيندر ان يرفع حاجبيه الكثين، بينما سيماء آدم العجوز الحانق قد اصبحت رقيقة عذبة ، وكأنها قد تبدلت وتجلت .

ويقول اخوه مدهوشاً ، هو الذي عرفه طوال حياته متمرداً لاهباً :

ـ لشد ما أصبح طيباً !

وفي الحقيقة ان هواه الجامح قد اخذ ينطفىء ، فقد تعب وكل من النضال ومن تعذيب ذاته ، فنفسه تتنفس حالياً في ارتيـاح اعظم من ذي قبل ، وكثيراً ما تتمتع بشيء من الراحة من وقت لآخر . ان بريقاً جديداً من الوداعة ينور محياه، في ضياء المساء الاخير ، فاذا ما كانت الظلمة تطغى فيما مضى من الزمان لدى تأمله، فقد اتخذ الآن مظهراً مؤثراً في الحقيقة : لكأن الطبيعة قد جهدت طوال ثمانين عاماً كي ايتظاهر أخيراً الجمال الصميمي لهذا الرجل ، كي يتظاهر سمو هذا الشيخ المصنوع من العظمة والعلم والغفران ، في شكله الأمثل والنهائي . وان الانسانية لتحصد بالضبط هذا المحيا المتجلي ميراثا لها ، لأنها ترى فيه وحده صورة تولستوي الحقيقية ؛ وان الاجيال سوف تحتفظ ، في اثر الاجيـال ، بصورة وجهه الرزين الهادىء على هـذا الغرار ، وهي تكن له اعظم الاحترام واعمقه .

ان السن ، الذي يصغر عادة وجه الرجال الابطال ويشوهه ، يضفي على محيا تولستوي جلاله الأكمل : هذه القسوة قد اصبحت عظمة ؛ والهوى قد تحول الى وداعة ؛ والعنف والصرامة قد صارا طيبة هادئة وتفهما اخوياً لسائر الاشياء . وفي الحقيقة ان المناضل الشيخ لايرغب إلا في السلام وحده ، إلا في « السلام مع الله ومع البشر » ، وفي السلام ايضــــاً مـع ألد اعدائه ـ الموت . لقد مر ، لقد انقضى ـ لحسن الحظ ـ ذلك الخوف المرعب ، الرهيب ، الحيواني ، من المنية ؛ والعجوز يتطلع الى النهاية التي تقترب بنظرة هادئة ، مستعداً لاستقبالها في اطمئنان عظيم.

« اظن انه من الممكن ألا أكون بعد على قيد الحياة في الغداة . اني احاول كل يوم ان أئتلف اكثر فأكثر هذه الفكرة ، فأعتاد عليها اكثر فأكثر دوماً » . ياعجباً ، ان الفكر الخلاق ليتجمع من جديد في هذا الانسان ، منذ اللحظة التي كف فيها ذلك الذعر المختلج عن اضطهاده وارهاقه بعد ان اقلقه وأقض مضجعه طويلا . وكما ان جوته يستدير ، وقد اضحى شيخاً حسناً ، عن تسلياته العلميـة في نور المســـاء الاخير بالضبط كي يرجع الى « عمله الرئيسي » ، هكذا تولستوي المبشر ، الاخلاقي يلتفت هو الآخر ، في سن غير معقولة ، بين سنتيه السبعين والثمانين ، نحو الفن الذي طالما انكره ، فاذا اقوى شعراء القرن المنصرم واعظمهم يبعث الى الحياة مرة اخرى ، في القرن الجديد ، بكل روعته السابقة . وهكذا يوتر الشيخ ، في جرأة وبأس ، قوس وجوده الشيطاني ، ويستغرق في تأمل احد احداث سنواته القديمة التي قضاها كواحد من القوزاق ، وينظم بوحيه هذه الالياذة ، هذه الملحمة العظيمة التي هي « حجي مراد » ، الغاصة برنين اسلحة الحرب ، اسطورة بطولية مروية بطريقة ساذجة وعظيمة ، كما كان تولستوي يروي في ايامه الاكثر كمالاً .

وإن مأساة « الجثمان الحي » ، والاقاصيص الرائعات : « مابعد الحفلة » .

و « كورني فاسيليو » ،وعدداً كبيراً آخر من الاســـاطير الصغيرة لتثبت بصورة مجيدة عودة الفنان وانبعاثه،واختفاء شراسة الاخلاقي وتلاشيها . ان المرء لايستطيع في اي موضع ،من المؤلفات المتأخرة ، ان يخمن يد العجوز المتعبة الكابلة ، لان نثرها يسيل مثل الزمان الذي يسقط تياره المتدفق الرنان في الابدية ، رائقاً حتى الدرجة القصوى ، حتى اعمق أعماق النفس الخفية . ان عين العجوز العظيم الرمادية المتزن ، مصونه عن الخطأ ، عصية على الفساد مثلها دومـــاً ، مصير البشر المتحرك بصورة ابدية . انّ قاضي الحياة قد عاد شاعراً ، وذلك الذي كان فيما مضى عقائدياً يدعي فهم الحياة ويسبر اغوارها ، ينحني في اعترافات شيخوخته الرائعة في احترام عظيم امام غموض الالهي وامتنــاعه عن الادراك .ان ذلك الفضول المتكبر العديم الصبر الذي يريد ان يحل مشاكل الحياة العظمى ليخلي مكانه لطريقة متواضعـــة في إرهاف السمع لتلك الضوضاء المقتربة ابداً التي تثيرها موجة اللانهاية . لقد اصبح طيباً ليون تولستوي ، ولكنه لم يتعب بعد : انه ينقب في « مذكراته » ، من دون ان يستشعر كلالاً قط ، مثل فلاح من فلاحي العالم البدائي — حتى يقع القلم من يديه اللتين تبردان — حقل افكاره التي لاينضب لها معين مطلقاً .

ذلك ان هذا الرجل الذي لايعرف معنى التعب ، هذا الرجل الذي فرض القضاء عليه رسالة النضال حتى اللحظة الاخيرة في سبيل الحقيقة ، يجب ألا يجد الراحة بعد. لابد له قبلاً من ان ينجز ويحقق عملاً أخيراً،اكثر قداسة من سائر الاعمال الاخرى، عملاً لايتعلق بالحياة ابداً ، بل بالأحرى بموته الخاص الذي يقترب . ان آخر مشاغل هذا المبدع العملاق سوف تقوم في نحت موت لائق وأمثل من اجل ذاته ، فهو

يبذل ـ بصورة رائعة ـ كل مابقي له من القوى في سبيل ذلك . ان تولستوي لم يعمل في اي من آثاره بمثل هذا الصبر وبمثل هذه الحمية ؛ ولم يدرس اية مشكلة بمثل هذا التعمق وبمثل هذا التفكير ؛ انه يريد بالضبط ، كفنان صادق يصعب ارضاؤه ، ان ينقل الى الانسانية ، طاهراً خالياً من كل دنس ، هذا العمل ـ موته ـ آخر آثاره وأكثرها انسانية على الاطلاق .

وان هذا النضال في سبيل موت نقي كامل مجرد عن كل كذب ، ليصير معركة حاسمة في معمعان هذه الحرب التي يشنها ذلك السبعيني العاجز عن العثور على السلام المرتجى ، وهي في الوقت نفسه اشد المعارك ايلاماً واكثرها قسوة ، لأنها نضال ضد دمائه بالذات . لامناص من انجاز فعل الخير بعد ، فعل تقهقر امامه دوماً طوال حياته في تردد لانستطيع اليوم تفسيراً له ، فعل هو التنازل النهائي الحاسم عن ثرواته جميعاً . لقد أجل تولستوي دوماً في خشية ووجل ـ مثله في مثل كوتوزوف الذي يريد ان يتجنب المعركة الحاسمة ، والذي يأمل ان يتغلب على خصمه الرهيب بتراجع ستراتيجي مستمر ـ تدبير ثروته النهائي ، ملتجئاً ، هرباً من وجدانه ، الى « حكمة عدم العمل » .

ان سائر المحاولات التي بذلها في سبيل التنازل عن حقوقه في مؤلفاته ، حتى بعد وفاته ، قد لاقت دوماً معارضة عائلته الضارية ، بينما كان هو أضعف ـ وفي الحقيقة اكثر انسانية ـ من ان يحطم هذه المعارضة في قسوة وعنف . وهكذا فقد اكتفى طوال سنوات عديدة بألا يتناول ، شخصياً ، شيئاً من المال ، وألا يستفيد من دخله . إنما (انه يعترف بذلك) « كان في اصل هذا الزهد كوني انكر مبدئياً كل ملكية ، وكوني لاأهتم بثروتي بتأثير خجل مغلوط تجاه الناس ، خوفاً من ن

يتهموني بعدم الصدق في سلوكي» . لقد كان دوماً ، بعد أكثر المحاولات تنوعاً ، هذه المحاولات الفاشلة دوماً التي كانت كل منها تعتبر مأساة في دائرة عائلته ، يبعد عنه القرار الحاسم الذي لارجوع فيه ، الخاص بوصيته ، ويؤجله الى تاريخ غير معين . ولكن عندما اكتسبت عائلته فرصة يوبيله عام ١٩٠٨ ، وهو في السنـــة الثمانين من عمره ، كي تشرع في طبعة كاملة لمؤلفاتـــه بأرباح ضخمة للغاية ، اصبح يستحيل عليه ، هو العدو العلني لكل ملكية خاصة ، ان يبقى عاطلا ، عن العمل ؛ كان لابد لليون تولستوي ، وهو في الثمانين ، من شن المعركة الحاسمة مكشوف الوجه . وهكذا تصبح ياسنايا بوليانا ، بهجة الروسيا حيث تتضوأ الشمس الغاربة لمجد يخيم بجناحيه على العالمين معاً ، مسرح نضال عنيف وراء الابواب بين تولستوي وذويه ، نضال يتفاقم شره وبشاعته بمقدار مايكون سببه شيئاً حقيراً ـ المال ـ نضال لا تعطي صيحات « المذكرات » المؤلمة الا فكرة ناقصة عن شراسته وقوته .

ويتنهد خلال تلك الايام (٢٥ تموز ١٩٠٨) ، قائلاً :

ـ أواه ! ماأصعب ان يتخلص المرء من هذه الملكية القذرة المجرمة !

ذلك ان نصف عائلته كانت تتنازع هذه الملكية بأظافر اشبه ماتكون بأظافر الكواسر ، فإذا مشاهد خليقة بأسوأ الروايات المبتذلة تتلاحق امام امام عينيه في أشد لحظات حياته اسى : دروج مخلوعة ، خزانات منبوشة ، احاديث يتجسس الآخرون عليها ، مساع لوضعه تحت الوصاية ، أضف اليها محـــاولات تبـذلها زوجته في سبيل الانتحار ، ووعيد بالفرار من قبله : ان « جحيم ياسنايا بوليانا » ، كما يسميه ، يفتح ابوابه على مصاريعها . ولكن تولستوي ينتهي الى ان يستقي ، في هذا الافراط من العذابات بالضبط ، قراراً حاسماً ، فيعزم اخيراً ، قبل وفاته بأشهر قليلة ، ألا يقبل

بعد الآن ابداً بأي التباس او غموض في حياته ، كي يؤمن نقاء موته وصدقه ،وان يترك للاجيال التالية وصيةتمنحسائر ثروانه الفكرية للانسانية بصورة لامرد لهاالبتة. ولم يكن له بد ، في سبيل تحقيق هذا الفعل الأخير من الاخلاص ، من كـــذبة أخيرة ؛ فاذا هذا الشيخ البالغ اثنتين وثمانين سنة من العمر يمتطي جواده ويغدو ـ مادام يجد نفسهفيداره مراقباً تتلصص العيون كلاً من حركاته ـ الىالغابة المجاورة، غابة غرومونت ، وكأنه ذاهب في نزهة عادية ، وهناك يوقع أخيراً ، ـ تلكأشد لحظات عصرنا بأسره تأثيراً في الحقيقة ـ على أرومة شجرة عتيقة ، وبحضور ثلاثة شهود والجياد التي تنفخ في صبر فارغ ، تلكالورقةالتي ستمنح ارادته السلطةوالصحة المتينتين فيما وراء حياته الراهنة .

لقد دمر الان سائر العقبات التي كانت تعترض سبيله ، فهو يظن اذن انه قـد حقق العمل الحاسم أخيراً . ولكن عملاً أصعب وأهم وأشد ضرورة ينتظره بعد، لأنه ليس من سر يقاوم بين جدران هذه الدار المصنوعة من الوجدان القويم الملتهب انسانية . ان الشكوك والوشوشات تتسرب من مختلف الزوايا ، وتشق طريقهـا قطرة فقطرة ، تتنقل من شخص الى آخر بالتدريج ، وما اسرع ماتعلم العائلة ان تولستوي قداتخذاحتياطات خفية ، فيروح أهله يغتصبون بمفاتيح مزورة سرالدروج والخزائن ، وينبشون « المذكرات » كي يجدوا فيها سبيلاً يهديهم ، بينما الكونتس تهدد بالانتحار اذا لم يكف تشير كوف ، الشريكالمكروه لتولستوي ، عن زياراته. ويدرك تولستوي انه لن يستطيع ههنا ، في وسط الاهواء والأطـــماع والبغض والاضطراب ، ان يؤلف أثره الفني الأخير ، كمال موته ؛ فهو ، العجوز ، يخشى «ان يسلبوه » ، من وجهة النظر الروحية ، هذه الدقائق الثمينة التي ربما كانت اروع

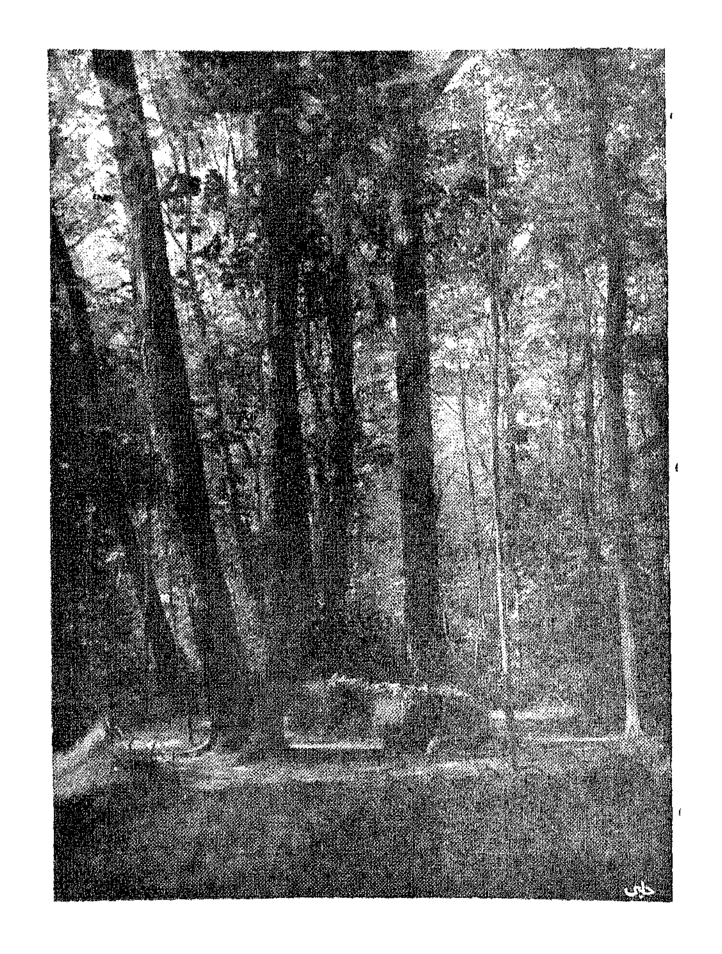
لحظات الحياة » . وعندئذ تنبثق مرة اخرى ، من اعماق شعوره ، الفكرة بأنه يتوجب عليه ، اذا اراد ان يبلغ الكمال ، ان يفعل مايطلبه الانجيل ، فيترك إمرأته وأولاده ، ويتنازل عن الملكية والربح ، كي يبلغ القداسة ويرتفع اليها .

لقـــد هرب مرتين حتى الان ، الاولى عام ١٨٨٤ ، لكن القوة أعوزته في منتصف الطريق ، فأجبر نفسه على الرجوع الى قرب زوجته التي كانت تعاني عندئذ آلام المخاض ، والتي أعطته في تلك الليلة بالذات ابنة جديدة ، هي الكسندرا هذه التي لاتبرح جانبه الآن ، والتي تحمي وصيته ، مستعدة دوماً لمســاعدته في رحلته الاخيرة . ولقد ذهب مرة اخرى بعد ثلاثة عشر عامـــاً ، في سنة ١٨٩٧ ، تاركاً لزوجته هذه الرسالة الخالدة التي يعرض فيها الامر الذي يفرضه وجدانه عليه : « لقد قررت ان اهرب ، أولاً لان هذا الوجود يثقل علي اكثر فأكثر بمقدار ما تزداد سنواتي ، فأطمح بقوة متضاعفة ابداً الى الوحدة ، ومن ثم لأن الاولاد قـد كبروا الان ، فلم يعد وجودي في الدار ضرورياً بعد اليوم ... إن أهم شيء هو ان نتشبه بالهنود الذين يهربون في الغابات عندما يبلغون الستين من عمرهم ؛ فكل رجل ديني يشعر ، عندما يبلغ عتبة الشيخوخة ، بالرغبة في وقف سنواته الاخيرة على الله وحده ، وليس على التسلية واللعب ، على الثرثرات الفارغة والتنس . وكذلك فـــإن نفسي تطمح بكل قواها حالياً ، بعد ان بلغت سنتي السبعين ، الى الراحــــة والعزلة ، كي أعيش في توافق مع وجداني أو كي أفلت على الأقل ، إن يكن ذلك الأمر مستحيلاً تماماً ، من الاختلاف الصارخ القائم بين حياتي وإيماني » .

ولكنه رجع في هذه المرة أيضاً ، وقد تغلبت الانسانية فيه . لم تكن قوة أناه

الصميمية كبيرة بصورة كافية بعد ، ولم يكن نداء دعوته عنيفاً بعد بصورة كافية أيضاً . ولكن الجذب الجبار للابعاد القاصية يصبح أشد إيلاماً في الوقت الراهن منه في اي وقت مضى ، ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك الفرار الثاني ، ومرتين ثلاثة عشر عاماً بعد الفرار الاول : ان هذا الوجدان من الحديد يحس قوة لايسبر غورها تجرفه بصورة عنيفة ورائعة في وقت واحد . ويكتب تولستوي في « مذكراته » ، في شهر حزيران من عام ١٩١٠ ، هذه الكلمات : « لست استطيع ان أفعل شيئاً آخر سوى الهرب ، وان أفكر الان في ذلك بصورة جدية . الآن أثبت مسيحيتك! هذا هو الحين او لن يكون ابداً (بالفرنسية في النص التولستوي) . ههنا ليس أحد في حاجة لوجودي . مد لي يد المعونة ياإلهي ، علمني : انا لاأريد الا شيئاً واحداً ، ألا وهو ان أصنع إرادتك وليس ارادتي (١) . اني أكتب هذه الاشياء وأتساءل: أصحيح ذلك حقاً ؟ افلست أتصنع أمامك هكذا ؟ ساعدني ، ساعدني ، ساعدني». ولكنه يتردد دوماً بعد ، ان الخشية التي يبعثها مصير الآخرين في قلبه تعوقه دوماً ، وهو نفسه يخشى دوماً ان تكون رغبته مجرمة ، فيرهف السمع ، وقد انحنى فوق أناه الخاصة ، مرتعش الاوصال ، كي يعرف إن كان نداء يأتي من الباطن ، اورسالة من علٍ ، نداء او رسالة « يأمران » بصورة لاتقاوم حيث إرادته الخاصة مابرحت تتردد وتتمايل . وانه ليعترف في « مذكراته » بقلقه واضطرابه ، وكأنه جاثٍ على ركبته في الصلاة ، امام تلك الارادة التي لايسبر غورها ، والتي استسلم اليها ، والتي

« ١ » قارن هذه الكلمات بكلمات السيد المسيح ، في بستان الجسمانية ، قبل الصلب بيومين ، مخاطباً أباه السماوي : ولكن فلتكن ارادتك ، وليس ارادتي .



قبر تولستوي

يثق في حكمتها . وان ذلك الانتظار لأشبه مايكون بالحمى في وجدانه الملتهب ؛ وهذا الاصغاء الى قلبه المرتعش لأشبه مايكون برجفان ينتاب كل كينونته ، فيروح يفكر منذ الآن ان القدر لا يسمعه ، وانه قد اسلم الى الصدفة المحضة .

وعندئذ يغني فيه ، في الساعة المناسبة الصحيحة ، صوت رنان ، صوت **الاسطورة العتيق** : « انهض ، وانتصب ، وخذ معطف الحاج وعصاه » . وانه ليتمالك نفسه اذن ، ويغدو نحو كمال ذاته ...

الهرب نحو الله

« لايستطيع المرء ان يقترب مـــن الله الا وحيداً » .

تولستوي

« المذكرات »

في الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول عام ١٩١٠ ، والزمن حوالي السادسة صباحاً ، وظلمة الليل المطبقة مابرحت معلقة بين الاشجار، كانت بعض الاشباح تحوم بصورة غريبة حول دار الاسياد في ياسنايا بوليانا . ان بعض المفاتيح تطقطق ، وبعض الابواب تصرّ بصورة مذعورة عجلى ، والحوذي يسرج الأحصنة الى العربة فوق قش الاسطبل في حذر شديد للغاية كي لايثير ادنى ضوضاء على الاطلاق ، بينما يلوح خيالان في غرفتين من الدار اشبه مايكونان بشبحين رهيبين ، يتناولان رزماً من سائر الانواع وهما يتحسسانها تحسساً ، يسلطان عليها ضوءاً ضعيفاً من مصباحي جيب أصمين ، ويفتحان دروجاً وخزائن ، ومن ثم يتسللان عبر ابواب مفتوحة دون ضوضاء ، ويتعثران خلال جذور الباحة الطينية وهما يهمسان بشيء غير مفهوم . ومن ثم هذه عربة تجري نحو باب الباحة ، متجنبة الطريق التي تمر من أمام الدار ، سالكة طريقاً خلفية .

ماذا حدث ؟ هل دخل بعض اللصوص الى القصر ؟ أهي شرطة القيصر تطوق أخيراً بيت الكاتب المشبوه كثيراً ، كي تقوم بتفتيشها ؟ كلا ، ليس انسان قد تسلل بصورة سرية الى الدار ، بل هو فقط ليون نيقولايفيتش تولستوي الذي يفر أخيراً من سجن وجوده مثل لص سارق ، لايرافقه الا طبيبه وحده . لقد وجه النداء اليه ، أخيراً ، اشارة حاسمة لامرد لها . لقد ضبط زوجته مرة أخرى ، أثناء الليل ، وهي تنبش في هوس مجنون مكتبه واوراقه ، وعندئذ انبثق فيه بصورة مباغتة ، قاسياً عصبياً مثل الفولاذ ، العزم على هجرانها ، هي التي « هجرت نفسها » ، وعلى الهرب الى

اي مكان كان، نحو الله ، نحو نفسه، كي يبحث عن الموت الذي يلزمه ، الموت الذي يجد به ربه . وهكذا فقد القى ،على حين غرة ، معطفاً فوق قميص نومه ، والبس طاقية فظة ، وحذائيه المصنوعين من المطاط ، غير مصطحب من خيراته الا ما يحتاجه الفكر كي يتصل بالبشر : « المذكرات » ، وبالاضافة اليها قلم وريشة ليس غير .. وعندما بلغ المحطة ، خربش مرة أخرى رسالة الى زوجته ، وأرسلها اليها مع الحوذي : «لقد فعلت مايفعله الشيوخ مثلي عادة : اني أهجر هذه الحيـــاة الدنيوية كي أقضي أيامي الأخيرة في الوحدة والسكون ». ومن ثم صعد الى القطار ، وهذا هو اذن ،ليون نيقولايفيتش تولستوي ، جالس على مقعد قذر في قاطرة من الدرجة الثالثة، ملتف بمعطفه ، يرافقه طبيبه فقط ، يولي الادبار كي يكون وحيداً مع الله .

ولكنه لم يعد يدعى ليون تولستوي: ان تولستوي قد القى الى الوراء منه ، مثله مثل شارل الخامس فيما مضى من الزمان ، هذا السيد الذي يحكم العالمين ، والذي ترك بملء ارادته شعارات القوة كي يدفن نفسه في نعش أحـــد الاديرة ، ألقى الى الوراء منه ، بالاضافة الى ماله ، وبيته ، ومجده ، اسمه الخاص ايضاً ، فهو يدعى بعد الان ت . نيقولاييف ، وذلك اسم مبتدع لانسان يريد ان يبدأ حيـــاة جديدة ، ويفتش عن موت نقي صالح . لقد تحطمت سائر الروابط أخيراً ، فهو يستطيع ان يكون بعد الآن التائه الذي يضرب على وجهه في طرقات غريبة ، يستطيع ان يكون خادم العقيدة والكلمة المخلصة . ويستأذن من شقيقته الراهبة أيضاً في دير تشاماردينو : هذان شبحاهما السريعا العطب والمتقدمـــان كثيراً في الشيخوخة يجلسان جنباً الى جنب بين رهبان وديعين قد تجلوا بالراحة وألحان الوحدة الطنانة .

ولا تلبث ، بعد يومين ، ان تأتي ابنته ، تلك الفتاة التي ولدت في ليلة الفرار الاول الذي باء بالفشل . ولكنه لايجد الراحة هنا أيضاً ، في هذا الملجأ الذي آوى اليه ، فهو يخاف ان يعرفه البشر ، ويلاحقوه ويكتشفوه ، فيعـــاد مرة اخرى الى ذلك الوجود المضطرب الخاطىء . وهكذا فإنه يوقظ ابنته على حين غرة ، وقد لمسته مرة اخرى اصبع خفية ، في الواحد والثلاثين من تشرين الاول ، ويلح على الذهاب الى ابعد من ذلك ، الى اي مكان كان ، الى بلغاريا ، او القوقاز ، او الخارج ، الى بقعة لايستطيع المجد والبشر بلوغاً اليه فيها ، حيث يجد أخيراً الوحدة ، حيث يجد نفسه ويجد الله .

ولكن عدو حياته وعقيدته الرهيب ، المجد ـ هذا الشيطان الذي جعل كي يعذبه ويجربه ـ لايفلت ضحيته بعد . ان العالم لايقبل بأن يكون « تولستويه » ملكاً لنفسه ، ملكاً لارادته العميقة النيرة . وهكذا لايكاد الهارب ان يجلس في جناحه ، وقد دفع بطاقيته كثيراً فوق جبينه ، حتى يعرف احد المسافرين المعلم الكبير . وما اسرع مايعرف سائر الركاب هذا الخبر وما اسرع مايفضح السر ، وما اسرع مايتزاحم في الخارج ، على باب القاطرة ، عدد غفير من الرجال والنساء يريدون ان يروا اليه . ان الصحف التي يحملونها تحوي مقالات تملأ عدة عواميد عن الحيوان الثمين الذي فر من زنزانته ؛ لقد اكتشف امره ، فهو مطوق من كل حدب وصوب ... ان المجد يقطع على تولستوي مرة اخرى ، المرة الاخيرة ، طريق الكمال . هذه الاسلاك البرقية التي تزرع طريق القطار المزمجر تدوي بالبرقيات ، والشرطة تخطر ســـائر المحطات ، فيتجند سائر المستخدمين للبحث عنه ، بينا يطلب اهله قطارات خـــاصة ، وينطلق الصحفيون خلفه من موسكو ، ومن سان بطرسبورج ، ومن نيجني نوفجورود ،

ومن انحاء البلاد الاربعة ، يلاحقون الطريدة الهاربة ، ويرسل المجمع كاهناً كي يلقي القبض على التائب ، في حين يصعد سيد الى القطار بصورة مباغتة ، ويروح يمر دون انقطاع أمام جناح تولستوي ، يرتدي في كل مرة قناعاً جديداً : انه بوليس سري . كلا ، ان المجد لايسمح لأسيره بالافلات ، وليون تولستوي لايستطيع ، لايحق له ان يكون وحيداً مع نفسه ، والبشر لايقبلون ان يكون ملكاً لذاته ، وان يحقق تقديسه ...

هذا هو منذ الآن وقد احيط وطوق من كل حدب وصوب ، ولم تبق له أية أجمة يستطيع ان يرمي بنفسه فيها . وعندما وصل القطار الى الحدود ، رفع احد المستخدمين قبعته عالياً يحييه في أدب جم ، ورفض ان يسمح له بالمرور . ان المجد سيأتي ، حيثما فتش عن الراحة ، كي يعسكر قبالته ، واسعاً مدوياً بآلاف أصواته! كلا ، إنه لايستطيع الافلات ، فالاظفار تطبق عليه بصورة متينة . ولكن هذه ابنته تلاحظ بغتة ان ارتعاشاً جليدياً قد هز جسد ابيها الأشيب ، وهـــذا هو يستند ، مرهقاً شديد الاعياء ، الى خشب الدكة القاسي . ان العرق ينبثق من سائر مسام كينونته المرتجفة ويقطر من جبينه ، وحمى صادرة عن دمائه ، المرض ، تنقض عليه كي تنقذه ، وهذا الموت يسرع فيرفع معطفه القاتم كي يخفيه عن انظار مضطهديه .

لم يكن بد من التوقف في استابوفو ، وهي محطة صغيرة على طريق السكة الحديدية : ان المريض لايستطيع ان يذهب الى ابعد من ذلك . ولم يكن هناك

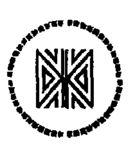
فندق ، او خان ، او قصر ، يستطيع ان تستقبله ، فيقدم رئيس المحطة ، مضطرباً قلقاً ، مكتبه الصغير ، في بيت خشبي وحيد الطابق هو بناء المحطة الوحيد (انــه كعبة يحج اليها العالم الروسي منذ ذلك الحين) . ويقودون الشيخ الذي يرتجف من البرد الى ذلك المكتب ، واذا كل ماحلم به يتحقق الان أمـام عينيه : هذه الغرفة الصغيرة ، الواطئة ، العابقة بالدخان ، المليئة بالهواء السميك والفقر ؛ وهذا السرير الحديدي ، والنور البخيل الذي يرذه المصباح البترولي ؛ وهاتان الرفاهيه والأبهة اللتان فر من وجههما بعيدتان هذه المرة كل البعد عنه . ان كل شيء يحيط به ، في ساعة نزاعه ، في لحظات حياته الاخيرة ، هو بالضبط مثلما تمنته دوماً ارادته الصميمية ! ان الموت يخضع ليد الفنان عنده بصورة كاملة ، نقياً ، مجرداً عن كل خبث ، رمزاً عظيم الجلال والمهابة ، والبناء العظيم لهذه المنية يرتفع في ايام قليلة ، تأكيداً فخمـــا لعقيدته لن يستطيع حسد البشر ان يدمره بعد الان ابـداً ، ولا ان يعكر صفوه ويخربه في بساطته القمينة بالعصور البدائية .

عبثاً يقف المجد خارجاً ، أمام الباب المغلق ، يتربص لاهثاً ، متعطش الشفتين ؛ عبثاً يتدافع وينتظر الصحفيون ، والفضوليون ، والجواسيس ، ورجال الشرطـــة والدرك ، والكاهن المرسل من قبل المجمع المقدس ، والضباط الموفودون من قبل القيصر نفسه ؛ ان ضوضاءهم الصارخة المجردة عن الحياء لن تستطيع بعد الآن شيئاً ضد هذه العزلة المثلى والحاسمة . ان ابنته وحدها تسهر عليه ، برفقة الطبيب وصديق واحد ، بحيث يحيطه بالسكون هكذا حب متواضع هادىء ، بينما يرتـــاح على

المائدة الكراس الصغير الذي يكتب فيه « مذكراته » ـ انه حامل صوته كي يتصل مع الله ! ـ لكن اليدين المحمومتين تعجزان بعد الآن عن الامساك بالقلم ، فيروح يملي على ابنته ، لاهث الرئتين مطفأ الصوت تقريباً ، أفكاره الاخيرة : انه يدعو الله « هذا الكل غير المحدود الذي يشعر الانسان بأنه جزء محدود منه ، بأنه تظاهره في في المادة ، والزمان ، والمكان » ، وينادي بأن اتحاد هذه الكائنات الارضية بحياة كائنات اخرى لايمكن ان يتحقق إلا بالمحبة . انه يوتر سـائر حواسه ، حتى قبل يومين فقط من وفاته ، كي يمسك الحقيقة المثلى ، الحقيقة العصية على الادراك ، ومن ثم تنتشر الظلمة شيئاً فشيئاً فوق هذا الدماغ المنير وتغطيه . . .

ان البشر يضطربون في الخـارج ، يحرقهم الفضول والتشوق الى كشف الاسرار . ولكنه لم يعد يحس وجودهم مطلقاً . وان صوفيا أندرييفنا ، امرأته ، لتقف هناك ايضاً ، امام النوافذ ، مرهقة بالتوبة والندامة ، تسعى ان ترى الى الداخل من خلال العبرات التي تسيل من عينيها بغزارة ، هي التي اتحدت اليه طوال ثمان وأربعين سنة ؛ انها تقف هناك ، تتربص كي ترى محياه مرة أخيرة ، ولو من بعيد : انه لايعرفها ! ان امور الحياة تصبح غريبة اكثر فاكثر عن نظرته ـ اكثر النظرات الانسانية نفوذاً ؛ والدم يسيل اشد سواداً وأكثر ثقلاً دوماً في اوردته التي تتحطم . ويصحو مرة اخرى في ليلة الرابع من تشرين الثاني ويتنهد : « ولكن ،

الفلاحون ، كيف يموت الفلاحون إذن ؟ » . ان هذه الحياة الجبارة لتدافع عن نفسها دوماً ضد الموت الجبار ، فلا تستطيع المنية ان تبلغ هذا الخالد الا في السابع من تشرين الثاني ، فيتهاوى الرأس المتوج بالبياض بين الوسائد ، وتنطفيء العينان ـ هما اللتان شاهدتا العالم بوضوح اشد مما شاهدته اية عين اخرى . وعندئذ فقط يعرف المنقب الفارغ الصبر الحقيقة ومعنى كل الحياة اخيراً ...



الخاتمة

« ان الانسان قد مات ، ولكن موقفه من الكون بأسره يستمر يفعل في البشر ، ليس مثلما كان يفعل اثناء حياته فحسب ، بل بقوة اعظم ايضاً . وان تأثيره ليمتد بمقدار ما كان يمليه من عقل ومحبة ، وهو ينمو ، مثل كل شيء حي، دون انقطاع ودون نهاية ».

من رسائل تولستوي

دعا مكسيم جوركي ، ذات يوم ، تولستوي « بإنسان الانسانية » ، وتلك كلمة لاتطاولها كلمة اخرى في حقيقتها . ذلك انه انسان مثلنا جميعاً ، قد جبل من الطينة السريعة العطب نفسها ، غير بريء من النقائص الأرضية ذاتها التي نملكها جميعاً ، ولكنه يعرفها بصورة اعمق منا ، ويتألم بسببها بصورة أشد أيضاً . لم يكن ليون تولستوي من جنس يختلف عن بقية مفكري العصر ، اويسمو عليهم . لكنه كان فقط اعظم انسانية من معظمهم ، واعمق اخلاقاً ، واكثر شدة وأشد استنارة ، واعظم يقظة واندفاعاً ، تجربة اولى اشد وضوحاً ـ اذا جاز التعبير ـ لذلك الشكل البدائي غير المرئي ، المصنوع في معمل خالق الكون .

أن يحقق بطهارة تامة ، وبكل الكمال الممكن ، في وسط عالمنا المختلط ، تلك الصورة للانسان الأبدي التي توجد مسودتها غير الواضحة ، لكن القابلة للادراك في معظم الاحايين ، في صميمنا جميعاً ، ذلك هو العمل الجوهري الذي فرضه تولستوي لحياته ـ عمل لايمكن ان يكمل ويتحقق بصورة تامة قط ، فلا يكون إلا بطولياً بصورة مضاعفة لهذا السبب بالضبط . لقد بحث عن الانسان في تجسده الأمثل وصنعه ، بفضل إخلاص فكري لامثيل له . لقد فتش عنه واستجوبه في السر الغامض لذات وجدانه ، هابطاً الى اعماق لايبلغها المرء الا اذا جرح نفسه . لقد نبش نفسه بجد لايعرف معنى الرحمة ، وبقسوة لاتدري سبيلاً الى الشفقة ، نبش نفسه دون اي تحفظ على الاطلاق ، كي يخلص تلك الصورة البدائية من قشرتها الارضيـــة ، وكي يظهر للانسانية جمعاء محياها وقد صار انبل واكثر شبهاً بالله ، معتبراً هذا العمل غايـــة جهود البشر جميعاً على حد سواء . ان هذا الفنان الذي لايخاف شيئاً ليشتغل طوال وجود كامل ، دون ان يرتاح قط ، ودون ان يرضى ابداً ، ودون ان يمنح فنه

لحظة واحدة ذلك الفرح البريء الذي ينشأ عن لعب الاشكال الساذج ، في هـــذا العمل العظيم الذي يقوم في تحسين أناه بتمثيل هذه الأنا . ليس من شاعر قد اعطانا ، منذ جوته ، مثل هذا الكشف عن ذاته ، وعن الانسان الابدي في الوقت نفسه .

ولكن هذه الارادة الوطيدة في الطهارة والمعرفة التي يتمتع تولستوي بها لم تنته إلا بصورة ظاهرة مع حياته : ان محياه البطولي ، الخلاق دوماً ، مابرح يفعل في الحاضر ، لانه قد دخل في عصرنا ، هو آخر محيا عظيم عرفه القرن الماضي . انه مايزال موجوداً ، يشهد على وجوده الارضي عدد غفير من الناس الذين شاهدوا عينيه النافذتين ، الذين لمسوا يديه الابويتين ؛ ومع ذلك فان حياة ليون تولستوي قد اصبحت اليوم اسطورية حتى أجيال وأجيال ـ خرافة جديدة تعلن عن جبروت حب مجبول من التواضع .

ذلك ان الانسانية تفتش دوماً ، عبر فرار الزمن ،عن الانسـان الذي يمكن ان يكون شعاراً ومثالاً يحتذى ، كي تجعل منه رمز حسها الاخلاقي الباحث عن الابدية ، ولا تختار الا اقوى الجميع من بين العدد الوفير ـ كي تثبت قوتها . انهـا لاتجسد ارادتها إلا في الانسان الذي يبذل اعظم الجهود ، وينقب في محيا جبارة فقط ؛ انها لاتعرف علمها وحقيقتها الا في انسان الحقيقة وحده ، من دون سواه ...

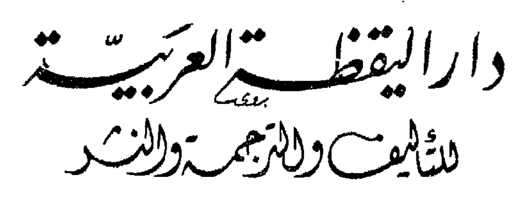
الفهرس

درراً

تنشرها

بين يديك

قريباً



من

سلسلة عيون الأدب العالمي

دوستويفيسكي

في روايته الخالدة

الإخوان كرامازوف

قصة الصراع الابدي بين الله والشيطان في النفس البشرية المعذبة .. لوحة رائعة عن ينابيع الخير والشر فى الانسان ، وسمتها ريشة أعظم ملهم عرفه تاريخ الآداب العالمية جميعاً.

بشر يتحررون من كل ماهو أرضي الطبيعة ، ليواجهوا بكل مافي ارواحهم من قوة وضعف ، السر الالهي الخفي، المعصي على الادراك ، وكي يتردوا في الهاوية السحيقة ، هاوية الله وهاوية المعدم على حد سواء .

يقع في ثلاثة مجلدات كل منهما في زهاء ستمائة صفحة من القطع الكبير . مزينة بمجموعه كبرى من الصور خصيصا لهذه الطبعة العربية وبصورة كاملة غير منقوصة .

مقدم بدراسة عن مشكلة الألم عند دستويفسكي

من

سلسلة عيون التراث العربي

ديوان

ايليا ابو ماضي

شاعر المهجر الاكبر

شاعر المهجر الاكبر

كتب مقدمته جبران خليل جبران

الديوان نفحة مهجرية عربية عطرة . فيها سر شاعرية المهجر مصقولة بديباجة عربية مشرقة تضع ايليا ابوماضي في المرتبة التي يستحقها من حيث العبقرية والخلود ...

ديوان ينشر لاول مرة

وقف على نشره وقدم له بدراسة وافية

زهير ميرزا

ليسانسييه في الآداب من الجامعة السورية

يقع الديوان في زهاء أربعمئة صفحة من القطع الكبير على ورق أبيض صقيل طبعة انيقة واخراج جميل



سلسلة عيون الادب العالمي

المؤلفات الكاملة للكاتب الروسي الكبير

انطون تشيخوف

المجموعة الثانية :

المنزل ذو الجناح المتوسط
صاحبة الكلب الصغير
القبلة
فولوديا
كاشتانكا
خلق
الحذاء وقوى الجحيم
الحذاء
عود الثقاب السويدي
ذكريات
عبث بريء
الطبيب
الجنادب
بزة الرئيس
الثأر

« ان هذا الاستسلام المطلق الى الواقع وهذه الرقة في تصوير الانسان ، وهذا الخوف من الموت الذي يجتاح مؤلفاته وهذا العذاب الاليم الذي يجرب ان يخفيه ، كل هذا يجعل من تشيخوف كبيرنا ومعلمنا فلنقتنع بأنه اذا كان درسه ناقصاً ، فلقد أراده هو بالذات ان يكون كذلك بحيث حثنا بهذه الموهبة الفائقة التي يملكها كبار الكتاب فقط على البحث والتنقيب بالأحرى من ان يكون قد ثقفنا » .

دانيل روبس

